الدكتور
عبد العزيز عبد المعطي عرفة
مدرس البلاغة والنقد
كلية البنات الإسلامية
جامعة الأزهر

تاريخ نشأة علوم البلاغة العربية وأطوارها

الطبعة الأولى
١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله حق حمده ، والصلاة على نبيه وعبده محمد بن عبد الله سيد البلغاء وشيخ الفصحاء ، وأمام المرسلين والأنبياء .

وبعد :

فقد حدد رسولنا العظيم محمد صلى الله عليه وسلم وضع « البيان » بين فنون الجمال حينما سأله عمه العباس — رضى الله عنه — فيم الجمال يارسول الله ؟ قال : فى اللسان يريد البيان (١) وقال العلماء : أن تعلم « البيان » من أمور الدين ، ومنزلة العلم به بعد منزلة العلم بتوحيد الله تعالى : إذ المعرفة بصحة النبوة تتلو المعرفة بالله جل وعلا .

وجعل العلماء « البيان » ثلاثة علوم :

١ — ما يحترز به عن الخطأ فى تأدية المعنى الذى يريد المتكلم إيصاله إلى ذهن السامع ، ويسمى « علم المعانى » .

٢ — ما يحترز به عن التعقيد المعنوى : أى عن أن يكون الكلام غير واضح الدلالة على المعنى المراد ويسمى (علم البيان) .

---

(١) العمدة لابن رشيق بتحقيق محى الدين ، ص ١٦١ وسر الفصاحة — تحقيق الصعيدى ص ١٣ .

٣ — ما يراد به تحسين الكلام . ويسمى « علم البديع » .

وأطلقوا على الثلاثة (المعانى ، والبيان ، والبديع) : علوم البلاغة وجعلوها من أجل العلوم الأدبية قدراً ، وأرسخها أصلا ، وأبسقها فرعا ، وأحلاها جنى ، وأعذبها وردا .

وقالوا : أن هذه العلوم البلاغية تعصم الأديب عن الخطأ فى تأدية المعنى الذى يريده ، وتعينه على استخراج درر المعانى من معادنها ، وتكشف له محاسن النكت البلاغية فى مكامنها . فتأتى قصيدته الشعرية رائعة ، ورسالته الأدبية فائقة ، ومقالته الصحفية فى مكانها وقصته أو روايته شيقة أو خطبته مؤثرة .

كما أنها تهدى الناقد الأدبى وترشده فيستطيع أن يسير بين جيد الكلام ورديئه ، ويفرق بين لفظ حسن وآخر قبيح وشعر نادر وآخر بارد ، ويحسن اختيار النصوص وتقديمها للدارسين .

وعلوم البلاغة إذا وعاها المسلم سار فى طريق الإيمان — حيث تبرز له عناصر الاعجاز القرآنى من جهة ما خص الله به القرآن الكريم من حسن التأليف ، وبراعة التركيب وماشحنه به من الإيجاز البديع ، والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة ، مع سهولة كلمة وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها ، إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها ، وتحيرت عقولهم فيها فيزداد إيمانا بأن القرآن من عند الله ، وأن محمدا ﷺ صادق فيما يبلغ عن ربه .

وتقربا إلى الله جل وعلا ، ثم خدمة للغتنا العربية لغة القرآن الكريم ، كتبت تاريخ نشأة علوم البلاغة العربية توخيت فيها السهولة والوضوح ، ووقفت مستأنيا أمام سر نشأة هذه العلوم ووضحت المناخ التى نشأت فيه وسرت مع أطوارها نشأة ونموا وإزدهارا وجمودا ثم نهوضا وانتعاشا .

وبيان أطوار نشأة البلاغة عامل قوى فى تجديدها إذ تضع ماضينا البلاغى بكل ما فيه من تجارب ماثلا أمام مكتسبات حاضرنا ومعطياته ، ليكون تجديدنا البلاغى المعاصر قائما على دعائم قوية ومتفقا مع روح العصر الذى نعيش فيه .

والله أسأل أن ينفع به ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم .

والله ولى التوفيق .

د . عبد العزيز عبد المعطى عرفه

أبها فى ١/١٠/١٣٩٧ هـ .

الموافق ١٤/٩/١٩٧٧ م .

تمهيد

١ — البلاغة والفصاحة

البلاغة فى اللغة : الوصول والانتهاء ، تقول : بلغت الغاية إذا انتهيت إليها ، وبلغ الركب المدينة إذا وصل إليها ، ومبلغ الشىء منتهاه . والمبالغة فى الشىء : الانتهاء إلى غايته ، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه ، ويقال : بلغ الرجل بلاغة ، إذا صار بليغا كما يقال : نبل نبالة ، إذا صار نبيلا .

أما الفصاحة فقد قال قوم : أنها من قولهم : أفصح فلان عما فى نفسه إذا أظهره ، والشاهد على أنها هى الأظهار قول العرب : أفصح الصبح إذا أضاء ، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر ، وفصح أيضاً وأفصح الأعجمى ، إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين ، وفصح اللحان أذا — عبر عما فى نفسه ، وأظهره على جهة الصواب والخطأ .

وإذا كان الأمر على هذا فالفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما ، لأن كل منهما إنما هـو الإبانة عن المعنى والإظهار له

والشيخ عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ أو سنة ٤٧٤ هـ يسوى بينهما فيقول :

الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة ، وكل ما شاكل ذلك مما يعبر به عن فضل بعض القائلين عن بعض من حيث راموا أن يعلموا السامعين ما فى نفوسهم ، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم ، إنما هى ألفاظ مترادفة ،

لاتتصف بها المفردات ، وإنما يوصف بها الكلام بعد تحرى معانى النحو فيما بين الكلم حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام .

وقال الرازى : وأكثر البلغاء لايكادون يفرقون بين الفصاحة والبلاغة .

وقال الجوهرى فى كتاب الصحاح : الفصاحة هى البلاغة .

ومن البلاغيين من يفرق بين الفصاحة والبلاغة ، ويقول : « أن الفصاحة تمام آلة البيان فهى مقصورة على اللفظ ، لأن الآلة : تتعلق باللفظ دون المعنى ، فإذن هى كال لفظى توصف به الكلمة والكلام أما البلاغة : فهى أنهاء المعنى إلى قلب السامع فيفهمه ، فكأنها مقصورة على المعنى .

ويقولون : والدليل على أن الفصاحة تتضمن اللفظ ، والبلاغة تتناول المعنى أن الببغاء يسمى فصيحا ولايسمى بليغا ، إذ هو مقيم الحروف ، وليس له قصد إلى المعنى الذى يؤديه .

ويستدلون أيضاً بقول : العاص بن عدى : الشجاعة قلب ركين ، والفصاحة لسان رزين — واللسان هاهنا : الكلام . والرزين الذى فيه فخامة وجزالة (١) . ومن هؤلاء ابن سنان الخفاجى وابن الأثير والخطيب القزوينى ومن تابعه ويسمى الكلام فصيحاً بليغاً إذا كان واضح المعنى سهل اللفظ جيد السبك غير مستكره فج ، ولا متكلف وخم .

وقد ذكر البلاغيون البلاغة (٢) حدودا كثيرة منها :

---

(١) كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى تحقيق البجاوى وآخر طبع الحلبى .

(٢) الصناعتين ص ١٢ — ٦٠ والبيان والتبيين ج ١ ص

قال اسحاق بن حسان : لم يفسر أحد البلاغة تفسـير ابن المقفع ، إذ قال :

البلاغة اسم لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، منها ما يكون فى السكوت ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها مايكون شعرا ، ومنها ما يكون سجعاً ، ومنها مايكون خطباً ، وربما كانت رسائل ، فعامة ما يكون من هذه الأبواب فالوحى فيها والاشارة إلى المعنى أبلغ ، والايجاز هو البلاغة .

وقد قال بعض الهند : جماع البلاغة : البصر بالحجة ، والمعرفة بمواقع الفرصة ، ومن البصر بالحجة أن يدع الافصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان طريق الافصاح وعرا ، وكانت الكناية أحضر نفعا .

وقال ابراهيم الإمام ، حسبك من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء افهام الناطق ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع .

وقال الهندى أيضاً : البلاغة وضـوح الدلالة ، وانتهاز الفرصة ، وحسن الاشارة .

وقال عبيد الله بن عتبه : البلاغة دنو المأخذ ، وقرع الحجة وقليل من كثير .

وقال حكيم الهند : أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجاش ، ساكن الجوارح ، متخير اللفظ ، لايكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون فى قواه التصرف فى كل

= ٢٨ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ١٣٦ وسر الفصاحة ص٥٠ وعروس الأفراح ج١ ص ١٣٠ ضمن شروح التلخيص طبع الحلبى .

طبقة ، ولا يدقق المعانى كل التدقيق ، ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ويصفيها كل التصفية ، ويهذبها كل التهذيب ، ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيما ، وفيلسوفا عظيما . ومن تعود حذف فصول الكلام ، واسقاط مشتركات الألفاظ ، ونظر فى صناعة المنطق على جهة الصناعة والمبالغة فيها ، لا على جهة الاستطراف والظرف لها .

وقال بعض الحكماء : البلاغة قول يسير ، يشتمل على معنى خطير .

وقال الرومى : البلاغة حسن الاقتضاب عنـــد البداهة ، والغزارة عند الاطالة .

وقال جعفر بن يحيى : البلاغة أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه من الشركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة ، ويكون سليما من التكلف بعيدا من سوء الصنعة ، بريا من التعقيد غنيا عن التأمل .

وقال بعضهم : البلاغة صواب فى سرعة جواب .

وقال العرفى : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ، والتباعد من حشو الكلام وقرب المأخذ ، وايجاز فى صواب ، وقصد إلى الحجة ، وحسن الاستعارة .

وقال محمد بن على رضى الله عنهما : البلاغة قول مفقه فى لطف ، فالمفقه : المفهم ، واللطيف من الكلام : ما تعطف به القلوب النافرة .

وقال على بن بى طالب رضى الله عنه : البلاغة افصاح قول عن حكمة مستغلقة وابانة عن مشكل .

وقال ابن المقفع : البلاغة كشف ماغمض من الحق ، وتصوير الحق فى صورة الباطل .

وقال معاوية بن أبى سفيان لصحار بن عياش العبدى : ماتعدون البلاغة فيكم ؟ قال : الايجاز :

وسئل أعرابى ما البلاغة ؟ قال : الايجاز فى غير عجز ، والاطناب فى غير خطل .

وقيل للفارسى : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل ،

وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قال تصحيح الأقسام ، واختيار الكلام .

وقيل لعمرو بن عبيد : ما البلاغة ؟ قال : مابلغ بك الجنة ، وعدل بك عن النار ، وما بصرك مواقع رشدك ، وعواقب غيك . قال السائل : ليس هذا أريد . فما زال عمرو يجيب والسائل يراجعه حتى قال عمرو : فكأنك إنما تريد تخير اللفظ فى حسن الافهام قال : ثم شرح عمرو تعريفه بقوله :

أنك إن أوتيت تقرير حجة الله فى عقول المكلفين ، وتخفيف المئونة على المستمعين ، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة فى الآذان ، المقبولة عند الأذهان ، رغبة فى سرعة استجابتهم ، ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة ، كنت قد أوتيت فصل الخطاب ، واستوجبت على ذلك جزيل الثواب .

ويورد لنا الجاحظ تعريف العتابى البلاغـــة فيقول : قيل للعتابى : ما البلاغة ؟ قال :

كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ ، فإن أردت اللسان الذى يروق الألسنة ، ويفوق كل خطيب ، فاظهار

ماغمض من الحق ، وتصوير الباطل فى صورة الحق . ثم يفسره بقوله : والعتابى حين زعم أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، لم يعن أن كل من أفهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده ومعناه ، بالكلام الملحون ، والمعدول عن جهته ، والمصروف عن حقه أنه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه ، فمن زعم أن البلاغة أن يكون السامع يفهم معنى القائل جعل الفصاحة واللكنة ، والخطأ والصواب ، والاغلاق والإبانة ، والملحون والمعرب كله سواء ، وكله بيانا ، وكيف يكون ذلك كله بيانا ، ولولا طول مخالطة السامع للعجم ، وسماعه للفاسد من الكلام ، لما عرفه . . وإنما عنى العتابى افهامك العرب حاجتك على مجارى كلام العرب الفصحاء .

فإذا كان البيان بمعناه العام يقوم على الفهم والإفهام ، فإن البلاغة وهى جزء من البيان بمعناه العام يكون المدار فيها على الفهم بأسلوب عربى أدبى صحيح يوضح المعنى فى ذهن السامع ويؤكده والبلاغة إنما تبحث فى الأسلوب بعد أن يكون قد بحث بواسطة علم النحو من ناحية الصحة والفساد .

وقد قال ابن سنان الخفاجى معلقا على هذه التعريفات : وقد حد الناس البلاغة بحدود إذا حققت كانت كالرسوم والعلائم ، وليست بالحدود الصحيحة ، وقد تابعه بهاء الدين السبكى صاحب كتاب عروس الأفراح . ومن الواجب قبل أن نذكر تعريف المتأخرين البلاغة أن نقرر بأن الأقدمين قد عرفوا مقتضى الحال ومطابقة الكلام لمقتضى الحال ودعوتهم لذلك وإلحاحهم عليه . فقد ورد فى كتاب البيان والتبيين حكاية من الصحيفة الهندية : «ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا ، وتلك الحال له وفقا . . . ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم» .

وماورد من كلام بشر بن المعتمر : «وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال ومايجب لكل مقام من المقال» .

ولعل البلاغيين المتأخرين استمدوا من هذه النصوص تعريفهم المشهور وهو : البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحة مفرداته وتراكيبه .

وقالوا : الحال ـ أى المقام الذى ورد فيه الكلام ـ هى الأمر الحامل المتكلم على أن يورد فى كلامه شيئا خاصاً ، زائداً على أصل المعنى .

ومقتضى الحال هو : ذلك الشىء الخاص الذى ورد فى كلام المتكلم .

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال : هو اشتماله على ذلك الشىء .

وأصبحت البلاغة تطلق على العلوم الثلاثة (البيان والمعانى والبديع) .

٢ — صلة علم البلاغة بالعلوم العربية الأخرى

البلاغة علم من علوم اللغة العربية وهذه العلوم يرتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقاً . وإذا كانت البلاغة هى : ايصال المعنى إلى قلب السامع فى معرض حسن وصورة مقبولة ـ فعلوم اللغة العربية الأخرى تؤدى دوراً أساسياً نحو هذا المعنى .

فعلم اللغة العام هو الذى يعمل على وضع الكلمة فى مكانها التى وضعت له بحيث تعبر عن المعنى المروم أتم تعبير وأدقه .

وعلم الصرف هو الذى يحافظ على هيئة الكلمة حتى لاينحرف اللفظ عن المعنى الموضوع له .

وعلم النحو لضبط أواخر الكلمات حتى يفهم المعنى المراد من التركيب .

وعلم العروض هو الأساس لما نسميه شعرا وتقوم نغمة العروض بترجيح المعنى وتقويته ، ولايدخل الكلام تحت مقياس البلاغة أو الفصاحة إلا إذا كانت ألفاظه موضوعة فى أماكنها ، وكان تأليفه موافقا لما تقتضيه

القواعـــد النحوية والصرفية ، ومتفقا مع المشهورين آراء النحويين واللغويين .

فالعلوم اللغوية وهى : علم اللغة وعلم الصرف وعلم النحو غايتها أن يكون نظم الكلام أو تأليفه صحيحا . وبمراعاة علوم البلاغة يرتقى التأليف من درجة الصحة إلى مراتب البلاغة ومتى تدرج التأليف بين مراتب البلاغة فإنه يثير فينا الخيال ويحدث أثراً فنياً ، وحينئذ نطلق عليه « أدبا » ، وهذا الأدب أخصر تعريف له : هو ما بين أيدينا من النصوص الشعرية والنثرية التى وصلتنا عبر الأجيال والقرون .

أما تاريخ الأدب فهو : الذى يقوم بجمع هذه النصوص وترتيبها وتوزيعها على عصور الأدب المختلفة ، كما يقوم بتقسيم النصوص والشعراء والأدباء إلى مدارس ، ومذاهب ، وأغراض وأذواق .

وأما النقد الأدبى فهو الذى يقوم بشرح النص وتفسيره وتقديمه للقراء والحكم عليه بالجودة أو الرداءة .

وأما البلاغة فمع الأديب تهديه إلى النمط العالى من النظام وترشده إلى ضروبه وفنونه ، وتدفعه إلى الإبداع والابتكار وتوليد المعانى .

وتكون مع صاحب تاريخ الأدب تربى ذوقه وترهف حسه ، وتعينه على اختيار النصوص وتذوقها ، وتوزيعها إلى عصورها ومذاهبها ومدارسها وفنونها المختلفة .

وتكون البلاغة أيضاً مع الناقد تشحذ ملكته وتنير بصيرته ، ويحكم بمقتضى مقاييسها على النصوص الأدبية بالجودة أو الرداءة .

والعلوم العربية جميعها ترمى إلى فهم البيان العربى ، وإبراز بلاغة القرآن الكريم ، للوقوف على وجه إعجازه ، واستنباط دقائق تشريعاته .

وثمرتها : تربية الرجل الحق الذى يكون عضوا عاملا ضمن أمة مؤمنة هى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

ولنا فى الصدر الأول المثل الأعلى ، فقد ربى منهم القرآن الكريم - وهو معجزة بيانية - رجالا جاهدوا فى الله حق جهاده ، وقدموا للعلم أسمى الحضارات وأرقى المدنيات .

٣ — الفرق بين البلاغة الفنية والبلاغة التعليمية

البلاغة التعليمية : هى دراسة تلك القواعد البلاغية دراسة نظرية كأن تدرس باب المسند والمسند إليه وباب الفصل والوصل ، ونعرف متى يجب الفصل ؟ ومتى يجب الوصل ؟ وندرس باب التشبيه ، ونقف على حده وتقسيماته .

أما البلاغة الفنية : فهى معالجة النصوص الأدبية كأن يؤلف الشاعر قصيدة ، أو الكاتب رسالة فنية أو الخطيب خطبة بليغة أو القصاص قصة أدبية رائعة .. الخ

نشأة البلاغة العربية وأطوارها

الفصل الأول

مرحلة الأحكام النقدية والبيانية العامة وتشمل

العصر الجاهلى حتى نهاية القرن الأول تقريبا

١ ــ البلاغة فى العصر الجاهلى :

اشتهر العرب بالفصاحة والبلاغة وذلاقة اللسان ، فقد ذكر القرآن الكريم خلابة ألسنتهم واستمالتهم الاسماع بحسن منطقهم ـ قال : (وأن يقولوا تسمع لقولهم(١)) ، وقال :

(ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا(٢)) .

وتحدث النبى ﷺ بفصاحته وذكر أصالتها فى قومه وبيئته ونفى اللحن عن نفسه فقال « أنا أعرب العرب ، ولدتنى قريش ونشأت فى بنى سعد ، فأنى يأتينى اللحن » ، ويقول أيضاً :

(أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش(٣)) .

ووصف الجاحظ العرب بالبلاغه والفصاحة وقدرتهم على القول فى كل غرض يقول :

---

(١) سورة المنافقون آية ٤

(٢) سورة البقرة آية ٢٠٤

(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى تحقيق الصعيدى ص ٦٠ .

« والكلام كلامهم (أى العرب) وهو سيد عملهم قد فاض به بيانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم ، حتى قالوا فى الحيات والعقارب والذئاب ، والكلاب ، والخنافس ، والجعلان ، والحمير ، والحمام ، وكل ما دب ودرج ، ولاح لعين ، وخطر على قلب ، ولهم بعد أصناف النظر وضروب التأليف ، كالقصيد والرجز ، والمزدوج، والمجانس والأسجاع والمنثور(١) » .

لقد مدحوا العمل الجليل ، وتغنوا بالحسب الكريم ، وتحدثوا عن مكارم الأخلاق ، وأطالوا وصف الحبيبة ، وفى الوقوف بالطلل الدارس، ولقد وصفوا وأجادوا الوصف ، ووصفوا الصحراء التى يعيشون فيها وصوروا مناخها ، وتحدثوا عن حيوانها وجمالها ومشاهدها بكل دقة ، ولقد تمادوا فى الهجاء ووصف القتال والنزاع بين القبائل، كما ندبت الأخت أخاها ، والمرأة بعلها .

وبالاختصار نستطيع أن نقول ظهرت عندهم البلاغة الفنية فى أسمى درجاتها والتى قلنا عنها أنها معالجة القول فى أى غرض .

أما البلاغة التعليمية أى دراسة أبواب البلاغة بمعنى تفصيل القول فى أبوابها وتعريف كل باب وبيان أقسامه وحدوده .

بالطبع لم يعرفوا تعريف التشبيه ولا الاستعارة ولا الكناية بالمعنى العلمى الذى نعرفه اليوم ولكنهم عرفوا الألوان البلاغية معالجة فتراهم شبهوا فأصابوا — قال أمرؤ القيس :

جمعت ردينيا كأن سنانه   سنا لهب لم تتصل بدخان

---

(١) من الفصول المختارة من كتب الجاحظ على هامش الجزء الثانى من الكامل ص ١٠٢ ، ١٠٣

واستعاروا فأبدعوا — قال لبيد :

وغداة ريح قد كشفت وقرة   إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وطابقوا فجاء سهلا فطريا غير متكلف تأمل قول امرىء القيس الكندى :

مكر مفر مقبل مدبر معا
كجلمود صخر حطه السيل من عل

وجاء فى شعرهم ما يسميه البلاغيون « الأرصاد » يقول زهير ابن أبى سلمى :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا — لا أبالك — يسأم

وما يسمونه « المشاكله » قال عمرو بن كلثوم فى معلقته :

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

كما جاءت « التورية » قال النابغة الذبيانى :

يا خيل صيام ، وخيل غير صائمة
تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما(١)

ومن أروع تقسيماتهم ما جاء على لسان زهير :

فإن الحق مقطعه ثلاث   أداء أو نفار أو جلاء

قال ابن رشيق(٢) : « قيل أن عمر بن الخطاب كان يتعجب

(١) قال ابن حجة — ٢٩٧ : أراد بالصيام هنا القيام وورى بقوله: تعلك اللجما عن الصيام ، وفى القاموس : صام : أمسك عن الطعام والسير إلخ .

(٢) العمدة ح١ — ٤١

من قول زهير — فإن الحق ... (البيت) ثم قال : وسمى زهير قاضى الشعراء بهذا البيت .

يقول : لا يقطع الحق إلا الأداء أو النفار وهو الحكومه ، أو الجلاء وهو العذر الواضح ، ويروى يمين أو نفار ، وهذه الثلاث على الحقيقة هى مقاطع الحق . على أنه جاهلى وقد أكدها بالإسلام ، واستعملوا الإيجاز فى موضعه . قال السموأل :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
فليس إلى حسن الثناء سبيل

والأطناب عندما يتطلبه المقام ، قال عنتره العبسى .

يخبرك من شهد الوقيعة أننى أغشى الوغى واعف عند المغنم

إلى غير ذلك مما نجده فى لغتنا العربية مما يندرج تحت القواعد البلاغية المعروفة والذى لم نقعد له القواعد حتى الآن .

وورد عنهم أنهم كانوا يقولون : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب(١) .

ويحدثنا التاريخ أن أسواق العرب كان يجتمع فيها الناس من قبائل عدة وكانوا يقيمون فيها المجالس الأدبية التى ينشدون فيها أشعارهم ويفضلون

---

(١) الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص٦٣ تحقيق البجاوى وآخر وإعجاز القرآن الكريم للباقلانى ص٤٥

بعضها على بعض ، وذائع مستفيض فى كتب الأدب أن النابغــة الذبيانى كانت تضرب له فى سوق عكاظ قبة حمراء من جلد فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها ، فيقول فيها كلمته ، فتسير فى الناس لا يستطيع أحد أن ينقضها .

قالوا : جلس النابغة للفصل مرة ، وتقاطر عليه الشعراء ينشــدون بين يديه آخر ما أحدثوه من الشعر أو أجود ما أحدثوه ، وكان فيمن أنشده أبو بصير ميمون أعشى بنى قيس ، فما أن سمع قصيدته حتى قضى له . ثم جاء من بعده كثير من الشعراء فيهم حسان بن ثابت الأنصارى، فأنشدوه، وجاءت فى أخريات القوم تماضر بنت عمرو بن الشريد الخنساء ، فأنشدته رائيتها التى ترثى فيها أخاها صخر بن عمرو والتى تقول فيها :

وأن صخرا لمولانا وسيدنا ... وأن صخرا إذا نشتوا لنحار
وأن صخرا لتأتم الهــداة به ... كأنه علم فى رأسه نار

فيعجبه ما قالت الخنساء ويقول لها : « لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفاً لقلت : إنك أشعر الجن والإنس » ، وحسان يسمع ذلك ، فتأخذه الغيرة ، ويذهب الغضب بتجلده ، فيقول له « أنا والله أشعر منها ومنــك ومن أبيك » فيقبل عليه أبو أمامة فيسأله: حيث تقول ماذا ؟ فيقول حسان: حيث أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى ... وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء(١) وابنى محرق(٢)
فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا

---

(١) بنى العنقاء : هم بنو ثعلبة بن عمرو مزيقا أحد أجداد الأزد القدماء فى اليمن .

(٢) ويريد بالمحروق : جبلة بن الحارث أمير الغساسنة فى الشام وهم من الأزد — وحسان من الخزرج وهى قبيلة أزدية .

فيقبل عليه النابغة فيقول له : إنك شـــاعر ، ولكنك أقللت جفناتك وسيوفك وقلت : « يلمعن بالضحى » ولو قلت : « يبرقن بالدجى » لكان أبلغ فى المديح ، لأن الضيف فى الليل أكثر ، وقلت : « يقطرن من نجدة دما » ولو قلت : « يجرين » لكان أكثر لانصباب الدم، وافتخرت بأخوالك وبمن ولدت والعرب تفخر بآبائها وأجدادها ، ولن تستطيع أن تقول :

فإنك كالليـــل الذى هو مدركى
وإن خلت أن المنتأى عنـــك واسع

خطاطيف حجن فى حبال متينة تمـــد بها أيد إليك نوازع

وهذا البيتان من اعتذارات النابغة الذبيانى للنعمان بن المنذر ملك العرب فى الحيرة — يريد النابغة بكلامه لحسان أنه وإن كان شاعرا لم يبلغ درجته .

ويقول حماد الراوية : أن العرب كانت تعرض شعرها على قريش ، فما قبلوه منه كان مقبولا ، وما رفضوه منه كان مرفوضا ، فقدم عليهم علقمة ابن عبدة فأنشدهم قصيدته التى يقول فيها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم .

فقالوا : هذه سمط الدهر ، ثم عاد إليهم بعد عام فأنشدهم :

طحا بك قلب فى الحســـان طروب
بعيـــد الشباب عصر حان مشيب

فقالوا : هاتان سمط الدهر.

وسمع طرفة ابن العبد المتلمس ينشد بيته :

وقد اتناسى الهم عند احتضاره بناج عليـــه الصيعرية مكدم

والصيعرية : سمة تكون فى عنق الناقة لا فى عنق الجمل .

فقال طرفه : استنوق الجمل . فضحك الناس وسارت مثلا .

فقال له المتلمس : ويل لرأسك من لسانك ، فكان قتله بلسانه - وروى الحديث له مع السبب بن علس (١) . وعاب العرب على النابغة الذبيانى الأقواء الذى فى شعره : أى اختلاف حركة الروى فى القصيدة . ولم يستطيع أحد أن يصارح النابغة بهذا العيب حتى دخل يثرب مره فأسمعوه غناء قوله :

أمن آل مية رائح أو مغتدى عجلان ذا زاد ، وغير مزود

ومن هذه القصيدة :

بمخضب رخص كأن بنانه عنم يكاد من اللطافـــة يعقد

ففطن فلم يعد إلى ذلك . ويروى أنه خرج وهو يقول : « دخلت يثرب فوجدت فى شعرى صنعه ، فخرجت منها وأنا أشعر العرب ، أى وجدت نقصا نا عن غاية التمام(٢) ، والعيب فى « يعقد » بالرفع وهو مايسمى بالاقواء وهو أختلاف حركة الروى .

وتروى كتب الأدب بدل هذا البيت قوله .

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود

---

(١) أنظر الصاعتين ص ٩١ ، ٩٢ والموضح للمرزبانى ٧٦ ، ٨٧ واللسان مادة صمر ، ونسبه فيهما إلى المسيب بن على واستدل به على الصيعرية قد يوسم بها الذكور ، والمكرم بالصلب .

(٢) أنظر الصناعتين ص ٥١ . والعنم : نبت أحمر يصبغ به .
ويثرب : اسم مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأنه أصلحه بقوله : « وبذلك تنعاب الغراب الأسود » لأن القافية كلها بالكسر .

ويروى أنهم قالوا عن لامية حسان :

لله در عصـــابة نادمتهم يوما بجلق فى الزمان الأول

أنها التبارة .

وقالوا : عن عينية سويد بن أبى كاهل :

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع

أنها اليتيمة .

هذه الأمثلة التى قدمناها تدل على أن عرب الجاهلية كانت عندهم ملكة فنية مكنتهم من تمييز جيد الكلام من رديئه وأحكام وضعت كل شاعر فى مكانه الفنى اللائق به .

هذه الأحكام النقدية كانت تقوم على ذوق عربى أصيل وأحساس فنى خالص أو بعبارة أخرى كان نقدا ذاتيا شخصياً لا يقوم على تعليل ولا تفصيل، وبمرور الزمن ذكر العلماء لهذه الأحكام تعليلات،هذه التعليلات غالبا ما قامت على أسس بيانية بلاغية وتحول هذا النقد الذاتى إلى نقد تحليلى أو نقد بيانى ينظر إلى المعانى والصيغ أولا : ثم على أيدى البلاغيين تم تحويل هذه الأحكام النقدية العامة إلى قواعد وأسس بلاغيه . هذه ناحية .

أما الناحية الأخرى فإن الباحث لا يشك فى أن عرب الجاهلية كانت عندهم دربة ، وممارسة ، وتدريب ودراسة على تأتى القول الفنى . تذكر كتب التاريخ الأدبى أن كل شاعر كبير كان له رواة يحفظون شعره ويتدارسونه فيما بينهم ، ويسألون الشاعر عن كل فن من فنون قوله ، ولابد أنه بدوره كان يعلمهم ، تأتى القول ، كيف يخاطبون طبقات الناس ،

ويعرفهم مالا نعرفه اليـــوم من طرق انشاء الكلام الجديد وتمييزه عن الردىء .

فزهير بن أبى سلمى كان متصلا ببشامة بن الغدير ، وأوس بن حجر وكل شاعر تقريباً كان راوية لشاعر آخر وهذا الشاعر يقوم بالارشاد والتوجيه لرواته ، وما البلاغة — فى أخصر تعاريفها — إلا إرشاد وهداية وتوجيه للأديب والشاعر والناقد .

فإذا قلنا أن عرب الجاهلية كانت عندهم دراية بالألون البلاغية ولكنهم لم يحتاجوا إلى تدوينها ولا تحديدها تحديدا علميا كما فعل السكاكى ومن لف لفه لم نبعد عن الصواب .

٢ — عصر صدر الإسلام

وفى عصر صدر الإسلام حيث نزل القرآن الكريم فقويت ملكة النقد وأصبحت تستعمل فى مجال حصول الإيمان بالإسلام . فكان العربى يقوم إيمانه بالإسلام على أساس نقدى بيانى بمعنى : أنه كان يسمع القرآن الكريم ويقرأ آيات التحدى فينظر فى القرآن الكريم ثم ينظر فى كلام البشر فتتبين له مواقع الاعجاز فى كلام الله ، ومواطن التقصير فى كلام البشر ، فيؤمن بأن القرآن الكريم نزل من عند الله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق فيما يبلغ عن ربه ، وهكذا كان يدخل العربى الاسلام عن طريق البيان والنقد لقد كان للقرآن الكريم أثر بعيد المدى فى رقى البلاغة الفنية ، فالقرآن الكريم أبلغ كتاب فى أغراض اللغة العربية ومعانيها ، وألفاظها ، وأساليبها .

كما كثرت الأحكام البيانية النقدية على ألسنة العرب فهذا عمر بن الخطاب

يقرأ صدر سورة «طه» فيقول: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه» (١) وعتبة بن ربيعة يقول لقومه حينما يسمع القرآن الكريم.

«انى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة» (٢).

وحينما عرض أسعد بن زرارة، ومصعب بن عمير الاسلام على أسيد ابن حضير، وقرأ مصعب عليه القرآن الكريم، قال. «ما أحسن هذا الكلام وأبلغه» (٣).

وكان لأبى بكر — رضى الله عنه — مسجد عند باب داره فى بنى جمع فكان يصلى فيه، وكان رجلا رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكى (٤).

ويروى الجاحظ: أن أبا بكر مر برجل ومعه ثوب، فقال: أتبيع الثوب؟.

فقال الرجل: لاعفاك الله، فقال أبو بكر: علمتم لو كنتم تعلمون. قل: لا وعفاك الله (٥).

يشير بذلك إلى موطن من مواطن الوصل بين الجملتين. وهو: كمال الانقطاع مع الايهام، وهو يأتى إذا كان بين الجملتين كمال الانقطاع،

(١) اعجاز القرآن للبقلانى ص ٥٣.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢٣٧.
(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٧٨.
(٤) المرجع السابق ج ٢ ص ١٣.
(٥) البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٢٦١.

لاختلافهما خبرا وأنشاء ، الأمر الذى يقتضى الفصل بينهما ، ولـكن هذا الفصل يوهم خلاف المقصود ، وحينئذ توصل الثانية بالأولى فتجىء واو العطف دفعا لهذا الايهام ، وإقامة لقصد المتكلم .

وقد مدح عمر بن الخطاب رضى الله عنه — زهيرا قال : « كان لايعاظل فى الـكلام » (١) .

هذه الأحكام هى التى استحالت على أيدى البلاغيين أمثال الباقلانى والرمانى والعسكرى والشيخ عبد القاهر الجرجانى ، والسكاكى إلى قواعد بلاغية واسس بيانية محددة تحديداً علميا دقيقا . قصد منها : الوقوف على وجه اعجاز القرآن البلاغى ، وتكوين الذوق الأدبى الذى يستطيع ان ينشىء الـكلا البليغ ويفاضل بينه .

والسكاكى يعلن عن ذلك صراحة فبعد أن انتهى من وضع قواعده البلاغية لعلمى المعانى والبيان قال ماملخصه : ان الهدف من وراء هذه القواعد ان ينخرط الدارس لها فى سلك المنقول عنهم فى حق كلام رب العزة : « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وان اسفله لمغدق ، وان اعلاه لمثمر ، وأنه يعلو ومايعلى وما هو بكلام البشر ، فيستغنى بذلك عن قرع باب الاستدلال ، وألا تتجاذبك ايدى الاحتمالات فى وجه الاعجاز (٢) .

ولعل سائلا يسأل لِمَ لم تظفر البلاغة التعليمية بشىء من التدوين فى عصر صدر الإسلام ؟ مادام أنها طريق للإيمان ، فتدوينها وتعليمها من أمور الدين أو من الأمور التى يحتاج إليها المسلم كما يحتاج لمعرفة الحلال والحرام .

والجواب أن الصحابة والتابعين من الرعيل الأول ، كانوا يعرفون من القواعد البلاغية التى يقوم عليها إنشاء الكلام الفنى ، والتى كانوا يعتمدون

---

(١) الصناعتين ص ١٦٨ (٢) مفتاح العلوم ص ٢١٦ المطبعة الميمنية

علما فى تمييز الكلام الجيد من الردىء — ما نعرف وفوق ما نعرف — ولكنهم لم يحتاجوا إلى تدوينها ، لأنها كانت مركوزة فى طباعهم(١) كما يقـــول : بهاء الدين السبكى فى كتابه عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح .

ويعلل صاحب كتاب « البرهان فى علوم القرآن » لعدم تدوين البلاغة فى عصر صدر الإسلام - بأن القصد من إنزال القرآن الكريم تعليم الحلال والحرام ، وتعريف شرائع الإسلام ، وقواعد الإيمان ، ولم يقصد منه تعليم طرق الفصاحة ، وإنما جاءت الفصاحة لتكون معجزة . وكانت معرفتهم بأساليب البلاغة مما لا يحتاج إلى بيان ، بخلاف استنباط الأحكام ، فلهذا تكلموا فى الثانى دون الأول(٢) .

ونحن نعرف أن القرآن الكريم قد تحدى العرب وأمعن فى ذلك التحدى وقرعهم وآثار حميتهم ، وطالبهم بالمعارضة وألح فى ذلك إلحاحاً .

ولكنهم حينما سمعوه ونظروا فيه ، وفى قولهم اعترفوا بتفوقه وسمو مكانه ، سواء من هداه الله للإيمان ومن جعل على بصره غشاوة ، وقصة إيمان عمر رضى الله عنه - وتولى الوليد بن المغيرة شاهد على ذلك .

وكان للبيان عندهم مكانة عالية فى نفوسهم ، وكان أجل من ان يخونوه فلم يتفوهوا بكلمة — زور وبهتان ، ولو ان نفوسهم حدثتهم بأن بة ولو ا فى القرآن الكريم شيئا ، لانبرى لهم الرسول ﷺ ، والصحابة — رضو ان الله تعالى عليهم — ومن هداه للإيمان من اساطين الأدب — وهم جميعاً اشد الناس تحمسا للدفاع عن القرآن الكريم — وكان لنا كلام حسن يؤثر فى القواعد البلاغية ، وطرق نظم الكلام ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث .

---

(١) عروس الأفراح جـ١ صـ٣٥ ضمن شروح التلخيص - طبع الحلبى .
(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ١ صـ٣١٢

٣ — عصر بنى أمية

وفى العصر الأموى نجد حركة النقد تقوى وتشتد، وتزداد رغبة الناس فى المفاضلة بالموازنة بين قول وقول وبين شاعر وشاعر، وتشهد السنوات الأخيرة من القرن الأول الهجرى، ازدهاراً فى الشعر العربى وظهور شعراء كثيرين تربوا تربية اسلامية خالصة لهم نزعاتهم السياسية ومذاهبهم الأدبية وبيئاتهم المختلفة.

فى هذه الفترة قويت الخصومة بين الشعراء وهذا التهاجى بينهم، وأمد بنو أمية ذلك اللهب بالوقود، وزاده اشتعالا ماتأصل فى نفوس العرب من حسب الفخر والمباهاة.

كان بنو أمية لايطمئنون إلى شعراء مضر، ويقدمون عليهم شاعرا من ربيعة كالأخطل، أو من قضاعة كابن الرقاع، وكان بشير بن مروان يهيج فى مجالسه حزازات الشعراء، ويغرى بعضهم ببعض، وكان جرير يهر الفرزدق والأخطل، وكان يهر جريرا بضعة وأربعون شاعرا، هذه العصبية دعت إلى الهجاء وإلى التباح، دعت كذلك إلى أن يشتغل الناس بالشعر والشعراء، ويستمعوا لهذا وذاك ويتروا نقيضة شاعر لآخر، ويمضى بهم هذا بالضرورة إلى النقد وإلى الحكم، وماهاج الشعر بين جرير والراعى مثلا إلا أن الراعى كان يسأل عن جرير والفرزدق فيقول: الفرزدق أكرمهما وأشعرهما هذا إلى ان من القبائل من كان حريصاً كل الحرص على أن يجد شاعراً له، يعتز به لدى القبائل الأخرى. فقريش كانت تتعصب لعمر بن أبى ربيعة لتعوض به قلة شعرها فى الجاهلية أو لتضيف إليها مجداً آخر فى الاسلام. وكانت تغلب تتعصب للأخطل، وتأبى إلا أن يكون نداً لصاحبيه من تميم.

هذه العوامل وغيرها تضافرت على خلق روح جيدة فى النقد وعلى تحليل صياغة الشعر ومعانيه ورجاله تحليلا فيه عمق ، وفيه اختلاف فى الذوق والحكم(١) .

لقد كان النقد فى عصر بنى أمية خاصة هادياً ومرشداً وملزماً للشعراء والخطباء أن يلتزموا التقاليد العربية والاسلامية واللغوية .

وإليك بعض الأمثلة التى توضح ذلك :

قالوا : عارض الكميت الأسدى قصيدة ذى الرمة المشهورة :

ما بال عينيك منها الماء ينسكب

واجتمع بعض الشعراء وأنشدهم ماقال حتى إذا بلغ قوله :

أم هـــل ظعائن بالعلياء نافعة　　　وأن تكامل فيها الأنس والشنب

عقد نصيب واحدة . فقال له الكميت : ماذا تحصى ؟ قال : خطأك . باعدت فى القول . ما الأنس من الشنب ؟(١) فنصيب ينقد معنى فى بيت الكميت ولأنه قد جمع بين أمرين لا يجتمعان فى الخارج ولا فى الذهن ، أو لم يأت بما سماه المحدثون فيما بعد مراعاة النظير .

وقالوا : أن ليلى الأخيلية أنشدت الحجاج الثقفى :

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة　　　تتبع أقصى دائهـــا فشفاها

شفاها من الداء العضال الذى بها

غـلام إذا هـــز القناة ثناها

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص٤٦ طه ابراهيم منشورات دار الحكمة دمشق ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م

فقال لها الحجاج : لا تقولى : غلام ، ولكن قولى : همام ، لأن لفظ « الغلام » يشعر بالصبوة والنزق والجهل ،وقصدليلى من شعرها المدح لا الذم. ولذلك صحح لها الحجاج خطأها .

وأنشد ذو الرمة بلال بن أبى بردة :

رأيت الناس ينتجعون غيثاً فقلت لصيدح انتجعى بلالا

(وصيدح : اسم ناقة ذى الرمة) فلما سمع بلال هذا البيت قال : ياغلام اعلفها قتا ونوى ـ أراد بذلك أن ينبه ذا الرمة إلى أسلوب المدح) .

وذكروا أن جريرا دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدى بن الرقاع ينشده قصيدته التى يقول فيها :

غلب المساميح الوليد سماحـــة وكفى قريش المعضلات وسادها

قال جرير : لحسدته على أبيات منها ، حتى أنشد فى صفة الظبية وقرن وليدها : تزجى أغن كأن ابرة روقه .

قلت : والله مايقدر أن يقول أو يشبه فلما قال :

قلم أصاب من الدواة مدادها .

ما قدرت أن أقيم فانصرفت .

وذلك لما أصابه عدى من وجوه الحسن والجمال واصابته فى التشبيه .

وقالوا : وقف كثير على جماعة يفيضون فيه ، وفى جميل بن معمر أيهما أصدق عشقاً ؟ ولم يكن القوم يعرفون كثيرا بوجهه.ففضلوا جميلا فى عشقه فقال لهم كثير : ظلمتم كثيرا ،كيف يكون جميل أصدق عشقاً من كثير ، وهذا جميل أتاه عن بثينة بعض مايكره فقال :

رمى الله فى عينى بثينة بالقذى وفى الغر من أنيابها بالقوادح

فدعا بما يعميها ويؤذيها .

وكثير أتاه عن عزة بعض ما يكره فقال :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامـــر	لعزة من أعراضنا ما استحلت

قال : فما انصرفوا إلا على تفضيلى .

وقالوا : اجتمع جرير والفرزدق وكثير عزة ، وجميل بثينة ، ونصيب فى ضيافة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما ، فمكثوا أياماً ، ثم أذنت لهم ، فدخلوا ، فقعدت حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع كلامهم ، وأخرجت إليهم جارية وضيئة قد روت الأشعار والأحاديث ، فقالت : أيكم الفرزدق ؟

فقال الفرزدق : هاأنذا ، قالت : أنت القائل :

هما دلتانى من ثمانين قامـــة	كما انقض باز أقتم الريش كاسرة
فلما استوت رجلان بالأرض قالتا	أحى يرجى أم قتيل نحاذره
فقلت: ارفعا الأسباب لايشعروا بنا	ووليت فى أعجاز ليل أبادره
أحاذر بوابين قـد وكلا بنـا	وأحمر من ساج تئط مسامرة
فأصبحت فى القوم القعود وأصبحت	مغلقة دونى عليها دساكره
يرى أنها أضحت حصانا وقد جرى	لنا برقاها ما الذى انا شاكره

قال : نعم انا قلته . قالت : مادعاك إلى إفشاء سرك وسرها ؟ .

افلا سترت على نفسك وعليها ؟ خذ هذه الآلف الدرهم وانصرف ،قال: بل تركها والحاق بأهلى اجمل .

ثم دخلت الجارية وخرجت فقالت : ايكم جرير؟ فقال جرير : هأنذا ـ قالت : أأنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا	حين الزيارة فارجعى بسلام
تجرى السواك على اغر كأنه	برد تحـدر عن متون غمـام
لو كان عهدك كالذى حدثتنا	لوصلت ذاك ، فكان غير رمام
انى اواصل من اردت وصالة	بحبال لا صلف ولا لوام

فقال جرير : أنا قلته ، قالت : أفلا أخذت بيدها ، ورحبت بها ، وقلت :

« فادخلي بسلام » أنت رجل ضعيف ، خذ هذين الألفين والحق بأهلك .

ثم دخلت وخرجت فقالت : أيكم كثير ؟ . فقال كثير : هأنذا قالت : أنت القائل :

وأعجبني ياعز منك مع الصبا
خلائق صدق فيك ، ياعز ، أربع
دنوك حتى يذكر الذاهل الصبا
ورفعك أسباب الهوى حين يطمع
وأنك لاتدرين دينا مطلته
أيشتد من جراك أو يتصدع
ومنهن إكرام الكريم وهفوة اللـ
ـئيم ، وخلات المكارم تنفع
أدنت لنا بالبخل منك ضريبة
فليتك ذو لونين يعطى ويمنع

قال : نعم أنا قلته ، قالت ماجعلتها بخيلة تعرف بالبخل ولاسخية تعرف بالسخاء .

ثم دخلت وخرجت فقالت . أيكم جميل ؟ فقال جميل : هأنذا ، قالت : أنت القائل :

ألا ليتني أعمى أصم تقودني بثينة لايخفى على كلامها

قال : نعم أنا الذى قلته ، قالت : أفرضيت من نعيم الدنيا وزهرتها أن

تكون أعمى أصم إلا أنه لايخفى عليك كلام بثينة ؟ قال : نعم ، فوصلته كما وصلتهم جميعاً ، ثم انصرفوا .

وذكروا أن عبد الملك بن مروان كان يقول : لو أن كثيراً قد قال بيته :

فقلت لها ياعز كل مصيبة
إذا وطنت يوما لها النفس ذلت

فى حرب لكان أشعر الناس .

ولو أن القطامى قال بيته الذى وصف فيه مشية الإبل بقوله :

يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة
ولا الصدور على الإعجاز تتكل

فى النساء لكان أشعر الناس .

وقالوا : إن عبد الملك عاب على ذى الرمة عدم مراعاته المقام — أو كما يقول البلاغيون :

(براعة الاستهلال) لما بدأ قصيدته بقوله :

مابال عينك منها الماء ينسكب
كأنه من كلى مفرية سرب

قال عبد الملك : بل عينك . وقيل إنشاد هذا البيت كان لهشام ابن عبد الملك .

وقالوا : وكان كثيرا يعيب عمر بن أبى ربيعة فى قوله :

قالت اترب لها تحدثها
لتفسدن الطواف فى عمر

قوى تصدى له ليبصرنا
ثم اغمزيه ياأخت فى خفر
قالت لها : قد غمزته فأبى
ثم اسبطرت تشتد فى أثرى

ويقول : أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك ، والله لو وصفت بهذا هرة منزلك كنت قد أسأت سمعتها أهكذا يقال للمرأة ؟ إنما توصف المرأة بالخفر وأنها مطلوبة ممتنعة ، هلا قلت كما قال الأحوص :

لقد منعت معروفها أم جعفر
وانى إلى معروفهـا لفقير
وقد أنكروا عند اعتراف زيارتى
وقد وغرت فيها على صدور
أدور ولولا أن أرى أم جعفر
بأبياتكم مادرت حيث أدور

وقالوا : إن جريرا يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر ، وأن الشعر إنما يكون فى الخوف والرجاء ، وعند الخير والشر ، وذو الرمة يقول : « من شعرى ماطاوعنى فيه القول ، وساعدنى ومنه ماأجهدت نفسى فيه ، ومنه ماجننت به جنونا » .

إلى غير ذلك مما تزخر به كتب الأدب والنقد . ويجب أن نعلم أن الأدب من ناحية الصياغة كان متينا لايتطرق إليه الشك إلا نادراً .

فالذوق مازال عربياً خالصا والطبع مازال نقيا صافياً ، وأن هذا النقد أو هذا الإرشاد أو المآخذ كانت كافية لهذا العصر اللغوى الراقى . أما بعد أن فسدت الملكات وفشا اللحن تحولت هذه المآخذ وهذه الإرشادات إلى قواعد بلاغية يسير على هديها النقاد والأدباء والكتاب وهذا ماسنتحدث عنه فى المرحلة الآتية ومابعدها بمشيئة الله .

الفصل الثانى

مرحلة الإشارات البلاغية

المبعوثة فى تضاعيف الكتب

— ١ —

نزل القرآن الكريم لغرضين أساسيين : كونه معجزة الدين الإسلامى ودلالة صدق على نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وكونه كتاب هداية للناس جميعا لما فيه صلاحهم فى دنياهم وأخراهم .

وكان مسلمو الصدر الأول يعتمدون على طبعهم العربى الأصيل، وذوقهم الأدبى السليم — فى إبراز عناصر الإعجاز ، واستنباط دقائق التشريعات من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف — كما كانوا يعتمدون على ذوقهم السليم فى الحكم على الكلام الأدبى وتفضيل شاعر على شاعر وقول على قول .

ثم حدث أن انتشر الإسلام وشمل الملايين ، واتسعت رقعة اللغة العربية ، وكثر عدد المتكلمين بها ، وذلك أنه بنهاية حروب الردة التى حدثت فى عهد الخليفة الأول أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — تم للإسلام السيادة على شبه الجزيرة العربية كلها ، وبمقتضى عموم الرسالة الإسلامية عمل المسلمون على نشر دينهم إلى الممالك المجاورة — وقد حقق الله لهم النصر — ففتح العراق ، وأنشأ العرب مدينتى البصرة والكوفة ، كما فتحت فارس ، والشام ، ومصر .

وفى عهد الوليد بن عبد الملك فتحت السند ، وبخارى ، وخوارزم ، وسمرقند إلى كاشغر ، وفتحت كذلك الأندلس(١) .

ولم تكد تدخل تلك البلاد فى دولة الاسلام ، حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربى إمتزاجا قويا ، وأصبحنا نرى أمة إسلامية تتألف من أجناس مختلفة .

وقد مضت هذه الأجناس تنصهر فى الوعاء الاسلامى حتى غدت كأنها جنس واحد .

وقوى الامتزاج بين العرب والأعاجم بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ وكان لهذا الامتزاج أثره الخطير فى اللغة العربية ، إذ أخذ الذوق العربى ينحرف وبدأت الملكات تضعف ، وبدأ بالتـــالى الاحساس ببلاغة الـكلام يقل .

وفشا على بعض الألسنة اللحن الذى بدأ نادرا فى عهد رسول الله ﷺ ثم ظهر فى عهد الدولة الأموية فى أهم الأوساط ، حتى جاء العصر العباسى فتمكن من خلق اللغة الدارجة التى اعترف بها الجاحظ أذ يقول :

« وإن وجدتم فى هذا الـكتاب لحنا أو كلاما غير معرب، ولفظا معدولا عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك ، لأن الاعراب يبغض هـذا الباب ويخرجه عن حده »(٢) .

وحينئذ ظهر فى المجتمع الجديد ثلاث طوائف وجدوا أنفسهم بحاجة لتعلم اللغة العربية على أيدى النحويين واللغويين .

---

(١) فجر الاسلام لأحمد أمين ص٨٥ الطبعة الثانية .

(٢) البخلاء للجاحظ ص ١٠٩ تحقيق كوجان الطبعة الثانية سنة ١٩٦٣

أولها : العرب الذين تركوا موطن اللغة الأصلي وبعدوا عن قومهم ، فالجيل الأول ان استطاع أن يتحفظ من الزلل وأن يظل على سليقته في الابانة والافصاح ـ فإن الجيل الثاني الذي نشأ في البلاد الجديدة لايمكنه أن يحتفظ بسليقته ، وأن يتكلم على الوجه المرضى الصحيح .

ثانيهما : الأجانب الذين أقبلوا على تعلم اللغة العربية،إحتاجوا لدراسة نظام الجملة في اللغة العربية وسر تكوينها حتى يتأتى لهم تعلمها ، لأن نظام الجملة في اللغة العربية يخالف نظام غيرها في اللغات الأخرى .

ثالثها : طائفة الكتاب والشعراء التي أرادت أن تتقن اللغة العربية ليكون لها حظ موفور من آدابها . كل الطوائف أقبلت على دراسة اللغة العربية ، العرب للمحافظة على ذوقهم الأدبي ، والأجانب لكي يسهل لهم حذقها والنبوغ فيها ، والحق أن علماء المسلمين في القرن الثاني قاموا بخدمة لغة القرآن وسدوا حاجة المجتمع الجديد ، مدفوعين إلى هذا العمل بوحي من عقيدتهم .

فقد خشوا — إن هم تكاسلوا — أن يطول العهد فتفسد الملكات ، فينغلق فهم القرآن الكريم ، والحديث النبوي ، وهما أصل الدين وقوامه .

فقاموا بجمع اللغة والشعر ، والحكم والأمثال من أفواه عرب البادية الذين لم يختلطوا بالأعاجم .

وعلى ضـــوء اللغة والشعر قننوا قواعد النحو لضبط أواخر الكلمات ومعرفة مايجب ومايجوز ومايمتنع في نظام الجملة العربية .

كما وضعوا علم الصرف للمحافظة على بنية الكلمة ، وعلم « اللغة العام » لاستعمال كل كلمة في معناها التي وضعت له .

كما قام العلماء بوضع الكتب التي توضح الأساليب البيانية في الأدب

العربى بعامة وتبين طرقها وفنونها وضروبها . وتشير إلى بعض الأساليب البلاغية ، وكان من أهم هذه الكتب فى القرن الثانى الهجرى كتاب «مجاز القرآن» لأبى عبيدة معمر بن المثنى وكتاب «معانى القرآن» للفراء .

١ — أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١٠ ﻫ

أبو عبيدة النحوى معمر بن المثنى، مولى تيم بن مرة، ولم يكن فى الأرض خارجى ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه(١) .

وهو من أوسع أهـــل البصرة علما باللغة والأدب والنحو وأخبارها وأيامها ، ومن أكثر المؤلفين فى صدر الدولة العباسية ، فقد روى له نحو مائتى مصنف(٢) .

استقدمه الفضل بن الربيع وزير الرشيد من البصرة ، وجلس فى مجلسه فى بغداد ، فحضر إلى المجلس إبراهيم بن إسماعيل الكاتب فسأل إبراهيم أبا عبيدة عن قوله تعالى : (طلعها كأنه رؤس الشياطين)(٣) وإنما يقع الوعد والإيعاد بما قد عرف مثله ، وهذا لم يعرف ، فقال أبو عبيدة :

إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولما كان أمر الغول يهولهم أوعـــدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك ، واستحسنه السائل ، وأزمع أبو عبيدة عند ذلك

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ص٣٤٧ ج١ تحقيق هارون

(٢) فجر الإسلام أحمد أمين ص ٢٦٥ الطبعة الثانية ، طبع ونشر مكتبة النهضة .

(٣) سورة الصافات آية ٦٥

اليوم أن يضع كتابا فى القرآن لمثل هذا وأشباهه(١) .

فواضح أن سبب تأليف كتاب « مجاز القرآن » مسألة بلاغية تتعلق بالتشبيه وكون المشبه به معلوما أو غير معلوم . وواضح أن بعض الأجانب أو الذين تعلموا اللغة العربية على أيدى النحاة أخذوا يدرسون الأسلوب البيانى للقرآن الكريم ، ويحاولون فهمه . ولكنهم لم يتمكنوا من فهم بعض الصور البيانية ، ومعنى بعض الآيات والألفاظ القرآنية كما أشكلت عليهم بعض التراكيب الإعرابية .

والذى يقرأ ما كتبه أبو عبيدة فى كتابيه : « النقائض بين جرير والفرزدق » و « مجاز القرآن » يحس إحساسا عميقا أنه وضع رغبات هؤلاء المثقفين نصب عينيه ، وبين لهم أن الله إنما كلم العرب على قدر كلامهم ، يقول: « وفى القرآن مثل ما فى الكلام العربى من وجوه الأعراب ، ومن الغريب ، والمعانى »(٢) .

لم يكن كتاب « مجاز القرآن لأبى عبيدة » بحثا فى محاسن الكلام أو عناصر الإعجاز ولكنه كان شرحا وبيانا لمذاهب العرب فى كلامها .

الأجانب الذين يدرسون اللغة العربية يتعودون على نظام معين فى لغتهم الأصلية فمثلا اللغة الألمانية الفعل فيها يحتل المرتبة الثانية من الجملة دائما .

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ٣٢٤ جـ ٤ تحقيق محى الدين نشر النهضة المصرية وأنظر أيضا : أنباه الرواة على أنباء النحاة للقفطى جـ٣ ص ٢٧٨ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار الكتب سنة ١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م .

(٢) مجاز القرآن لأبى عبيدة جـ ١ ص ٧ تحقيق سزكين الطبعه الأولى نشر الخانجى .

وهكذا ولكن اللغة العربية فيها المجاز والتشبيه والتقديم والتأخير والتقييد والاطلاق والمفصل والمجمل والفصل والوصل والكناية والافصاح والخبر والانشاء إلى آخر الأمور البلاغية التى نعرفها اليوم ، وكل هذه الأمور لها خطرها فى الأسلوب فمثلا الذى يلى همزة الاستفهام يكون هو المشكوك فيه وإذا قدم المفعول على فعله أفاد أن الفعل ثابت لامحالة وأن الشك فى المفعول وهكذا .

كان صاحب السليقة العربية يحس بهذه الأمور بطبيعته لكن الذى اكتسب اللغة العربية عن طريق الدراسة والتعليم لابد أن توضح له هذه الأمور .

وضحها أبو عبيدة بطريقته الخاصة فأحيانا تراه يشرح الظاهرة الغريبة على الأجنبى وتارة يأتى بنظيرها فى كلام وكأنه يقول للاجنبى هكذا تتكلم العرب :

فكانت الاشارات البلاغية عند أبى عبيدة للبلاغيين الذين آتوا من بعده كالمصباح الهادى والنور المضىء ، تلقفوا هذه الاشارات ووضعوا لها القوانين والأسس بعدما خصصوا للبلاغة الكتب والمراجع ، فعمل أبى عبيدة هو الأسس لما كتب فى البلاغة .

إتخذ أبو عبيدة « القرآن الكريم » الأساس الأول لدراسته ، معتمدا على فقهه باللغة العربية ، وأساليبها واستعمالاتها ، والنفاذ إلى خصائص التعبير فيها ، فعد هذا الإتجاه قريباً من تفسير القرآن بالرأى وهو الأمر الذى كان يتحاشاه كثير من اللغويين المعاصرين له .

ومن هنا تعرض أبو عبيدة لكثير من النقد من أمثال الأصمعى(١) وأمثاله.

---

(١) أنظر أنباه الرواة على أنباه الرواة للقفطى ج ٢ ص ٢٧٨

ولم يكن أبو عبيدة بدعا فى هذا الاتجاه فقد سبقه فى نفس الإتجاه تقريباً « ابن عباس » الذى أسس مدرسة فى التفسير عرفت باسمه تكشف عن أسلوب القرآن ومعانيه وبمقارنته بالأدب العربى : شعره ونثره . قال : « إذا سألتمونى عن غريب اللغة فالتمسوه فى الشعر ، فان الشعر ديوان العرب(١) » .

ويرى أبو عبيدة أن الذين سمعوا القرآن من النبى ﷺ ومن الصحابة لم يحتاجوا فى فهمه إلى السؤال عن معانيه ، لأنهم كانوا عرب الألسنة متمتعين بخصائص العروبة (٢) .

واليك بعض المسائل البلاغية التى أشار إليها أبو عبيدة .

تعرض أبو عبيدة للايجاز ، وبين أنه من مذاهب العرب فى كلامها يفعلونه قصد التخفيف ، ويشترط فيه علم السامع به .

يقول فى قوله تعالى : (ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا)(٣) : العرب تختصر الكلام ليخففوه لعلم المستمع بتمامه. فكأنه فى تمام القول : ويقولون ، ربنا ماخلقت هذا باطلا(٤) وفى القرآن: (وأسأل القرية)(٥) مجازها : أهل القرية وقال الأسدى :

كذبتم وبيت الله لاتنكحونها بنى شاب قرناها تصر وتحلب

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى جـ ١ صـ ١١٩ ط صبيح
(٢) مجاز القرآن جـ ١
(٣) سورة آل عمران آية ٩
(٤) مجاز القرآن جـ ١ صـ ١١١
(٥) سورة يوسف آية ٨٢

أضمر التى شاب قرناها(١) .

ثم ذكر أبو عبيدة الاطناب من غير تسمية و بين بعض أغراضه يقول(٢)

«ومن مجاز المكرر للتوكيد قوله تعالى : (إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين)(٣) أعاد الرؤية ، وقال تعالى : (أولى لك فأولى)(٤) أعاد اللفظ .

ويكشف عن أسلوب التقديم والتأخير بدون تعليل ، ولكنه ينص على أنه من مذاهب العرب فى كلامها يقول فى قوله تعالى : (أحسن كل شىء خلقه)(٥) مجازه أحسن خلق كل شىء ، والعرب تفعل هذا يقدمون ويؤخرون قال الراعى :

كأن هندا ثناياها ، وبهجتها يوم التقينا على أدحال دباب

أى كأن ثنايا هند وبهجة هند ، دباب مكان ، سمى أدحال دباب ، وهو اسم مكان أو رجل(٦) . وكان أسلوب الإستفهام من الأساليب التى وقف عندها أبو عبيدة ، ولاحظ خروجها عن معانيها الحقيقية وكشف عن بعض أغراضها البلاغية .

يقول فى قوله تعالى : (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى)(٧) يقول : هذا باب تفهيم ، وليس بإستفهام عن جهل ليعلمه ، وهو يخرج مخرج

---

(١) مجاز القرآن جـ ١ صـ ٤٧
(٢) مجاز القرآن جـ ١ صـ ١٢
(٣) سورة يوسف آية ٤
(٤) سورة القيامة آية ٣٤
(٥) سوره السجدة آية ٧
(٦) مجاز القرآن جـ ٢ صـ ٣٥-٣٦
(٧) سورة المائدة آية ١١٦

الاستفهام ، وإنما يراد به النهى عن ذلك ويتهدد به ، وقد علم قائله ، أكان ذلك أم لم يكن ، ويقول الرجل لعبده : أفعلت كذا ؟ وهو يعلم أنه لم يفعله ولكن يحذره وقال جرير لعبد عبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

ولم يستفهم ، ولو كان استفهاما ماأعطاه عبد الملك مائة من الإبل برعاتها(١) .

ومما كشفه أبو عبيدة وذكره كثيرا أسلوب « الالتفات » ، وعده من المجاز .

يقول : ومن مجاز ماجاءت مخاطبته مخاطبة الغائب ومعناها للشاهد .

قال تعالى : (ألم ، ذلك الكتاب)(٢) ومجازه : ألم هذا القرآن، ثم يقول: ومن مجاز ماجاءت مخاطبة الشاهد ، ثم تركت ، وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ، قال تعالى(حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم)(٣) أى بكم(٤)

وقد لاحظ أبو عبيدة استعمال الماضى مكان المضارع ، ولم يذكر الغرض من هذا الاستعمال ، ولكنه بين أنه من مذاهب العرب فى كلامها .

يقول فى قوله تعالى : (ومن عاد فينتقم الله منه)(٥) . . . . . وعاد : فى موضع يعود .

---

(١) مجاز القرآن جـ ١ صـ ١٨٣ ، ١٨٤
(٢) سورة البقرة آية ١ ، ٢
(٣) سورة يونس آية ٢٢
(٤) مجاز القرآن جـ ١ صـ ١١
(٥) سورة المائدة آية ٩٥

قال قعنب ابن أم صاحب :

أن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً
وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

أذنوا : أى استمعوا(١) ، وطاروا فى موضع يطيروا(٢) .

ويقول فى قوله تعالى : (وامرأة مؤمنة أن وهبت نفسها للنبى)(٣) ، وهبت فى موضع « تهب» والعرب تفعل ذلك(٤) .

وتعرض للمجاز العقلى من غير تسمية ، يقول فى قوله تعالى :(والنهار مبصرا)(٥) ، مجاز ما كان العمل والفعل فيه لغيره أن يبصر فيه ، ألا ترى أن البصر ، إنما هو فى النهار ، والنهار لا يبصر ، كما أن النوم فى الليل ولا ينام الليل ، فإذا نيم فيه قالوا : ليله نائم ، ونهاره صائم .

قال جرير :

لقد لمتنا يأم غيلان فى السرى ونمت وما ليل المطى بنائم(٦)

ويقول فى القرآن الكريم : (فى عيشة راضية)(٧) وإنما يرضى بها الذى يعيش فيها(٨) .

واسترعت الصور التشبيهية نظر أبى عبيدة خاصة فى كتابه « النقائض

---

(١) مجاز القرآن ج ١ ص ١٧٦ ص ١٧٧
(٢) مجاز القرآن ج ٢ ص ١٣٩ (٣) سورة الأحزاب آية ٥٠
(٤) مجاز القرآن ج ٢ ص ١٣٩ (٥) سورة النمل آية ٨٦
(٦) مجاز القرآن ج ٢ ص ٩٦
(٧) سورة القارعة آية ٧
(٨) مجاز القرآن ج ١ ص ٢٧٩

بين جرير والفرزدق ، وليس بعجيب فالتشبيه يشكل الجمال الرئيسي للشعر العربي القديم.

فتراه يوضح المشبه والمشبه به ووجه الشبه حينما علق على قول البعيث:

فألقى عصا طلح ونعلا كأنها جناح سماني صدرها قد تخذما

فيقول : يريد : أنه راع وأن سلاحه عصا ، وشبه نعله بجناح سماني في دقتها وصغرها(١) ويقول في قول جرير :

كأن رسوم الدار ريش حمامة محاها البلى فاستعجمت أن تكلما

شبه الدار ريش حمامة ، لاختلاف لونها(٢) .

ويذكره في كتاب « مجاز القرآن » فيقول في قوله تعالى : (نساؤكم حرث لكم)(٣) كناية وتشبيه(٤) ويذكر « التمثيل » ويقصد به التشبيه أو تشبيه التمثيل ، يقول في قوله تعالى :

(أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لايهدى القوم الظالمين)(٥) مجاز التمثيل ، لأن مابنوه على التقوى أثبت أساساً من البناء الذى بنوه على الكفر والنفاق فهو على شفا جرف ، وهو مايجرف من سيول الأودية ، فلا يثبت البناء عليه(٦) .

---

(١) النقائض جـ ١ صـ ٤٢ تصحيح الصاوى
(٢) المرجع السابق جـ ١ صـ ٥٥
(٣) سورة البقرة آية ٢٢٣
(٤) مجاز القرآن جـ ١ صـ ٧٣
(٥) سورة التوبة آية ١٠٩
(٦) مجاز القرآن جـ ١ صـ ٢٦٩

ويعد من التشبيه قوله تعالى : (فمنهم من يمشى على بطنه) (١) فيعلق عليه بقوله : فهذا من التشبيه لأن المشى لا يكون على البطن ، إنما يكون لمن لا قوائم له ، فإذا خلطوا ماله قوائم بما لا قوائم له جاز ذلك كما يقولون : أكلت خبزا ولبنا ولا يقال : أكلت لبنا ولكن يقال : أكلت الخبز (٢) .

وعرف أبو عبيدة كلمة « مجاز » وجعلها جزءا من عنوان كتابه « مجاز القرآن » .

لقد كان عمل أبي عبيدة ضرورة اقتضتها ظروف مجتمعه فالدارسون اعترضت طريق دراستهم مشاكل تتصل بالأسلوب البيانى وأحيانا بمعانى بعض الألفاظ والتراكيب وطورا آخر بالوجوه الإعرابيه ، وأطلق أبو عبيدة كلمة « مجاز » على كل عمل قام به سواء كان يتصل بالأسلوب البيانى أو بالمعنى أو بالإعراب من أجل ذلك إختلف الباحثون فى تفسير كلمة « مجاز » عند أبى عبيدة .

فبعضهم (٣) جعلها مناظرة لكلمة « النحو » فى عبارة غيره من علماء العربية ومن ثم اعتبر كتاب « مجاز القرآن » لأبى عبيدة — كتابا فى النحو .

ومنهم (٤) من جعل كلمة « مجاز » تعبر عن مدلول كلمة تفسير وحسب الكتاب كتابا فى التفسير .

وأما علماء البلاغة استنادا إلى سبب تأليف الكتاب الذى كان من أجل

---

(١) سورة النور آية ٤٥ (٢) مجاز القرآن جـ ٢ ص ٦٨

(٣) المرحوم ابراهيم مصطفى فى كتابه (احياء النحو) ص ١١ ، ١٢ القاهرة سنة ١٩٥٩ لجنة الترجمة والنشر .

(٤) أنظر مقدمة كتاب مجازات القرآن للشريف الرضى ص ٥ .

مسألة بلاغية تتصل بالتشبيه وكون المشبه به معلوما أو مجهولا ، فقد فسروا كلمة « مجاز » بالمعنى الاصطلاحي المعروف لدى علماء البلاغة واعتبروا الكتاب كتابا في البيان ، وأول كتاب ألف فيه (١) .

والحق أن المجاز عند أبي عبيدة يراد به : المعنى العام من كلمة « مجاز » فهو أعم من كلمة « معنى » ، أو « تفسير » أو بيان وجه الإعراب أو « المجاز » الاصطلاحي البلاغي المعروف .

فهو الطريق إلى فهم الأسلوب البياني أو اللفظ أو التركيب أو وجوه النحو على طريقة العرب في كلامها .

وقد أطلق أبو عبيدة كلمة « مجاز » على المعنى الاصطلاحي المعروف عند علماء البلاغة المتأخرين ، فقال في قوله تعالى : (إلا هو آخذ بناصيتها)(٢) مجازه إلا هو في قبضته وسلطانه (٣) .

ويقول في قوله تعالى : (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا) (٤) : مجاز السماء هاهنا مجاز المطر ، يقال : ما زلنا في سماء أي في مطر ، ومازلنا نطأ السماء أي أثر المطر . وأنى أخذتكم هذه السماء ؟ (٥) وواضح أن هذه الأمثله من المجاز المرسل ، ويرى أبو عبيدة أن الإستعارة نقل كلمه إلى مكان كلمه أخرى ، وأن هذا النقل كثير في كلام العرب ، يقول معلقا على قول الفرزدق لجرير :

---

(١) أنظر الوسيط في الأدب العربي ص ٢٢٦ للأسكندري وعناني الطبعة ١٧ دار المعارف .

(٢) سورة هود آية ٥٦

(٣) مجاز القرآن جـ ١ ص ٢٩٠

(٤) سورة الأنعام آية ٦

(٥) مجاز القرآن جـ ١ ص ١٨٦ .

لا قوم أكثر من تميم إذ غدت   عوذ النساء يسقن كالآجال

قوله : عوذ النساء : هن اللاتى معهن أولادهن ، والأصل فى عوذ : فى الأبلة التى معها أولادها فنقلته العرب إلى النساء ، وهذا من المستعار ، وقد تفعل ذلك العرب كثيراً (١) .

وكلامه لا يخلو من الأشارة إلى أركان الاستعارة فيكشف عن اللفظ المستعار حين يعلق على قول الفرزدق يهجو جريرا :

يا ابن المراغة إنما جاريتنى   بمسبقين لدى الفعال قصار

والحابسين إلى العشى ليأخذوا   نزح الركى ودمنة الأسار

قال : والأسآر . واحدها سؤر مهموز ، قال : ودمنه هاهنا طين ومابقى فى أسفل البئر ، وهو فى هذا الموضع مستعار ، وأصل الدمنة مجتمع البعر والرماد ومصب اللبن (٢) .

ويوضح « المستعارله » بقوله بعد قول جرير :

لقد مد القين الرهان فرده

عن المجد عرق من قفيرة مقرف

قال الأصمعى المقرف من الدواب : الذى أحد أبويه برذون ، وإنما ضربه مثلا هاهنا يريد أن أحد أبويه ليس بعربى ، والأصل للدواب ، فاستعاره للناس . قال : والعرب تفعل هذا(٣) وعرف أبوعبيدة الاستعارة التمثيلية ، لكنه لم يسمها بهذا الأسم بل أطلق عليها كلمة « مثل » فمن ذلك تعليقه على — قول جرير :

---

(١) النقائض جـ ١ ص ٢٦٢ .

(٢) النقائض جـ٢ ص ٣١

(٣) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٧٩ - ٢٨٠

إنى إذا بسط الرماة لغلوهم عند الحفاظ غلوت كل مغال

بقوله : وقوله : غلوت : هو من غالانى فغلوته ، يقول : نظرنا أينا أبعد غلوة سهم ، وإنما هـــذا مثل للتفاخر ، وذكر الأيام والنعم والأيادى (١) .

وقد تعرض للمثل فى كتابه : « مجاز القرآن » يقول فى قوله تعالى : (فردوا أيديهم فى أفواههم)(٢) مجازه : مجاز المثل ؛ وموضعه موضع كفوا عما أمروا بقوله من الحق ؛ ولم يؤمنوا به ولم يسلموا ويقال : رد يده فى فيه ، أى أمسك إذا لم يجب (٣) .

ويقول فى قوله تعالى : (فأتى الله بنيانهم من القواعد) (٤) : مجازه : مجاز — المثل والتشبيه .

والقواعد : الأساس . إذا استأصلوا شيئا . قالوا هذا الكلام ، وهو مثل (٥) .

ولكنه لا ينص صراحة على « الاستعارة » فى كتابه : « مجاز القرآن » مع أنه كما رأينا — ينص عليها صراحة فى كتابه : « النقائض بين جرير والفرزدق » .

ويظهر أنه وجد فى كلمة « مجاز » مايغنى عن الإستعارة لأنهما لم يتميزا

---

(١) المرجع السابق ج٢ ص ٣
(٢) سورة ابراهيم آية ٩
(٣) مجاز القرآن ج ١ ص ٣٣٥ - ٣٣٦
(٤) سورة النحل آية ٢٦
(٥) مجاز القرآن ج ١ ص ٣٥٩

عن بعضهما ، ولم يحددا إلا فى وقت متأخر ، فهى مختلطة بالمجاز عند الجاحظ كما سنعرف مما يستقبل من البحث .

وعند « ابن قتيبه » أكثر المجاز يقع فيها(١) وسنرى أن ابن قتيبه يذكر فى باب « الاستعارة » ما يعده المتأخرون من أنواع المجازات الأخرى .

أو لعل أبا عبيدة كان يرى أن طرق الكلام كلها من « المجاز » ولا ينقض هذا نصه على التشبيه والتمثيل والكناية والمثل والتقديم والتأخير ، والإيجاز فذلك لشهرتهم وجريانهم على الألسنة فى ذلك الوقت وينص أبو عبيدة على الكناية كثيرا فى كتابيه : النقائض ، ومجاز القرآن . ويطلقها على الأسلوب الذى عرف عند البلاغيين باسم الكناية اللغوية ، يقول فى قوله تعالى : (أو جاء أحد منكم من الغائط)(٢) كناية عن إظهار لفظ قضاء الحاجة فى البطن ، وكذلك قوله تبارك وتعالى : (أو لامستم النساء) (٣) كناية عن الغشيان (٤) ؛ كما يطلق لفظ الكناية على الضمير (٥) وعلى نون الوقاية (٦) .

وعرف أبو عبيدة الرجوع قال الباقلانى (٧) : كان أبو عبيدة يقول عن امرىء القيس فى بيته :

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٠٠ تحقيق السيد صقر طبع الحلبى
(٢) سورة المائدة آية ٦
(٣) سورة المائدة آية ٦
(٤ ، ٥ ، ٦) مجاز القرآن جـ ١ ص ١٥٥ ، ١٧٤ ، ص ١٣
(٧) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٨٧ تحقيق خفاجى

وإن شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول

أنه رجع فأكذب نفسه كما قال زهير :

قف بالديار التى لم يعفها القدم بلى وغيرها الأرواح والديم

ويرى أبو عبيدة أن بعض الحروف قد تزاد فى القرآن ، لتتميم الكلام وتوكيده ، يقول فى قوله تعالى : (غير المغضوب عليهم ولاالضالين)(١) مجازها : غير المغضوب عليهم والضالين ، و « لا » من حروف الزوائد لتتميم الكلام ، والمعنى الفاؤها (٢) . ويقول فى قوله تعالى : (وأن الدار الآخرة لهى الحيوان)(٣) مجازه : الدار الآخرة هى الحيوان ، واللام تزاد للتوكيد قال الشاعر :

أم الحليس لعجوز شهربة ترضى من اللحم بعظم الرقبة

ولعل أبا عبيدة كان يقصد من هذه الحروف بالزيادة فى القرآن أنها كذلك من ناحية الصناعة الإعرابية(٤) أما من ناحية النظم القرآنى ، فإن البلاغة القرآنية تقتضيها لتؤدى دورها فى النظم،فتؤكد دلالته أو تتممها(٥) كما اعترف هو بذلك .

هذه هى اللبنات الأولى التى وضعها أبو عبيدة فى صرح البلاغة العربية وهى كما ترى — خالية من التحديدات ، والتعليلات والتقسيمات البلاغية المعروفة ، ولكنها كانت ضرورة اقتضتها ظروف المجتمع الذى كان يعيش فيه أبو عبيدة .

---

(١) سورة الفاتحة آية ٧ (٢) مجاز القرآن ج ١ ص ٢٥ ، ٢٦

(٣) سورة العنكبوت آية ٦٤ (٤) مجاز القرآن ج ٢ ص ١١٧

(٥) أنظر دروس القرآن للشيخ محمد عبده ص ٤٧ دار الهلال وأنظر أيضاً النبأ العظيم ص ١٢٦ ومن بلاغة للقرآن للدكتور أحمد بدوى ص ٩٥ — ١٠٤ طبع لجنة البيان العربى .

٢ ـ الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ

هو : أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبدالله بن منظور ، الأسلمى المعروف بالفراء ، كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب(١) . قيل له : الفراء ، لأنه كان يفرى الكلام(٢) .

ألف كتاب « معانى القرآن » وهذا التركيب يعنى به مايشكل فى القرآن الكريم ، ويحتاج إلى بعض العناء فى فهمه(٣) .

وقيل فى سبب تأليفه : أن أحد أصحابه — وهو عمر بن بكير — كان يصحب الحسن بن سهل ، فكتب إلى الفراء : إن الأمير الحسن لا يزال يسألنى عن أشياء من القرآن لايحضرنى عنها جواب ، فإن رأيت أن تجمع لى أصولا ، وتجعل ذلك كتاباً يرجع إليه فعلت — فلما قرأ الفراء الكتاب قال لأصحابه :

اجتمعوا حتى أملى عليكم كتاباً فى القرآن،وجعل لهم يوماً،فلما حضروا خرج إليهم ، وكان فى المسجد رجل يؤذن فيه وكان من القراء ، فقال له : إقرأ فقرأ فاتحة الكتاب ، ففسرها ، حتى مر فى القرآن كله على ذلك يقرأ

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٥ صـ٢٢٥

(٢) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة جـ٢ صـ ٣٣٣ تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم الطبعة الأولى الحلبى .

(٣) مقدمة معانى القرآن جـ١ صـ١٢ تحقيق أحمد يوسف نجاتى ومحمد على النجار الطبعة الأولى دار الكتب .

الرجل والفراء يفسره(١) .

وكتاب « معانى القرآن » للفراء يعالج المشاكل التى عالجها أبو عبيدة غير أن ثقافة الفراء النحوية ظهرت فى كتابه بشكل واضح ، فهو يسير على منهج أبى عبيدة فيشرح بعض الألفاظ والآيات القرآنية وبعض الأساليب البيانية والتراكيب الإعرابية، ويرد كل هذا إلى مذاهب العرب فى كلامها، وهذا العمل الجليل تمخض عن الإشارة إلى بعض المسائل البلاغية نوردها فيما يلى :

يرى الفراء : أن من شأن العرب الإيجاز، وتقليل الكلام، فيحذفون من الكلام قصداً للتخفيف ، ولكنه يشترط أن يكون السامع على علم به(٢) ، لئلا يؤدى إلى لبس وغموض ، يقول فى قوله تعالى: (فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية(٣) : فى كل موضع يعرف فيه معنى الجواب، ألا ترى أنك تقول للرجل: ان استطعت أن تتصدق، ان رأيت أن تقوم معنا ، يترك الجواب لمعرفتك به .

فإذا جاء مالا يعرف جوابه إلا بظهوره أظهرته، كقولك للرجل: أن تقم تصب خيرا، لابد فى هذا من جواب، لأن معناه لا يعرف إذا طرح(٤) وهو فى ذلك متفق تماما مع أبى عبيدة إذ يشترط ألا يخل الحذف بالمعنى ولكن الفراء متحفظ فى تفسير المحذوف ، ولذلك يقـــول : لذلك جاء التفسير وذلك معناه .

وترى الفراء يؤكد ماذهب إليه فيقول مرة أخرى: (وإنما يحسن الاضمار

---

(١) ابن خلكان جـ ٥ صـ ٢٢٦

(٢) معانى القرآن جـ ١ صـ ٢٠١

(٣) سورة الأنعام آية ٣٥

(٤) معان القرآن جـ ١ صـ ٣٣٢

فى الـكلام الذى يجتمع ويدل أوله على آخره، كقولك، قد أصاب فلان المال فبنى الدور والعبيد والاماء واللباس الحسن ؛ فقد ترى لا يقع على العبيد والاماء، ولا على الدواب، ولا على الثياب، ولكنه من صفات التيسار لحسن الاضمار لما عرف .

ومثله فى سورة الواقعة : (يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق من معين)(١) ثم قال :

(وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين)(٢) فخفض بعض القراء ، ورفع بعضهم «الحور العين» . قال الذين رفعوا : الحور العين لا يطاف بهن، فرفعوا على معنى قولهم :

وعندهم حور عين، أو مع ذلك حور عين، فقيل الفاكهة، واللحم لا يطاف بهما إنما يطاف بالخمر وحدها .

والله أعلم - ثم اتبع آخر الكلام أوله . وهـــو كثير فى كلام العرب وأشعارهم ، وأنشدنى بعض بنى أسد يصف فرسه :

علفتها تبنا وماء باردا حتى شتت همالة عيناها

ويقول : والكتاب أعرب وأقوى فى الحجة من الشعر(٣) متحاشياً بذلك ماقيل :

من أن النحاة قد جعلوا الشعر أصـــلا للقرآن(٤)، أو ماقيل فى

---

(١) سورة الواقعة آية ١٧، ١٨

(٢) سورة الواقعة ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢

(٣) معانى القرآن جـ١ صـ١٣، ١٤

(٤) البرهان للزركشى جـ ١ صـ٢٩٤

عصرنا(١): لأمر ما احتاجوا إلى إثبات عربية القرآن ، وليس الأمر كذلك ؛ وإنما أراد النحويون أن يثبتوا الحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى، قال : (انا أنزلناه قرآنا عربيا) ، وقال تعالى: (بلسان عربي مبين) وقال ابن عباس : « الشعر ديوان العرب، فإذا أخفى عليهم الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغتهم رجعوا إلى ديوانهم ، فالتمسوا معرفة ذلك»(٢) ، وفى ذلك إلحاح إلى دراسة اللغة العربية واتقان آدابها(٣) ، ليتمكن الذوق العربى من فهم القرآن وإبراز عناصر الاعجاز فيه .

وعرف الفراء صور الاطناب ووقف أمامها وبين الغرض منها ، يقول فى قوله تعالى :(ولا طائر يطير بجناحيه)(٤) فإن الطائر لا يطير إلا بجناحيه، وهو فى الكلام بمنزلة قوله: له تسع وتسعون نعجة، لى نعجة واحدة(٥) ، وكقولك للرجل: كلمته بفى، ومشيت إليه على رجلى، إبلاغاً فى الكلام(٦).

وأسلوب التقديم والتأخير من الأساليب التى وقف أمامها الفراء ولكن من غير بيان لسره البلاغى كما فعل أبو عبيدة .

---

(١) أنظر فى الأدب الجاهلى لطه حسين ص١٣٨ ومنهج الزمخشرى فى تفسير القرآن وبيان إعجازه ص٢٠٤ دار المعارف .

(٢) البرهان ج١ ص ٢٩٤

(٣) أنظر تحت راية القرآن (المعركة بين القديم والجديد) ص٢٢٣ الطبعة الأولى مطبعة الرحمانية .

(٤) سورة الأنعام آية ٣٨

(٥) سورة ص آية ٢٣

(٦) معانى القرآن ج٢ ص٣٣٢

يقول الفراء فى قوله تعالى : (يسألونك كأنك حفى عنها)(١) كأنك حفى عنها : مقدم ومؤخر ، ومعناه يسألونك عنها كأنك حفى بها ، ويقال فى التفسير كأنك حفى أى كأنك عالم بها(٢) .

ووقف الفراء عند الاستفهام كثيرا ولاحظ خروجه عن معناه الحقيقى إلى المعنى المجازى، فيراد به أحيانا التوبيخ أو التعجب يقول(٣) فى قوله تعالى:

(كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا)(٤) على وجه التعجب والتوبيخ لا على الاستفهام المحض، أى ويحكم كيف تكفرون ، إلى آخر تلك الأغراض التى أتى بها الفراء وتعرض الفراء لأسلوب الالتفات ولم يسمه ، يقول فى قوله تعالى : (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة)(٥) رويت عن على بن أبى طالب رحمه الله بل تحبون بالتاء، وقرأها كثير « بل يحبون» بالياء ، والقرآن يأتى على أن يخاطب المنزل عليهم، وأحيانا يجعلون كالغيب كقوله : (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة) .

ووقف الفراء عند أسلوب المجاز العقلى ووضحه ، ومثل له من القرآن والكلام العربى بدون تسمية يقول فى قوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم)(٦) . ربما قال قائل: كيف تربح التجارة، وإنما يربح التاجر وذلك من كلام العرب: ربح بيعك ، وخسر بيعك ، فحسن القول بذلك، لأن الربح ، والخسران إنما يكونان فى التجارة ، فعلم معناه ، ومثله من كلام العرب :

---

(١) سورة الأعراف آية ١٨٧
(٢) معانى القرآن جـ١ صـ٩٩
(٣) المرجع السابق جـ١ صـ٢٣
(٤) سورة البقرة آية ٢٨
(٥) سورة القيامة آية ٢٠، ٢١
(٦) سورة البقرة آية ١٦

هذا ليل نائم » ، ومثله من كتاب الله (فإذا عزم الأمر)(١) وإنما العزيمة للرجال .

فهو يشترط فى حذف الفاعل الحقيقى وإسناد الفعل إلى غير من هو له أن يكون ذلك معلوما لدى السامع ، ولذلك لا يجوز حذف الفاعل الحقيقى وإقامة غيره مكانه فى مثل « قد خسر عبدك ، اذا كنت تريد أن تجعل العبد تجارة يقع فيها الربح والخسارة ، لأنه قد يكون العبد تاجراً فيربح أو يخسر فلا يعلم معناه إذا كان متجاوزا فيه .

أما لو قال القائل : قد ربحت دراهمك ودنانيرك ، وخسر بزك ورقيقك كان جائزا لدلالة بعضه على بعض(٢)

واستعمال المضارع مكان الماضى تعرض له الفراء ، ولكن من غير بيان سر هذا الاستعمال ، بل يكتفى برد هذا الاسلوب إلى الإستعمال العربى . ويقول فى قوله تعالى : (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل)(٣)

يقول القائل . إنما تقتلون : للمستقبل ، فكيف قال : « من قبل » ؟ ونحن لا نجيز فى الكلام أنا أضربك أمـــس ، وذلك جائز إذا أردت بتفعلون الماضى ، ألا ترى أنك تعنف الرجل بما سلف من فعله فتقول : ويحك لم تكذب ؟! لم تبغض نفسك إلى الناس ؟! ومثله قول الله تعالى .

(واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان)(٤) ولم يقل ماتلت الشياطين ، وذلك عربى كثير فى الكلام أنشدنى بعض العرب :

---

(١) سورة محمد آية ٢١
(٢) أنظر معانى القرآن ص ١٤ ، ١٥ ج ١
(٣) سورة البقرة آية ٩١ .
(٤) سورة البقرة آية ١٠٢

إذا أنتسبنا لم تلدنى لئيمة
ولم تجدى من أن تقرى بهـا بدا

فالجزاء وللمستقبل ، والولادة كلها قد مضت وذلك أن المعنى معروف ومثله فى الكلام : إذا نظرت فى سيرة عمر رضى الله عنه لم يسىء ، المعنى لم تجده أساء ، فلما كان أمر عمر لا يشك فى مضيه لم يقع فى الوهم أنه مستقبل فلذلك صلحت « من قبل » مع قوله :

(فلم تقتلون أنبياء الله من قبل) وليس الذين خوطبوا بالقتل هم القتلة إنما قتل الأنبياء أسلافهم الذين مضوا ، فتولوهم على ذلك، ورضوا به فنسب القتل إليهم (١) .

فهو يجهد نفسه لكى يرد التعبير القرآنى إلى التعبير العربى المألوف فحسب، ولا يكلف نفسه بيان السر البلاغى فى هذا الاستعمال : وهو أن المراد إستحضار الصورة ، وتمثلها حتى نراها رأى العين ، فيكون ذلك أقوى أثر لشدة التصاق الصورة ، وتعلقها بالنفس كما يقول البلاغيون ولا نشك فى أن الفراء ، ومن قبله أبا عبيدة كانا يعرفان مايقول البلاغيون وفوق مايعرفون لكنهما ـ كما نعتقد ـ اهتما بحاجة الدارسين الذين يريدون فهم الأساليب التى تشكل عليهم وردها إلى مذاهب العرب فى كلامها

وعرف الفراء أسلوب التشبيه ، ووضح المشبه والمشبه به ووجه الشبه يقول فى قوله تعالى :

(ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق)(٢)، أضاف المثل إلى الذين كفروا ثم شبههم بالراعى .

---

(١) معانى القرآن جـ ١ ص ٦٠ ، ٦١
(٢) سورة البقرة آية ١٧

ولم يقل كالغنم . والمعنى — والله أعلم — مثل الذين كفروا كمثل البهائم التى لاتفقه مايقول الراعى أكثر من الصوت ، فلو قال لها : أرعى وأشربى ، لم تدر مايقول لها .

فكذلك مثل الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن وانذار الرسول : فأضيف التشبيه إلى الراعى ، والمعنى — والله أعلم — فى المرعى . وهو ظاهر فى كلام العرب أو يقولوا : فلان يخافك كخوف الأسد ، والمعنى كخوفه الأسد ، لأن الأسد هو المعروف بأنه المخوف(١)

وتعرض الفراء لموطن الاستعارة ولكنه لم ينص عليها صراحه ، يقول فى قوله تعالى :

(فإذا بكم غما بغم)(٢) يقول : الاثابة ههنا فى معنى عقاب ولكنه كما قال الشاعر :

أخاف زيادا أن يكون عطاءه أداهم سودا أو محدرجة سمرا

وقد يقول الرجل الذى قداجترم إليك : لئن أتيتنى لأثيبنك ثوابك ، معناه لأعاقبنك ، وربما أنكره من لايعرف مذاهب العربية . وقد قال الله تبارك وتعالى : (فبشرهم بعذاب أليم)(٣) والبشارة إنما تكون فى الخير ،فقد قيل ذلك فى الشر(٤) ، وواضح أن الآيتين من قبيل الاستعارة التهكمية ، والتلميحية وعرف الفراء الكناية وأطلقها على الأسلوب المعروف بالكناية اللغوية .

---

(١) معانى القرآن ج ١ ص ٩٩
(٢) سورة آل عمران آية ١٥٣
(٣) سورة آل عمران آية ٢١
(٤) معانى القرآن ج ١ ص ٢٤٠

يقول فى قوله تعالى : (أو جاء أحد منكم من الغائط)(١) كناية عن خلوة الرجل إذا أراد الحاجة(٢) .

وذكر الفراء التوجيه من غير تسمية وبدون تعريف ، عندما تعرض لقوله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا)(٣) يقول : هو من الارعاء والمراعاة . ، وذلك أنها كلمة باليهودية شتم ، فلما سمعت اليهود أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يقولون : يانبى الله راعنا اغتنموها فقالوا : قد كنا نسبه فى أنفسنا ، فنحن الآن قد أمكننا أن نظهر له السب ، فجعلوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : راعنا ، ويضحك بعضهن إلى بعض ففطن لها رجل من الأنصار فقال لهم : والله لايتكلم بها رجل إلا ضربت عنقه . فأنزل الله : (لاتقولوا راعنا) ينهى المسلمين عنها ، إذا كانت سبا عند اليهود(٤) .

وعرض للمشاكلة ولكن بدون تسمية يقول فى قوله تعالى :

(فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين)(٥) . (فان انتهوا) فلم يبدؤكم (فلا عدوان) على الذين انتهوا . فان قال قائل : أرأيت قوله : (فلا عدوان إلا على الظالمون) . عدوان هو وقد أباحه الله لهم ، قلنا : ليس بعدوان فى المعنى إنما هو لفظ على مثل ماسبق قبله ، ألاترى أنه قال:

---

(١) سورة النساء آية ٤٣ .
(٢) معانى القرآن جـ ١ ص ٣٠٣
(٣) سورة البقرة آية ١٠٤
(٤) معانى القرآن جـ١ ص ٦٩ ، ٧٠
(٥) سورة البقرة آية ٩٣

(فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم)(١) .

فالعدوان من المشركين فى اللفظ ظلم فى المعنى والعدوان الذى أباحه الله وأمر به المسلمين إنما هو قصاص ، فلا يكون القصاص ظلما وان كان لفظه واحد ومثله قول الله تبارك وتعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها)(٢) وليست من الله على مثل معناها من المسىء لأنها جزاء(٣) هذا إذا ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقا .

وأما إذا ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تقديرا ، فقد وقف عنده الفراء أيضا يقول فى قوله تعالى : (صبغة الله)(٤) وإنما قيل : صبغة الله ، لأن بعض النصارى كانوا إذا ولد المولود جعلوه فى ماء لهم يجعلون ذلك تطهيرا له كالختانة ، وكذلك هى فى إحدى القراءتين قل : «صبغة الله» وهى الختانة ، اختتن إبراهيم صلى الله عليه وسلم فقال : قل : «صبغة الله» يأمر بها محمدا صلى الله عليه وسلم فجرت الصبغة على الختانة لصبغهم الغلمان فى الماء(٥) . هذه اشارات الفراء البلاغية

— ٢ —

جاء القرن الثالث الهجرى فكثرت الفرق الاسلامية وتنوعت ، واشتد الخلاف بينها ، واتصل خلافهم وجدلهم حول القرآن الكريم ، وأخذ الالحاد يسفر النقاب عن أغراضه ، ويصوب سهامه نحو الطعن على النظم القرآنى والنظم العربى بوجه عام .

وأنبرى علماء المسلمين يدافعون عنهما ، وتمخض دفاعهم عن آراء فى البيان العربى وابراز محاسنه .

وذلك أنه فى غضون القرن الأول الهجرى وما يليه دخل الناس فى دين

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٤ (٢) سورة الشورى آية ٤٠

(٣) معانى القرآن ح ١ ص ١١٦ ، ١١٧

(٤) سورة البقرة آية ١٣٨ (٥) معانى القرآن ص ٨٢ ، ٨٣

الله أفواجاً فابتلى الاسلام بعناصر أجنبية ، متشبعة بأفكار خبيثة ممن يضمرون الكفر ويلتحفون الإسلام — ألقت بما لديها من أفكار وثقافة ودين فى تيار حياة المسلمين العقلية ، وعملت على أن تنصر فريقا على فريق .

كذلك انتقل إلى المسلمين نظريات يهودية عديدة كالقول بالتشبيه ، ونسخ التوراة وخلقها . كثير من الأمور الكلامية التى تسربت عن طرق متعددة أهمها الرواة اليهود (١) .

عند ذلك كثرت الفرق ، وتنوعت ، واشتدت الفرقة بينها ، وكثر الجدل ، واتصل بالقرآن الكريم من ناحية أهو مخلوق أم غير مخلوق ، وناحية محكمه ومشابهه ، وهل يجوز تفسير الآيات المتشابهة أم لا ؟ إلى آخر ماهو موجود فى كتب الفرق (٢) .

وفى أوائل القرن الثالث الهجرى قدر لفرقة المعتزلة أن تسيطر على أذهان الناس سيطرة عظمى ، واصبح الاعتزال نفسه فى ذلك الوقت مذهباً رسمياً للدولة العباسية التى دافعت عنه بكل ما أوتيت من جاة وقوة وكان من أخطر أعـــداء المعتزلة يومئذ حزبان قويان :

الحزب الأول يضم إليه أشتاتاً من الزنادقة والملاحدة ، وكان هذا الحزب قد زود نفسه بسلاح من الفلسفة والمنطق ، فدخل المعتزلة عليهم الميدان بهذا السلاح ، ومازالوا بهم حتى أجبروهم على التقهقر (٣) .

---

(١) أنظر الأدب القصصى عند العرب ص ١٧٩ ، ١٨٠ لموسى سليمان نشر الكتاب اللبنانى سنة ١٩٥٦ .

(٢) أنظر فى ذلك أصول الدين البغدادى ص٧٣ ، ٨٤ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ٢٢٢ الطبعة الأولى استانبول مطبعة الدولة سنة ١٣٤٧ هـ ، ١٩٢٨ طبع ونشر مدرسة الالهيات .

(٣) أنظر الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول : الطبعة الأولى لعبد اللطيف حمزة — دار الفكر العربى ص ٨٧ .

يقول الشهرستانى : ثم طالع بعد ذلك — أى بعد مخالفة واصل بن عطاء لاستاذه الحسن البصرى — شيخ المعتزلة — كتب الفلاسفة حين فسرت أيام المأمون (١) المتوفى سنة ٢١٨ هـ .

كما تمكن المعتزلة من اللغة والبيان ، لأنهم فى موافقهم الجدلية مضطرون لتخير اللفظ الأنيق ، والتعبير الرائق الجميل ، ولعل صحيفة بشر بن المعتمر وما جمعه الجاحظ له ولغيره من أسباب روعة البيان وإجادة الكلام مما يعد أساسا قويا فى بناء صرح البلاغة العربيه .

وأما الحزب الثانى لحزب « السنة » ممن لم يرق فى نظرهم هذا الذى جاء به المعتزلة والرافضه من الإفك والبدعة(٢) .

وحينما حمل المأمون الناس على القول بخلق القرآن سنة ٢١٧ هـ تلك المسألة التى عرفت فى تاريخ الدولة العباسية « بمحنة خلق القرآن » والتى عذب بسببها كثير من المسلمين ، اشتدت الفرقة بين المعتزلة وأهل السنة الذين لم يقتنعوا بهذا القول لم يذعنوا له .

فلما نكل بالمعتزلة على يد المتوكل سنة ٢٣٤ هـ أصبحت هدفا اسهام خصومهم من محدثين ، وفقهاء وملحدين ويهود و نصارى الذين ألصقوا برؤساء المعتزلة التهم ، وأشبعوهم نقدا وتجريحا فألف أحمد بن يحيي الراوندى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ كتابه « فضيحة المعتزلة » رداً على كتاب الجاحظ « فضيلة المعتزلة » وقد نقضه الخياط فى كتابه الانتصار .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى على هامش الفصل فى الملل والنحل لابن حزم جـ١ ص ٤٠، ٤١ .

(٢) الحركة الفكرية فى العصرين الأيوبى والمملوكى ص ٨٧ .

في هذه الفترة ظهر « مذهب الصرفة » المشهور الذي يجعل وجه إعجاز القرآن ليس في النظم والتأليف وإنما هو في المنع والعجز اللذين أحدثهما الله في العرب الذين شوفهوا بالقرآن وتحدوا به .

ولولا هذا المنع والعجز لكانوا قادرين على الاتيان بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظما .

فالإعجاز ليس في ذات النظم والتأليف وإنما هو شيء خارج عن النظم وهذا القول اعتبر طعنا في النظم القرآني من طريق غير مباشرة ، وقد نسب هذا القول إلى رأس المعتزلة أبي أسحاق ابراهيم بن سيار المعروف بالنظام المتوفى سنة ٢٣١ هـ (١).

ولعل ابن الراوندي هو أول من أثار مذهب الصرفة ونسبه إلى رأس المعتزلة لينفر الناس من الإعتزال وصادف هذا القول وذاك الغرض هوى في نفوس خصوم المعتزلة — فروجوه ونشروه بين الناس .

فقد جاء في كتاب « الانتصار » لابن الخياط مانصه (٢) : ثم قال : ابن الراوندي : وكان يزعم : أي النظام .

أن نظم القرآن الكريم وتأليفه ليسا بحجة ، للنبي صلى الله عليه وسلم وأن الخلق يقدرون على مثله .

---

(١) أنظر ابراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية لأبي ريدة ص ٢ - ٥ القاهرة طبع لجنة الترجمة .

(٢) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد لأبي الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط المعتزلي ص ٢٧ المطبعة الكاثوليكية بيروت سنة ١٩٥٧ .

ثم قال : هذا مع قول الله عز وجل : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) (١):

وقد رد ابن الخياط على ابن الراوندى مؤكدا أن القرآن حجة للنبي ﷺ وأنه معجز لوجوه كثيرة (٢) .

على أن القول « بالصرفة » وجد من يقول به أمثال ابن حزم الظاهرى وابن سنان الخفاجى والرومانى وغيرهم مع الاختلاف فى جهة الصرف فنهم من يرى أن الله صرفهم بأن صرف دواعيهم إلى المعارضة مع توفر الأسباب الداعية المعارضة خاصة بعد التحدى والتبكيت والعجز ، ومنهم من يرى أن الله صرفهم بأن سلبهم العلوم التى يحتاج إليها فى المعارضة . أو منهم بالالجاء على جهة القسر عن المعارضة مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك فلأجل ذلك لم تحصل من جهتهم المعارضة(٣) .

ولعل اختلاف المسلمين حول نظم القرآن وتأليفه من حيث الإعجاز وعدمه هو الذى شجع الملحدين لتوجيه سهامهم نحو النظام القرآنى بالطعن عليه وعلى الأدب العربى بوجه عام .

فألف ابن الراوندى كتابه « الدامغ » يطعن فيه على نظم القرآن(٤)، وكتابا آخر يعرف « بكتاب الزمرذ » ذكر فيه آيات الأنبياء عليهم السلام

(١) سورة الأسراء آية ٨٨ .
(٢) أنظر كتاب الانتصار ص ٢٨ .
(٣) أنظر الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الأعجاز للعلوى ج ٣ ص ٢٩١، ٢٩٢ المقتطف - دار الكتب - وانظر المغنى للقاضى عبد الجبار ج ١٦ ص ٢٤١ ، ٣٣٢ تحقيق أمين الخولى .
(٤) رسالة ابن القارح ص ٢٦٣ ضمن رسائل البلغاء نشر محمد على كسرد.

كآيات إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ فطعن فيها وزعم أنها مخاريق ، وأن الذين جاءوا بها سحرة مخرقون ، وأن القرآن من كلام غير حكيم ، وأن فيه تناقضا وخطأ وكلاما يستحيل (١) .

ولما كان أكثر المعتزلة يقولون : تأليف القرآن ونظمه معجز محال وقوعه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم ، وأنه علم لرسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وكذلك أهل السنة كلهم يقولون : باعجاز القرآن فى نظمه . هب الجميع بالرد على مذهب الصرفه والدفاع عن النظم القرآنى ، ومثل المعتزلة الجاحظ ومثل أهل السنة ابن قتيبة ، وتمخض دفاعهما عن مسائل بلاغية وآراء فى البيان العربى وابراز محاسنه .

وفى القرن الثالث أيضاً ظهرت فكرة وضع كل شاعر فى مكانه الطبيعى وذلك بكتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣٢هـ وكذلك كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبه هذه الفكره سواء كان أساسها فكرة الزمن أو النتاج الأدبى استدعت النظر إلى نتاج كل شاعر وإلى إبراز محاسنه ليتسنى الحكم له أو عليه كما ظهرت فكرة القديم والجديد وفى كل ذلك لابد من النظر إلى النتاج الأدبى وإبراز محاسنه ووراء كل هذا تكونت مبادىء ومقاييس تحولت فيما بعد إلى قواعد بلاغية محددة تحديدا علميا .

وكان ممن أسهم فى كثيرة الإشارات البلاغية والآراء البيانيه ، الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وأبو العباس ثعلب .

---

(١) الإنتصار للخياط ص ١٢ الفرق بين الفرق ص ٣٤٤ تحقيق محى الدين — طبع صبيح .
(٢) مقالات الاسلامية للأشعرى جـ ١ صـ ٢٧١ .

أ — الجاحظ

هو أبو عثمان بن بحر بن محبوب ، الكنانى ، الليثى ، المعروف بالجاحظ البصرى العالم المشهور صاحب التصانيف فى كل فن(١) . وكان من فضلاء المعتزلة والمصنف لهم ، وقد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط وروج بعبارته البليغة ، وحسن براعته اللطيفة(٢) .

وهو زعيم البيان العربى فى قوته وأسره ، وفى دقته وصحته ، وحلاوته وجمال فنه(٣) — يرى الجاحظ أنه لابد من دراسة اللغة العربية وآدابها وفنونها وضروبها حتى يستطيع الدارس أن يميز بين نظم ونظم وبين كلام وكلام . يقول : « وفرق مابين نظام القرآن وتأليفه ، ونظم سائر الكلام وتأليفه — فليس يعرف فروق النظم واختلاف البحث والنثر ، إلا من عرف القصيد من الرجز والمخمس من الأسجاع ، والمزاوج من المنثور ، والخطب من الرسائل(٤) .

ألف الجاحظ كتاب « نظم القرآن » الذى لم يصل إلينا لضياعه ، ولانعرف عنه شيئاً إلا من كتبه الأخرى . يصفه فى صدر كتابه الحيوان بأنه : فى الاحتجاج لنظام القرآن وغريب تأليفه وبديع تركيبه(٥) .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٣ ص ١٤٠

(٢) الملل والنحل للشهرستانى على هامش الفصل جـ ١ ص ١١١

(٣) من مقدمة الأستاذ هارون لكتاب الحيوان جـ ١ صـ ٣ طبع الحلبى الأولى سنة ١٣٥٦ هـ — ١٩٣٨ م

(٤) العثمانية للجاحظ صـ ١٦ تحقيق هارون طبع دار الكتاب العربى

(٥) الحيوان جـ ١ صـ ٩

ويقول عنه أيضاً : « ولى كتاب جمعت فيه آيا من القرآن ، لتعرف بها فصل مابين الايجاز والحذف وبين الزوائد والفضول والاستعارات ، فإذا قرأتها رأيت فضلها فى الايجاز والجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة(١) .

وكنا نود أن نعرف رأيه فى النظم القرآنى خاصة أو فى نظم سائر الكلام بوجه عام من هذا الكتاب الذى يبدو أنه خصصه لهذا الغرض ، والذى أثنى عليه ابن الخياط فى كتابه الانتصار حينما رد على ابن الراوندى فيما كذب على الجاحظ ، قال ابن الخياط :

فمن قرأ كتاب عمرو الجاحظ فى الرد على المشبهه ، وكتابه فى الأخبار وإثبات النبوة ، وكتابه فى نظم القرآن علم أن له فى الإسلام غناء عظيماً لم يكن الله عزوجل ليضيعه عليه(٢) . وأما قول الباقلانى :

« إنه لم يزد فيه على ماقاله المتكلمون قبله ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى ، وهو الكشف عن الإعجاز القرآنى وسره . فربما يكون الباقلانى الأشعرى مدفوعا بعصبيته ضد المعتزلة والجاحظ أحدهم . والجاحظ لم يخصص لنا كتاباً فى البلاغة أو النقد لكن له كتابان بارزان فى الدراسات الأدبية « الحيوان » و « البيان والتبيين » وهما من الكتب الجامعة التى زخرت بالأمثلة الأدبية والمعانى الرائقة واستطردت فى بيان أشياء أخرى عما أملاه قولهم « الأدب : هو الأخذ من كل فن بطرف » التى ذاعت وانتشرت فى ذلك العصر بين الأدباء والنقاد والشعراء . وسنعرض جهود الجاحظ فى البلاغة وتربية الفنية الأدبية أو إبداع الأدب ونقده من خلال هذين الكتابين .

---

(١) الحيوان جـ ٣ صـ ٨٦

(٢) الانتصار للخياط صـ ٢٥

البيان العربي :

الجاحظ هو مؤسس البيان العربي بلامنازع ، وله هذه التسمية ، وبها سمى كتابه « البيان والتبيين » ، وقد جمع له مادة غزيرة من أقوال الأدباء والشعراء والخطباء ووضع له الأسس التي سار عليها البلاغيون والنقاد من بعده .

دافع عنه ضد الشعوبيين الذين كانوا يعادونه ، ويغضون من قيمته ويزعمون أن ليس له قيمة بالقياس إلى الآداب الأخرى ، فجعله وحده هو الأدب وأن الأمم الأخرى لاحظ لها من الأدب . يقول :

« وجملة القول أنا لانعرف الخطب إلا للعرب والفرس ، فأما الهند ، فإنما لهم معان مدونة وكتب مخلدة لاتضاف إلى رجل معروف ، ولا إلى عالم موصوف ، وإنما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة » .

ولليونانيين فلسفة وصناعة ، وكان صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه ، وهم يزعمون أن : « جالينوس » كان أنطق الناس ، ولم يذكروه بالخطابة ، ولا بهذا الجنس من البلاغة ، وفي البلاغة ، وفي الفرس خطباء ، إلا أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم ، فإنما هو عن طول فكرة ، وعن اجتهاد رأس ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكر ودراسة الكتب ، وحكاية الثاني علم الأول ، وزيادة الثالث في علم الثاني ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عندهم .

ونحن لانستطيع أن نعلم أن الرسائل التي بأيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، إذا كان مثل ابن المقفع

وسهل ابن هارون ، وأبى عبيدالله ، وعبد الحميد وغيلان ، يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصنعوا مثل تلك السير(١) .

ويرد الجاحظ على من يعيبون البيان ، ويستدلون بقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« شعبتان من شعب النفاق : البذاء والبيان، وشعبتان من شعب الإيمان: الحياء والعى » .

فيقول : « ونحن نعوذ بالله أن يكون القرآن يحث على البيان ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحث على العى ، ونعوذ بالله أن يجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البذاء والبيان ، وإنما وقع النهى عن كل شىء جاوز المقدار ، ووقع اسم العى على كل شىء قصر عن المقدار . فالعى مذموم ، والخطل مذموم ودين الله تبارك وتعالى بين المقصر والمغالى(٢) .

وينبه الجاحظ بأن فى البيان مذهبا لايرتضيه وهو الذى لايقوم على الصدق والواقع ، ويأبى به الأديب ايرضى به إنساناً ، وقد ذكر الجاحظ له مثالا قال : « مر غيلان بن خرشة الضبى مع عبدالله بن عامر : على نهر أم عبدالله ، الذى يشق البصرة ، فقال عبدالله : ماأصلح هذا النهر لأهل هذا المصر ! ! فقال غيلان : أجل والله أيها الأمير ، يعلم القوم صبيانهم فيه السباحة ، ويكون لسقيام ومسيل مياههم . وتأتيهم فيه ميرتهم .

قال : ثم مر غيلان يساير زياداً على ذلك النهر ، وقد كان عادى ابن عامر ، فقال زياد :

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ جـ ٣ صـ ٢٧ — ٩٨

(٢) المرجع السابق جـ ١ صـ ٢٠٢

ما أضر هذا النهر ، بأهل هذا المصر ! قال غيلان : أجل والقه أيها الأمير ، تنز منه دورهم ، وتغرق فيه صبيانهم ومن أجله يكثر بعوضهم .

يقول الجاحظ : فالذين كرهوا البيان ، إنما كرهوا مثل هذا المذهب فأما نفس حسن البيان فليس يذمه إلا من عجز عنه ، ومن ذم البيان مدح العى ، وكفى بهذا خبالا(١) .

وعرف الجاحظ البيان فقال : « البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضى السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ، ومن أى جنس كان الدليل ، لأن مدار الأمر ، والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع ، إنما هو الفهم والإفهام فبأى شيء بلغت الأفهام ، وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع(٢) .

ولما كان البيان عنده بهذا المعنى العام جعل « جميع أصناف الدلالات على المعانى من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء : أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد(٣) ، ثم الخط ، ثم الحال التى تسمى نصبة(٤) .

وينقل عن ثمامة وقد قال لجعفر بن يحيى : ما البيان ؟ قال : أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلى عن مغزاك ، وتخرجه عن الشركة ، ولا تستعين

---

(١) البيان والتبيين جـ١ صـ٢٩٤ ، ٣٩٥

(٢) المرجع السابق جـ١ صـ٧٦

(٣) العقد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين ، يقال له حساب اليد ، والنصبة هى : الحال الدالة التى تقوم مقام تلك الأصناف .

(٤) أنظر البيان جـ١ صـ٧٦

علية بالفكرة ، والذى لابد منه أن يكون سليماً من التكلف بعيداً من الصنعة ، بريئاً من التعقيد غنياً عن التأويل(١) .

وحكم المعانى(٢) عند الجاحظ خلاف حكم الألفاظ : فالمعانى مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، ولا يجب أن تقف عند مارسمه الأقدمون لها فلابد أن تتسع كلما اتسعت ثقافة الأديب .

أما الألفاظ فمحدودة ، ولابد أن تتسع هى الأخرى بالمجاز والكناية وكل ضروب الاتساع .

البلاغة :

أورد الجاحظ فى الجزء الأول من كتابه « البيان والتبيين » عدة تعريفات تكشف عن تصور الأجانب والعرب للبلاغة قبل عصره ، وقد أوردها البلاغيون من بعده فى كتبهم . وقد ذكرناها أول هذا البحث .

وإيراد الجاحظ لهذه التعريفات(٣) بدون مناقشة يدل على أنه يعتقد أن كل تعريف يكشف عن ناحية من هدف البلاغة على الأقل ، لكنه يستحسن تعريفاً للبلاغة يقول عنه : وقال بعضهم : وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوناه ـ لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك(٤).

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠٦

(٢) البيان جـ ١ ص ٧٦

(٣) أنظر هذه التعريفات فى البيان والتبيين جـ ٢ صفحات : ٨٨ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٣ - ١١٦ ، ١٦١ ، ١٦٢

(٤) البيان جـ ١ ص ١١٥

وهذا التعريف يتفق مع مذهب الجاحظ الأدبي إذ يقول : وأحسن الكلام ماكان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ـ فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة(١) .

على أن الجاحظ قد عرف مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، الذي هو البلاغة كلها عند المتأخرين وألح على طلب تحققه في الكلام في أكثر من موضع ، فيورد قول الإمام إبراهيم بن محمد : يكفي من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع .

ويعلق الجاحظ على قول الإمام : أما أنا فاستحسن هذا القول جدا(٢).

ويحكي الجاحظ من الصحيفة الهندية : ومن علم حق المعنى أن يكون الاسم له طبقا وتلك الحال له وفقا . . ومدار الأمر على إفهام كل قوم بمقدار طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم(٣) .

ومما أورده من كلام بشر بن المعتمر : وإنما مدار الشرف على الصواب ، وإحراز المنفعة ، مع موافقة الحال ومايجب لكل مقام من المقال(٤) .

---

(١) البيان جـ ١ صـ ٨٣
(٢) البيان جـ ١ صـ ٨٧
(٣) البيان جـ١ صـ٩٣
(٤) البيان جـ ١ صـ ١٣٦

إبداع الأدب ونقده :

رسم الجاحظ لنا الطريق إلى تربية الفنية الأدبية التي تستطيع الخلق والابتكار والتمييز بين الكلام ورديئه ، وتعرف الفرق بين مميزات النظم العرفي وغيره ، وبين النظم القرآني ونظم سائر الكلام .

فأول شيء يشترطه الجاحظ في تربية الفنية الأدبية أن يكون طالب البيان يتمتع باستعداد عقلي ذكي ، وأدبي يستطيع الابتكار الفني ، والتوليد في المعاني فهو يوصي طالب الأدب ألا يدع التماس البيان والتبيين إن ظن أن له فيهما طبيعته ، وأنهما يناسبانه بعض المناسبه ، ويشاكلونه في بعض المشاكلة ، كما يوصيه ألا يهمل طبيعته فيستولي الإهمال على قوة القريحة ويستبد بها سوء العادة ، ثم ناشده أن كان ذا بيان ، وأحس من نفسه النفوذ في الخطابة والبلاغة ، وبقوة المنة يوم الحفل ، فلا يقصر في التماس أعلاها سورة ، وأرفعها في البيان منزلة : ولا يقطعنه تهيب الجهلاء ، وتخويف الجبناء ، ولا تصرفنه الروايات المعدولة عن وجوهها ، المتأولة على أقبح مخارجها(١) .

ويوصي بدراسة اللغة العربية واتقان آدابها وأن يكون له موفور من تلك الآداب وأنها ضرورة لفهم القرآن الكريم والسنة النبوية ، لأن للعرب أمثالا واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم .

ولتلك الألفاظ مواضع أخر ، ولها حينئذ دلالات أخر ، فمن لم يعرفها جهل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل . فإذا نظر في الكلام وفي ضروب من العلم ، وليس هو من أهل هذا الشأن هلك وأهلك(٢) .

---

(١) البيان ج ١ ص ٢٠٠

(٢) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١٥٣-١٥٤ تحقيق هارون الحلبي الطبعة الأولى سنة ١٣٥٦هـ ، ١٩٣٨ م .

ولابد من الدربة والتمرس بالأساليب العربية الفصحى فيحكي : « رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير الألفاظ ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه »(١) كما يوصي « بطول الاختلاف إلى العلماء ، ومدارسة كتب الحكماء »(٢) ، بذلك يجود لفظه ويحسن أدبه ، وكفاك من علم الأدب أن تروى الشاهد والمثل(٣) ، فتذوق عيون الشعر ، وأمثال العرب ، تربي ملكة التذوق للقول الفني الجميل وتوسع الأفق ، وتكشف للأديب الطريق كيف يلبس المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ولعل الجاحظ لهذا القصد حشد في كتابيه « البيان والتبيين » و « الحيوان » كثيرا من روائع الأدب العربي ، ليستفيد منه طالب البيان ، ويعلق على بعض الأبيات بقوله : وهذا يصلح للحفظ والمذاكرة(٤) . لذلك شكا من الذين يزهدون في رواية الشعر وإنشاده فيحكي قول الأصمعي :

قيل لسعيد بن المسيب : ها هنا قوم نساك يعيبون إنشاد الشعر ، قال : « نسكوا نسكا أعجميا »(٥) ويوصي صاحب البيان أيضا بعرض نتاجه على ذوق الصفوة المختارة من العلماء ، فإن قبلوه إدعاء لنفسه وأذاعه بين الناس ، ولا يعتمد الأديب على رأى نفسه في تقدير نتاجه ، يقول : « فلا تثق في في كلامك برأى — نفسك ، فإني رأيت الرجل متماسكا وفوق المتماسك ،

---

(١) البيان جـ ١ ص ٤٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٦ جـ ١ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) المرجع السابق : جـ ٢ ص ١٨٦ ، جـ ١ ص ٣٩٦ والحيوان ، جـ ٤ ص ١٦٧ .
(٥) البيان جـ ١ ص ٢٠٢ .

حتى إذا صار إلى رأيه فى شعره ، وفى كلامه وفى ابنه ، رأيته متهافتا وفوق المتهافت(١) .

ولما كان البيان كما يعتقد الجاحظ — يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج ، وجهارة المنطق ، وتكميل الحروف ، وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة ، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب وتثنى به الأعناق ، وتزين به المعانى(٢)- فقد بين صفة الخطيب وحلاوة المنطق ، وذكر أمثلة لتفوق الخطباء والشعراء بحلاوة منطقهم وسلامة مخارج حروفهم(٣) .

على أنه قد عاب طريقة دراسة الأدب التى كانت قائمة فى ذلك العصر وقبله ، والتى كان يقوم بها النحويون واللغويون والرواة يقول : « ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب ، أو معنى صعب يحتاج إلى الإستخراج ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه الشاهد والمثل »(٤) .

وأعجبته طريقة الكتاب ، وحذاق الشعراء فهم « لايقفون إلا على الألفاظ المتخيرة ، والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد وعلى كل

---

(١) البيان جـ ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٢) البيان جـ ١ ص ١٤ .

(٣) البيان جـ ١ ص ١ — ١٠٠ وخاصة ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٥ — ٦٧ .

(٤) البيان جـ ٤ ص ٢٤ .

كلام له بهاء ورونق، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعانى ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام فى رواة الكتاب أعم، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر(١)».

ويقول مرة أخرى: أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ مالم يكن متوعرا وحشياً، ولا ساقطاً سوقياً(٢).

النظم:

يرى الجاحظ أن وجه اعجاز القرآن البلاغى هو: نظمه البديع وتأليفه العجيب(٣)، وألف من أجل بيان ذلك كتابه: «نظم القرآن» الذى ضاع مع الأيام، ولم يبق لنا إلا بعض الإشارات القليلة المبثوثة فى كتابه «البيان والتبيين» فهو يقول عن النظم القرآنى: انه يخالف جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع، وأن نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج(٤).

ويؤكد الجاحظ فصاحة الألفاظ القرآنية فيحكى تلك المحاورة القيمة التى جرت بين أهل مكة وبين محمد بن المناذر الشاعر، وكان من أهل البصرة فقد قالوا: ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة، انما الفصاحة لنا أهل مكة، قال ابن المناذر:

---

(١) البيان جـ ٤ صـ ٢٤ .
(٢) البيان جـ ١ صـ ١٣٧
(٣) الحيوان جـ ٤ صـ ٩٠
(٤) البيان جـ ١ صـ ٢٧٣

أما ألفاظنا فأحكى الألفاظ للقرآن ، وأكثرها له موافقة ، فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم : أنتم تسمون القدر برمة وتجمعون البرمة على برام ، ونحن نقول : قدر ونجمعها على قدور ، وقال الله عز وجل : (وجفان كالجواب وقدور راسيات) (١) ، وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت عليه ، وتجمعون هذا الإسم على علالى ، ونحن نسمى غرفة ونجمعها على غرفات وغرف ، وقال الله تبارك وتعالى :

(غرف من فوقها غرف مبنية)(٢)،وقال : (وهم فى الغرفات آمنون) (٣)

وأنتم تسمون الطلع : الكافور أو الاغريض ، ونحن نسميه الطلع ، وقال الله تبارك وتعالى :

(ونخل طلعها هضيم)(٤) فعد عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا(٥).

فألفاظ النظم القرآنى عند الجاحظ كلها فصيحة ، وكثرة استعمال الكلمة عند العامة ، لايجعل لها مرتبة الفصاحة ، لأن العامة كما يرى الجاحظ وربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل فى أصل اللغة استعمالا ، وتدع ما هو أظهر وأكثر (٦) — فاستعمال العامة للكلمة ليس مقياسا على فصاحتها ، لأنه كثيرا ما يظهر فساد هذا المقياس ألا ترى أننا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه وكذلك المثل السائر (٧) .

ويقول : وقد يستخف الناس ألفاظا ، ويستعملونها وغيرها أحق

---

(١) سورة سبأ آية ١٣
(٢) سورة الزمر آية ٢٠
(٣) سورة سبأ آية ٣٧
(٤) سورة الشعراء آية ١٤٨
(٥) البيان جـ ١ صـ ١٨ ، ١٩
(٦) البيان جـ ١ صـ ٢٠
(٧) البيان جـ ١ صـ ٢٠

بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن « الجوع » إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر والناس لايذكرون « السغب » ، ويذكرون « الجوع » فى حال القدرة والسلامة .

وكذلك ذكر « المطر » ، لأنك لاتجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام والعامة وأكثر الخاصة ، لايفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر « الغيث » .

ولفظ القرآن الذى عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سنوات لم يقل الأرضين ألا تراه لايجمع الأرض أرضين ، ولا السمع أسماعا ، والجارى على أفواه العامة غير ذلك ، لايتفقدون من الألفاظ ماهو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال(١) .

كما يلاحظ الجاحظ أن فى النظام القرآنى معانى لاتكاد تفترق ، مثل: الصلاة ، والزكاة ، والجوع ، والخوف والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس(٢) .

كما ينفى الجاحظ عن النظام القرآنى وزن الشعر ، وعن الرسول ﷺ قول الشعر ، يقول « ويدخل على من طعن فى قوله : « تبت يدا أبى لهب » وزعم أنه شعر ، لأنه فى تقدير مستفعلن مفاعلن ، وطعن فى قوله فى الحديث عنه :

« هل أنت إلا إصبع دميت ؟ » و« فى سبيل الله مالقيت » فيقال له :

اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم ، لوجدت فيها مثل « مستفعلن مستفعلن كثيرا ومستفعلن مفاعلن(٣) .

---

(١) البيان جـ ١ ص ٢٠

(٢) البيان جـ ١ ص ٢١

(٣) البيان جـ ١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩

أما نظم سائر الكلام فهو عند الجاحظ بمعنى البيان والإنشاء ، وله أصناف من القصيد والرجز والمزدوج والمجانس والأسجاع والمنثور(١) .

أما طريقة معالجته للنظم كيف يكون ؟ وبأى شيء يحدث ؟ فلم نعثر على شيء يدل دلالة واضحة عليها، لكن له حديث عن اقتران الحروف والألفاظ يمكن من النظر والتمعن فيه — أن تكون فكرة عن تصور الجاحظ للنظم .

تحدث الجاحظ عن الكلمة إحدى مفردات النظم ، واشترط لفصاحتها أن تكون بريئة من تنافر الحروف حتى تبدو كأنها بأسرها حرف واحد(٢).

ويشرح تجنب التنافر فيها بأن يكون بملاحظة الحروف التى لاتتجاوز «فإن الجيم لاتقارن الظاء ، ولا القاف ولا الطاء ، ولا الغين ، بتقديم ولا بتأخير والزاى لاتقارن الظاء ولا السين ولا الضاد ، ولا الذال بتقديم ولا بتأخير ، وهذا باب كبير ، وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل به إلى الغاية التى إليها يجرى(٣) .

ويرى أن تكون مألوفة الإستعمال ، لذلك لايعجبه ماقاله أبو علقمة النحوى حينما صاح بالناس بعد أن هاجت به ناقته واجتمعوا عليه ، مالكم تتكأكئون على كما تتكأكئون على ذى جنة ؟ أفرنقعوا عنى ! فيقول رجل منهم : دعوه فإن شيطانه يتكلم بالهندية .

واغرب من هذا : أن يأتيه حجام يحجمه فيقول : «أشدد قصب الملازم وأرهف ظبات المشارط ، وأسرع الوضع ، وعجل النزع ، وليكن شرطك وخزا ، ومصك نهزا ، ولا تكرهن أبيا ، ولا تردن آتيا ، فوضع الحجام

---

(١) انظر العثمانية ص ١٦ بتحقيق هارون

(٢) المرجع السابق جـ ١ ص ٦٧

(٣) البيان جـ ١ ص ٦٩

حاجه فى جونته وانصرف(١) .

ويرى أيضاً ألا يكون اللفظ عامياً ولا ساقطاً سوقياً ، ولا ينبغى أن يكون غريباً وحشياً(٢) وأن تكون الكلمة جارية على القواعد الصرفية ، ويعد من اللكنة قول النبطى حينما سئل : لم ابتعت هذه الأتان قال : أركبها وتلد لى

فجاء بالمعنى بعينه ولم يبدل الحروف بغيرها ، ولا زاد فيها ، ولا نقص ، ولكنه فتح المكسور حين قال : وتَلَدَ لى ، ولم يقل وتلِدَ لى(٣) .

ثم تحدث الجاحظ عن الألفاظ فقال : « ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر ، وإن كانت مجموعة فى بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه ، من ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر ... وليس قرب قبر حرب قبر

وقول الآخر :

لم يضرها والحمد لله شىء ... وأنثنت نحو عزف نفس ذهول

ثم يعلق على البيت الأخير بقوله : فتفقد النصف الأخير من هذا البيت فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض(٤) .

ويرى أن الكلام فى ذلك على طبقات فنه المتناهى فى الثقل المفرط فيه كالذى مضى .

---

(١) البيان ج ١ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠
(٢) البيان ج ١ ص ١٤٤
(٣) البيان ج ١ ص ٧٤
(٤) البيان ج ١ ص ٦٥ و ٦٦

ومنه ماهو أخف منه كقول أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى وإذا مالمته لمته وحدى

ومنه مايكون فيه بعض الكلفة على اللسان إلا أنه لا يبلغ أن يعاب به صاحبه ويشهر أمره فى ذلك ويحافظ عليه وأن الكلام إذا سلم من ذلك وصفاً من شوبه كان الفصيح المشاد به والمشار إليه ، وأن الصفاء أيضاً يكون على مراتب يعلو بعضها بعضاً وأن له غاية إذا انتهى إليها كان الاعجاز (١)

ثم مثل لبعض ما لا تتباين ألفاظه ، ولا تتنافر أجزاؤه بقول الشاعر :

رمتنى وستر الله بينى وبينها عشية آرام الكناس رميم

رميم التى قالت لجارات بيتها ضمنت لكم ألا يزال يهيم

ألا رب يوم لو رمتنى رميتها ولكن عهدى بالنضال قديم (٢)

هذا حديث الجاحظ عن اللفظ منفرداً والألفاظ مجتمعة وهو كلام قريب الشبه بكلام البلاغيين المتأخرين ولعلهم استمدوا كلامهم منه .

لكن هل كان الجاحظ يرى أن النظم ضم لفظ إلى لفظ كيف جاء واتفق؟

أو كان يرى أن النظم ضم لفظ إلى لفظ بناء على تناسق دلالة الألفاظ وتلاقى معانيها بمقتضى توخى معانى النحو فيما بين الكلم ؟ .

الذى يظهر من كلامه فى كتابه « البيان والتبيين » أنه كان يطلق النظم على نظم الحروف ، وتلاؤم مزاجها وانسجام أجراسها ، حتى تكون فى خفتها

---

(١) أنظر دلائل الاعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجانى ص ٤٠ تصحيح المراغى الطبعة الأولى سنة ١٣٦٩ هـ ١٩٥٠ المكتبة العربية .

(٢) البيان ج ١ ص ٦٧ و ٦٨

ورشاقتها كالحرف الواحد ، وحتى تكون الألفاظ فى تحدرها وسهولتها ولينها على اللسان كأنها لفظ واحد . يقول الجاحظ معلقا على ما أنشده خلف الأحمر :

وبعض قريض القوم أولاد علة   يكد لسان الناطق المتحفظ

وما أنشده أبو البيداء الرياحى :

وشعر كبعر الكبش فرق بينه   لسان دعى فى القريض دخيل

أما قول خلف : وبعض قريض القوم أولاد علة ، فإنه يقول : إذا كان الشعر مستكرها ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات ، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا ، كان على اللسان عند إنشاد الشعر مئونة .

قال : وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغا واحدا وسبك سبكا واحداً فهو يجرى على اللسان كما يجرى الدهان .

وأما قوله : كبعر الكبش ، فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر ، تراها متفقة ملساء ولينة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينه ومتنافرة مستكرهة ، تشق على اللسان وتكده ، والأخرى تراها سهلة لينة ، ورطبة موائية سلسة النظام ، خفيفة على اللسان ، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد(١) .

ولا نستبعد أن يكون الجاحظ يريد بالنظام : ضم لفظ إلى لفظ بناء على تناسق دلالة الألفاظ بمقتضى توخى معانى النحو فيما بين الكلم .

---

(١) البيان ج ١ ص ٦٦ و ٦٧

المزية البلاغية :

يرى الجاحظ أن فضيلة الشعر مقصورة على العرب ، والشعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل(١) كما لا يجوز ترجمة كتب الدين(٢) لاستحالة نقل المعانى التى تحملها الألفاظ بعد نظمها وتأليفها . ومعنى ذلك أن الجاحظ لاحظ النكات البلاغية التى تحدث بسبب النظم وأنها من خصائص اللغة العربية ، وأنها مع فصاحة المفردات مناط بلاغة الكلام والمتكلم ، وأن المعنى الأصلى عام تشترك فيه جميع اللغات وعلى ضوء هذا أعلن رأيه المشهور فى قضية اللفظ والمعنى قائلا :

« وأنا رأيت أبا عمرو الشيبانى ، وقد بلغ من استجادته لهذين البيتين ، ونحن فى المسجد يوم الجمعة أن كلف رجلا حتى أحضره دواة قرطاسا حتى كتبهما له . وأنا أزعم أن صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا ، ولولا أن أدخل فى الحكم بعض الفتك(٣) ، لزعمت أنه لا يقول شعرا أبدا وهما قوله :

لا تحسبن الموت موت البلى ... فإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا ... أفظع من ذاك لذل السؤال

وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى ، والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى . والبدوى والقروى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن ،

---

(١) الحيوان ج ١ ص ٧٤ ، ٧٥ .
(٢) الحيوان ج ص ٧٧ ، ٧٨ .
(٣) الفتك : المجون .

وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير »(١) .

فأبو عمرو الشيبانى يرى أن المعنى الأصلى مقياس البلاغة ، وينظر إلى هذين البيتين ، ويرى أن — معناهما يستحق التدوين .

لكن الجاحظ يرى أن الشعر صياغة ، وضرب من التصوير ، فالمعنى الأصلى الذى يعبر عنه الشاعر كالمادة فى يد الفنان ملك لجميع الناس ، ولا يصح أن يكون مقياسا للبلاغة ، وإنما العبرة بتناول هذا المعنى ، والتعبير عنه تعبيرا تاما دقيقا بألفاظ فصيحة مختارة وموضوعة فى أماكنها .

فتحدث هذه الألفاظ بسبب تناسق دلالتها واستخدام النكات البلاغية — صورة تثير الوجدان ، فتؤكد دلالة الألفاظ على المعنى المراد ، هذه الصورة مع خلو الكلمة أو المفردات من الغرابة والوحشية والعامية هى : المقياس الصحيح عند الجاحظ لبلاغة الكلام والمتكلم ، وقد عبر الجاحظ عنها « باللفظ » فربما كانت كلمة « اللفظ » أصبحت — كما يقول الشيخ عبد القاهر الجرجانى — كالمواضعة(٢) بين النقاد يطلقونها ، ويريدون منها الصورة التى تحدثها الألفاظ بسبب النظم أو أن تفصيل أجزاء الكلام إلى : اللفظ ، والمعنى والصورة لم يكن اتضح بعد فى أذهان النقاد ، إذ كان المعروف أن الكلام هو اللفظ والمعنى ولا ثالث لهما(٣) .

فلما نفى الجاحظ أن تكون البلاغة أو الميزة البلاغية فى المعنى الأصلى

---

(١) الحيوان : ج ٢ ص ١٣٠ — ١٣١ .

(٢) أنظر : دلائل الإعجاز ص ٢٢٩ .

(٣) نفس المرجع السابق .

فلم يجد إلا اللفظ فعبر به عن الصورة ، على أنه لم يخل كلامه من الإشارة إلى الصورة ، ولذلك سنجد الشيخ عبد القاهر حينما يجعل الميزة البلاغية فى الصورة التى يحدثها النظم يقول : رليس قولنا :

الصورة قياس نحن ابتدعناه ، ولكن يكفيك قول الجاحظ :

« وإنما الشعر صناعة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير(١) » .

والجاحظ إذ يجعل الميزة البلاغية فى الصورة كما فهمناها من كلامه — لا يجهل أن المعنى إذا كان حكمة أو مثلا فهو أشرف من غيره . والذى يقرأ له يجده يوجه عنايته أيضا إلى المعنى الأصلى ، فقد حكى من صحيفة بشر بن المعتمر ما نصه : « ومن أراغ معنى كريما فيلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف(٢) » ، وغير هذا كثير تجده مبثوثا فى ثنايا كتابية : « البيان والتبيين » و « الحيوان » .

فالجاحظ لا ينكر دور المعنى الأصلى فى تحسين الكلام ، لكنه لا يجعله مقياسا فنيا لبيان ميزة الكلام البليغ .

المصطلحات البلاغية عند الجاحظ :

لاحظ الجاحظ أثر الصور البلاغية فى الكلام ، وأطلق عليها كلمة : « البديع » .

فقد قال الأشهب بن رميلة :

---

(١) أنظر الدلائل ص ٣٢١ .
(٢) البيان ج ١ ص ١٣٦ .

إن الألى حانت بفلج(١) دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد
هم ساعد الدهر الذى يتقى به وما خير كف لا تنوء بساعد
أسود شرى لاقت أسود خفية
تساقوا على حرد دماء الأساود(٢)

يقول الجاحظ : قوله « ساعد الدهر » إنما هو مثل ، وهذا الذى تسميه الرواة البديع(٣) .

فكلمة « البديع » عند الجاحظ تعنى : الاستعارة ، والتشبيه ، وغيرهما من مسائل البلاغة ، وليست مقصورة على الأنواع التى اصطلح عليها المتأخرون .

وقد تعرض الجاحظ لأسلوب « الإيجاز » ، وعرفه بقوله : لو أن قائلا قال لبعضنا : ما الإيجاز ؟

لظننت : أنه يقول : الاختصار(٤) . والإيجاز عند الجاحظ ليس يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ ، بل لابد أن يكون مطابقا لمقتضى الحال — وأن يكون السامع على علم به ، والاطالة موضع وليس ذلك بخطل والإقلال موضع وليس ذلك عن عجز(٥) :

---

(١) فلج : عين بين البصرة وضرية : ومن معانيه الظفر والفوز والشق نصفين « قاموس » .

(٢) الشرى : طريق فى سلمى كثيرة الأسود — الخفية : الركية والغيضة الملتفة .

(٣) البيان ج ٣ ص ٥٠

(٤) الحيوان ج ١ ص ٩٠

(٥) الحيوان ج ١ ص ٩٠ — ٩٣

وفتح فى كتابه : « البيان والتبيين » باباً لايجاز الحذف بعنوان ، باب من الكلام المحذوف ذكر فيه أمثلة كثيرة منها : « أن المهاجرين قالوا : يا رسول الله إن الأنصار قد فضلونا بأنهم آووا و نصروا ، وفعلوا وفعلوا. قال النبى ﷺ : أتعرفون ذلك لهم ؟ قالوا : نعم . قال : فإن ذلك ليس فى الحديث غير هذا . يريد : أن ذاك شكر ومكافأة(١) .

وأما إيجاز القصر فقد تعرض له من غير تسمية . فقد علق على قول الإمام على رضى الله عنه .

« قيمة كل امرىء ما يحسن » بقوله : فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية مجزئة مغنية ، بل لوجدناها فاضلة على الكفاية ، وغير مقصرة عن الغاية . وأحسن الكلام ما كان قليلة يغنيك عن كثيره(٢) .

فإيجاز القصر عنده هو الجمع للمعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، وهو أحس الكلام وأبلغه ، والإيجاز بوجه عام هو البلاغة كلها(٣) :

وعرف الجاحظ الإطناب وحدد له الحال والمقام الذى يستدعيه ، يقول : وجملة القول فى الترداد أنه ليس فيه حد ينتهى إليه ، ولا يؤتى على وصفه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ، ومن يحضره من العوام والخواص، وقد رأينا الله عز وجل ردد ذكر قصة موسى وهود ، وهارون وشعيب ، وإبراهيم ولوط ، وعاد وثمود . وكذلك ذكر الجنة والنار ، وأمور كثيرة، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب .

---

(١) البيان جـ ٢ ص ٢٧٨ .
(٢) البيان جـ ١ ص ٨٣ .
(٣) أنظر البيان جـ ١ ص ٩٦ .

وأصناف العجم ، وأكثرهم غبي غافل ، أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب(١) .

وليس هذا هو السبب الوحيد لتكرار القصص القرآني ، فهناك أسباب كثيرة وحكم جليلة سنخصها ببحث بمشيئة الله .

وقد وقف أمام نوع من أنواع الإطناب سماه : إصابة المقدار ، والمتأخرون يسمونه « الاحتراس » ، يقول : وقال طرفة في المقدار وإصابته :

فسقى ديارك غير مفسدها صوب الربيع وديمة تهمي

طلب الغيث على قدر الحاجة ، لأن الفاضل ضار . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه :

« اللهم اسقنا سقياً نافعاً » ، لأن المطر ربما جاء في إبان الزراعات وربما جاء والتمر في الجرن ، والطعام في البيادر ، وربما كان في الكثرة مجاوزاً لمقدار الحاجة ، وقال النبي ﷺ :

« اللهم حوالينا ولا علينا »(٢) .

وإذا جاوز الكلام مقدار الحاجة ، ولم يقف عند منتهى البغية سماه الجاحظ الإسهاب وكرهه ، ولم يرتضه ، ويروى بصدد ذلك ، قول ابن عمر : عندما قيل له :

لو دعوت الله لنا بدعوات . فقال : اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا ، فقال له رجل :

---

(١) البيان ج ١ ص ١٠٥
(٢) البيان ج ١ ص ٢٢٨

لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن . فقال : نعوذ بالله من الإسهاب(١) .

ويحكى عن أبي الحسن ، ما قيل لإياس: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام، قال:

أفتسمعون صوابا أم خطأ ؟ قالوا : لا ، بل صوابا ، فالزيادة من الخير يقول الجاحظ وليس كما قال : فإن « للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية ، وما فضل عن قدر الاحتمال ، ودعا إلى الإستثقال والملال . فذلك الفاضل هو الهذر ، وهو الخطل ، وهو الإسهاب الذى سمعت الحكماء يعيبونه (٢) .

وعرف الجاحظ « الفصل والوصل » وجعله البلاغة كلها . قال : قيل للفارسى :

ما البلاغة ؟ : قال : معرفة الفصل من الوصل (٣) .

وقد وقف أمام موطن من مواطن الوصل وهو : كمال الانقطاع مع الإيهام ، بأنى إذا كان بين الجملتين كمال الانقطاع ، لإختلافهما خبرا وإنشاء لأمر الذى يقتضى الفصل بينهما ، ولكن هذا — الفصل يوهم خلاف المقصود ، وحينئذ توصل الثانية بالأولى ، فتجىء واو العطف ، دفعا لهذا الايهام وإقامة لقصد المتكلم ، وقد ذكر مثالا لذلك ، وهو : قول أبى بكر وقد مر برجل ومعه ثوب ، فقال أتبيع الثوب ؟ فقال : لا !! عفاك الله . فقال أبو بكر رضى الله عنه :

علمتم لو كنتم تعلمون . قل : لا ، وعفاك الله (٤) — يشير إلى وجوب

---

(١) البيان جـ ١ صـ ١٩٥، ١٩٦

(٢) البيان جـ١ صـ ٩٩

(٣) البيان جـ ١ صـ ٨٨

(٤) البيان جـ ١ صـ ٢٦١

الوصل تحقيقا لغرض المتكلم، وبعدا بالكلام عن الفساد .

كما لاحظ الجاحظ « المجاز العقلي » ورأى فيه اسلوبا من أساليب التعبير وأنه ضرورة لغوية لا مجال لانكارها — ولكن من غير تسمية — والمجاز العقلي : هو أسناد الفعل إلى غير من هو له في الحقيقة، ولن يضار به الاعتقاد مادام المتكلم به والسامع له على علم بلغة العرب وطرق القول فيها .

وعاب على بعض العلماء - لقربهم بعهد الجاهلية الوثنية - كراهتهم له مع علمهم به يقول عنهم :

وسمع الحسن رجلا يقول : طلع سهيل، وبرد الليل . فكره ذلك، وقال :

ان سهيلا لم يأت بحر ولا ببرد قط . ولهذا الكلام مجاز ومذهب، وقد كرهه الحسن كما ترى، وكره مالك بن أنس أن يقول الرجل للغيم والسحابة : ما أخلقها للمطر !! .

وهذا كلام مجازه قائم، وقد كرهه ابن أنس، كأنهم من خوفهم عليهم العود في شيء من أمر الجاهلية احتاطوا في أمورهم، فمنعوهم من الكلام الذي فيه أدنى متعلق، وكره ابن عمر رضي الله عنهما قول القائل : أسلمت في كذا وكذا، وقال :

ليس الإسلام إلا لله عز وجل : وهذا الكلام مجازه عند الناس سهل، وقد كرهه ابن عمر وهو أعلم بذلك(١)

ومما لاحظه الجاحظ « التصغير » فهو يكون للتحقير والتصغير مثل قولهم :

نجيل ونذيل(٢) وأحيانا يخرج عن هذا الأصل، ويكون طريقه للشفقة والرقة . يقول الجاحظ :

---

(١) الحيوان جـ ١ صـ ٣٤١ (٢) الحيوان جـ ١ صـ ٣٣٧

وربما صغروا الشيء من طريق الشفقة والرقة كقول عمر : اخاف على هذا العريب وليس للتصغير بهم يريد ، وقد يقول الرجل : إنما فلان أخي وصديقي ،وليس التصغير له يريد(١) .

وقد يريدون بالتصغير لطافة المدخل ،ودقة المسلك يقول:وذكر عمر ابن الخطاب ابن مسعود فقال: كنيف ملىء علما(٢) .

وقد جعل ابن سنان «التصغير» من فصاحة الكلمة ورأى ابن الأثير أنه لاحاجة إلى ذكره ، فإن المعنى يسوق إليه ، وليست معاني التصغير من الأشياء الغامضة التي يفتقر إلى التنبيه عليها(٣) ، ويتعرض الجاحظ للتغليب في القرآن فيقول : في الآية «ولأبويه لكل واحد منهما السدس»(٤) كأنهم يجمعون على أنبه الاسمين كما قالوا : « ثبيرين»وهما : ثبور وحراء ، « جبلان متقابلان بمكة » ،«والبصرتين » : أي البصرة والكوفة والأولى أقدم وليس ذلك بالواجب فقد قالوا: « العمرين » أبو بكر فوق عمر- وقال الفرزدق :

أخذنا بأسماء السماء عليكم   لنا قمراها والنجوم الطوالع(٥)

والتشبيه من الصور البيانية التي لها دورها الخطير في التعبير الفني ،وقد وقف الجاحظ أمامه كثيرا ووضح أركانه فهو يعلق على قول امرىء القيس

كأني غداة البين يوم تحملوا   لدى سمرات الحي ناقف حنظل

---

(١) الحيوان جـ١ صـ٢٣٦

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) انظر سر الفصاحة لابن سنان صـ٩٧-١٠١ وانظر أيضا المثل السائر لابن الأثير تحقيق الدكتورين الحوفي وطبانه القسم الأول صـ٢٢٧ نشر مكتبة نهضة مصر .

(٤) سورة النساء آيه ١١

(٥) الحيوان جـ٣ صـ٢٠٠

بقوله : يخبر عن بكائه ، ويصف درور دمعته فى أثر الحمول فشبه نفسه بناقف الحنظل(١) .

ورأى أن يكون وجه الشبه به أتم منه فى المشبه ، وأن يكون المشبه به أشهر بوجه الشبه من المشبه يقول : هذا والحمار هو الذى ضرب به القرآن المثل فى بعد الصوت ، وضرب به المثل فى الجهل ، فقال: «كمثل الحمار يحمل أسفارا » فلو كان شىء من الحيوان أجهل بما فى بطون الأسفار من الحمار ، يضرب الله به المثل(٢) .

ويذكر قول النابغة :

فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

ثم يقول : وليس لهذا الكلام وجه ، لأن الناس إنما يضربون المثل بشىء نادر من فعل الرجال . ومن سائر أمورهم كصبر أيوب، وحلم الأحنف وكرم حاتم ، أما إذا ضرب المثل بفعل شخص ، ولم يكن مشهوراً به كان الكلام مصروفا عن وجهه ، ولو كان الفعل من صفات الشخص فإذا قلت كان الشعبى لا يمنع .

وكان النخعى لا يقول: لا، لم يكن شيئا، ولو كان الأمر فيهما على ما قلت ، لكنهما غير مشهورين بذلك(٣) كما لاحظ أن الشىء لا يشبه بغيره من جميع الجهات يقول: وقد يشبه الشعراء والعلماء والبلغاء - الانسان بالقمر والشمس والغيث والبحر ، وبالأسد وبالسيف ، وبالحية ، وبالنجم ، ولا يخرجونه بهذه المعانى إلى حد الانسان(٤) .

---

(١) الحيوان جـ٢ صـ١٣٩

(٢) الحيوان جـ٢ صـ٢٠٥

(٣) الحيوان جـ٢ صـ٢٤٧ ، ٣٤٨

(٤) الحيوان جـ١ صـ٢١١

المجاز اللغوى :

ظهر المجاز على لسان أبى عبيدة وكان بمعناه العام أى سبيل العرب فى الكلام فكان يطلق على المعنى اللغوى وغيره .

والجاحظ استعمل المجاز بالمعنى المقابل للحقيقة، ورد على من أنكر أن يكون فى اللغة مجاز سواء فى القرآن أو فى غيره(١) فهو من المعتزلة الذين أثبتوا المجاز(٢) فى القرآن وأولوا الآيات المتشابهات به يقول فى قوله تعالى «يخرج من بطونها شراب(٣)»، فالعسل ليس بشراب، وإنما هو شىء يحول بالماء شراباً، أو بالماء نبيذا فسماه كما ترى شرابا، إذ كان يجىء منه الشراب .

وقد جاء فى كلام العرب أن يقولوا: جاءت السماء اليوم بأمر عظيم .

وقد قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قــوم   رعينــاه وإن كانوا غضابا

ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها ، فقد خرج فى اللغة من بطونها وأجوافها، ومن حمل اللغة على هذا المركب ، لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا وهذا الباب هو مفخر العرب فى لغتهم ، وبه وبأشباهه اتسعت ، وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامه، وهذيلا . وضواحى كنانة، وهؤلاء هم أصحاب العسل، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة وعسلة ساقطة. فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب أو طعن عليه من هذه الحجة(٤) .

---

(١) انظر الايمان لابن تيمية ص٥٣ تصحيح زكريا على يوسف الامام.
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) سورة النحل آية ٦٩
(٤) الحيوان ج٥ ص ٤٢، ٤٤٦

ويقول: «وقد طعن ناس من الملحدين، وبعض من لاعلم له بوجوه اللغة وتوسع العرب فى لغتها وفهم بعضها عن بعض بالإشارة والوحى (١).

ويقول: «وللعرب إقـــدام على الكلام، ثقة بفهم أصحابهم عنهم (٢).

فواضح من النقل عن الجاحظ أن المجاز عنده: هو استعمال اللفظ فى غير حقيقته على سبيل التوســـع من أهل اللغة، ثقة من القائل بفهم السامع (٣).

وأنه ضرورة لغوية، وهو مفخر العرب فى لغتهم، وبه وبأشباهه إتسعت.. وأن له قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى.

والجاحظ قد عرف قسمى المجاز اللغوى: أما المجاز المرسل فقد مثل له بالآية الكريمة وبقول الشاعر السابق كما عرف القسم الثانى، وهو الاستعارة وهو أول من ذكرها تفسيرا. إذ جاء فى كتابه البيان والتبيين تعليقا على قول الشاعر:

يا دار قد غيرها بلاها	كأنمـــا بقـــلم محاها
أخربها عمران من بناها	وكر ممساهـــا على مغناها
وطفقت سحابة تغشاها	تبكى على عراصها عيناها

قوله: أخربها عمران من بناها، يقول: عمرها بالخراب. وأصل

---

(١) الحيوان جـ ٥ ص ٤٢٤.

(٢) الحيوان جـ ٥ ص ٣٢.

(٣) أنظر تلخيص البيان للشريف الرضى ص ١٦ تحقيق محمد عبد الغنى حسن.

العمران مأخوذ من العمر ، وهو البقاء ، فإذا بقى الرجل فى داره فقد عمرها ، فيقول :

إن مدة بقائه فيها أبلت منها ، لأن الأيام مؤثرة فى الأشياء بالنقص والبلى ، فلما بقى الخراب فيها وقام مقام العمران فى غيرها ، سمى بالعمران .

قوله : عساها ، يعنى مساءها ، ومعناها : موضعها الذى اقيم فيه . والمغانى المنازل ، التى كان بها أهلوها ، وطفقت ، يعنى ظلت ، تبكى على عراصها عيناها ، عيناها هنا للسحاب . وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة ، وتسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه (١) .

وتعريف الجاحظ الاستعارة . بأنها تسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه يعتبر المحاولة الأولى فى تاريخ تعريف الاستعارة لذلك لم يكن مانعا جامعا كما يقول المناطقة ، فهو لايمنع المجاز المرسل لأنه أيضاً : تسمية الشىء باسم غيره ثقة من القائل بفهم السامع ، كما يدخل غير الاستعارة فيها كالأعلام المنقولة أو أى نقل مبالغ فيه .

ولذلك وجدنا الاستعارة عنده مختلطة بالمثل والتشبيه والبدل والإشتقاق والمجاز وتسمية الشىء باسم غيره إذا قام مقامه (٢) .

على أننا سنرى فيما يستقبل من البحث أن الاستعارة ظلت مختلطة بالتشبيه البليغ إلى أن تميز الفرق بينهما على يد القاضى (٣) على بن عبد العزيز الجرجانى

---

(١) البيان ج ١ ص ١٥٣ ، ص ١٥٣ .

(٢) أنظر الحيوان ج٤ ص ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ج٥ ص ٢٣ ، ٢٥ .

(٣) أنظر الوساطة لعلى بن عبد العزيز الجرجانى ص ٤١ تحقيق البجاوى وآخر الطبعة الثالثة للحلبى .

المتوفى سنة ٣٦٦هـ وسنرى أن المجاز(١) المرسل والاستعارة مختلطان عند ابن قتيبة .

وقد عرف الجاحظ الاستعارة التمثيلية ، ومثل لها وأطلق عليها كلمة « المثل » يقول (٢) : ويذكرون نارا أخرى ، وهى على طريق المثل لا على طريق الحقيقة نحو قول ابن ميادة :

وناراه : نـــار كل مدفـــع
وأخرى يصيب المجرمين سعـــيرها

وعرف الجاحظ الكناية بمعناها العام وهى ترك التصريح بالشىء ، فهى عنده تقابل التصريح يقول : « رب كناية تربى على إفصاح ولحظ يدل على ضمير » (٣) .

لكنه يشترط لها — كما يشترط للبيان بعامة أن تطلبها الحال ويستدعيها المقال يقول :

« ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعانى نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل والإفصاح ، والكناية فى موضع الكناية ، والاسترسال فى موضع الاسترسال (٤) ، وعلى ذلك يكون الافصاح أولى من التعريض والكناية إذا استدعته الحال وطلبه المقام .

---

(١) أنظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبه تحقيق صقر طبع الحلبى ص ١٠١ وما بعدها .
(٢) الحيوان جـ ٥ صـ ١٣٣ .
(٣) البيان جـ ٢ صـ ٧ .
(٤) الحيوان جـ ٣ صـ ٣٩ .

ولفظ الكناية يأتى فى تعبير الجاحظ بمعنى الكناية اللغوية ، يقول: يقال : فرج المرأة . والجمع : فروج ، وهو القبل ، والفرج كناية (١) .

وأحياناً يستعمل « لفظ » الكناية فى الدلالة على الاصطلاح البلاغى المعروف يقول :

وإذا قالوا : فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل ، وإذا قالوا : العامل مستقص فتلك كناية عن الجور (٢).

ثم وقف الجاحظ أمام أسلوب حسن التقسيم ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان عنده أعلم الناس بالشعر حينما أنشدوه : شعراً لزهير — وكان لشعره مقدما ، فلما انتهوا إلى قوله :

وأن الحق مقطعة ثلاث   يمين أو نفار أو جلاء

قال عمر كالمتعجب : من علمه بالحقوق وتفصيله بينها وإقامته أقسامها :

وإن الحق مقطعه ثلاث   يمين أو نفار أو جلاء

ويرد دون البيت من التعجب.

وأنشدوه قصيدة عبده بن الطبيب الطويلة التى على اللام .

فلما بلغ المنشد قوله :

والمرء ساع لشىء ليس يدركه   والعيش شح واشفاق وتأميل

قال عمر متعجباً : والعيش شح وإشفاق وتأميل.

---

(١) الحيوان جـ ٢ صـ ٢٨٠ .
(٢) البيان جـ ١ صـ ٢٦٣ .

يعجبهم من حسن ما قسم وفصل (١) .

ويكره الجاحظ الغلو ، ويبغض الاغراق فى القول ، ومذهبه الإعتدال فى القول ، يقول :

« فالقصد فى ذلك أن تجتنب السوقى والوحشى ولاتجعل همك فى تهذيب الألفاظ ، وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى ، وفى الاقتصاد بلاغ ، وفى التوسط مجانبة للوعورة ، وخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه .. وليكن كلامك مابين المقصر والمغالى ، فإنك تسلم من المحنة عند العلماء ومن فتنة الشيطان » (٢) .

ويقول : « وكانوا يقولون : أكره الغلو كما تكره التقصير » (٣) .

وأشار لما يسميه البلاغيون « الأرصاد » فنقل كلام ابن المقفع « وليكن فى مصدر كلامك دليل على حاجتك كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته » (٤) .

وذكر ابن المعتزلة « المذهب الكلامى » فى الباب الخامس من البديع ، وقال : أن الجاحظ سماه بهذا الاسم وقال ابن المعتزلة وهذا باب ما أعلم أنى وجدت فى القرآن منه شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا (٥) . ثم أورد له أمثلة من كلام المتقدمين والمحدثين وأمثلة للمعيب منه .

---

(١) أنظر البيان جـ١ ص ٢٣٩ — ٢٤١ والحيوان جـ٣ ص ٤٦ .

(٢) البيان جـ١ص ٢٥٥ .

(٣) البيان جـ١ ص ٥٦ .

(٤) البيان جـ١ ص ١١٦ .

(٥) كتاب البديع لعبد الله بن المعتز ص٥٣ نشر كراتشقوفسكى لينينغراد

وعرض الجاحظ لأسلوب الحكيم وسماه «اللغز فى الجواب»، وعقد له بابا فى كتاب «البيان والتبيين» أورد فيه كثيرا من الأمثلة كقوله: كان الحطيئة يرعى غنما وفى يده عصا، فمر به رجل فقال:

ياراعى الغنم ماعندك؟ قال عجراء من سلم - يعنى عصاه. قال: إنى ضيف، فقال الحطيئة: للضيفان أعددتها(١).

وعرض الجاحظ للسجع ومثل له بأمثلة(٢) من عيون النثر والشعر ومن حديث الرسول ﷺ. فمن كلام الرسول ﷺ: «يقول العبد مالى مالى، وإنما لك من مالك. ما أكلت فأفنيت وأعطيت فأمضيت، أو لبست فأبليت».

ومن النثر قول عمر بن ذر: الله المستعان على ألسنة تصف، وقلوب تعرف وأعمال تخلف.

ومن الشعر قول النمر بن تولب:

أعاذل أن يصبح صداى بقفرة بعيدة نآنى صاحبى وقريبى

ترى أن ما أبقيت لم أك ربه وأن الذى أمضيت كان نصيبى

ومن الأسجاع الحسنة عنده قول(٣) الاعرابية حين خاصمت ابنها إلى عامل الماء قالت: «أما كان بطنى لك وعاء؟ أما كان حجرى لك فناء؟ أما كان ثدى لك سقاء؟»، فقال ابنها: «لقد أصبحت خطيبة رضى الله عنك»

ويقول الجاحظ: «لأنها قد أتت على حاجتها بالكلام المتخير كما يبلغ

---

(١) البيان ج ٢ ص ١٤٧.

(٢) البيان ج ١ ص ٢٨٤.

(٣) البيان ج ١ ص ٤٠٨.

ذلك الخطيب بخطبته ، كما وضح الجاحظ دور السجع فى الكلام البليغ فيروى ماقيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشى : لم تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافى وإقامة الوزن ؟ قال عبد الصمد : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه الاسماع الشاهد لقل خلافى عليك ولكنى أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد ، وبقلة التفلت ، وماتكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر به من جيد الموزون فلم يحفظ من المنثور عشرة ولا ضاع من الموزون عشره(١) .

وقد قال قوم بكراهة أسلوب السجع واستدلوا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم للذى قال: يارسول الله أرأيت من لاشرب ، ولا أكل ، ولاصاح فاستهل أليس مثل ذلك يطل « أى يهدر دمه » . فقال صلى الله عليه وسلم : « أسجع كسجع الجاهلية » .

وقد ساق الجاحظ للرد عليهم أقوالا : منها قول عبد الصمد : لو أن هذا المتكلم لم يرد إلا الإقامة لهذا الوزن ، لما كان عليه بأس ، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطال حق فتشادق فى الكلام .

وقال غير عبد الصمد : وجدنا الشعر - من القصيد والرجز ، وقد سمعه النبى صلى الله عليه وسلم فاستحسنه وأمر به شعراؤه ، وعامة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد قالوا شعراً ، قليلا كان ذلك أم كثيراً واستمعوا واستنشدوا ، فالسجع والمزدوج دون القصيد والرجز فكيف يحل ماهو أكثر ويحرم ماهو أقل .

وقال غيرهما : إذا لم يطل ذلك القول ، ولم تكن القوافى مطلوبة

---

(١) البيان جـ ١ صـ ٢٨٧

مجتلبة أو ملتمسة متكلفة ، وكان ذلك كقول الأعرابى لعامل الماء : « حلئت ركابى ، وخرقت ثيابى ، وضربت صحابى - حلئت ركابى ، أى منعت إبلى من الماء والكلام والركاب : ماركب من الإبل - قال : « أو سجع أيضاً » . قال الأعرابى :

فكيف أقول ؟ لأنه لو . قال حلئت إبلى أو جمالى أو نوقى أو بعرانى ، أو صرمتى لكان لم يعبر عن حق معناه وإنما حلئت ركابه ، فكيف يدع الركاب إلى غير الركاب ، وكذلك قوله : وخرقت ثيابى ، وضربت صحابى. لأن الكلام إذا قل وقع وقوعا لا يجوز تغييره ، وإذا طال الكلام وجدت فى القوافى مايكون مجتلباً ومطلوباً مستكرها(١) .

ثم يقول : وكان الذى كره الأسجاع بعينها ، وإن كانت دون الشعر فى التكلف والصنعة ، أن كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيساً من الجن ، وكانوا يتكهنون ، ويحكمون بالأسجاع. قالوا : فوقع النهى فى ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ، ولبقيتها فيهم وفى صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم(٢) .

والمزدوج عرض له الجاحظ وجعله الأسجاع كلها فقال : الأسجاع

الكلام المزدوج على غير وزن ، وفتح له فى « البيان والتبيين » بابا خاصا به سماه باب « من مزدوج الكلام » صدره بقول النبى صلى الله عليه وسلم فى معاوية : اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب(٣) . وعرف

---

(١) البيان حـ ١ صـ ٢٨٧ - ٢٨٨

(٢) البيان جـ ١ صـ ٢٧٩-٢٩٠

(٣) البيان جـ ٢ صـ ١٦٦

الجاحظ حسن الابتداءات فقد نقل عن شبيب بن شيبة قوله: الناس موكلون بتفضيل جودة الإبتداء ، وبمدح صاحبه وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه(١) .

ووقف الجاحظ أمام أسلوب « الإقتباس » وإن لم يسمه - فقد ذكر أن خطباء السلف الطيب، وأهل البيان من التابعين بإحسان، مازالوا يسمون الخطبة التى لم تبتدىء بالتحميد وتستفتح بالتحميد « البتراء » ويسمون التى لم توشح بالقرآن ، وتزين بالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم « الشوهاء »(٢) .

ويقول : وكانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل ، وفى الكلام يوم الجمع آى من القرآن ، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء ، والوقار والرقة ، وسلس الموقع(٣) .

هذه جهود الجاحظ البلاغية التى خدم بها البيان العربى وأبرز محاسنه وجمع فى كتبه أمثلة كثيرة من عيون الشعر والنثر كانت معينا لاينضب وزادا لاينفذ لمن أتى بعده من البلاغيين والنقاد .

---

(١) البيان جـ ١ صـ ١١٢
(٢) البيان جـ ٢ صـ ٦
(٣) البيان جـ ١ صـ ١١٨

ب — ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ

هو : أبو محمد عبد الله من مسلم بن قتيبة الدينورى ، وقيل المروزى ، النحوى اللغوى ، كان فاضلا ثقة ، وتصانيفه كلها مفيدة(١)

بادر فى صدر كتابه « تأويل مشكل القرآن » ببيان وجه الإعجاز القرآنى فقرر أنه معجز بتأليفه البديع ونظمه العجيب ، يقول : « وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين ، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين(٢) » . ثم أشار إلى عناصر الجمال فى النظم القرآنى بما يلى :

١ — ما فى القرآن الكريم من الجمال التوقيعى الفريد والنسق الصوتى البديع الناشىء من تقسيم الحركة والسكون فيه تقسيما عادلا ، وتوزيع حروف المد ، والغنة بالقسطاس المستقيم ، فيتمكن القارىء له من ترجيع صوته ، والترنم به ، حتى يصل إلى نهاية الفاصلة فيجد عندها راحته واستقراره ، فلا يمل من قراءته ولا يسأم من تلاوته يقول : وجعله متلوا لايمل على طول التلاوة(٣) .

وإذا سمعه السامع ، وطرقت أذنه جواهر ألفاظه وأجراس حروفه ، فى رصفها ، وسبكها ، وترتيب أوضاعها فيما بينها شعر بلذة ، وصاخت أذنه لسماعه بحب وشغف يقول : وغضا . ومسموعا لاتمجه الأذان(٤) .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ٢ صـ ٤٢٦
(٢) تأويل مشكل القرآن صـ ٣
(٣) المرجع السابق صـ ٣
(٤) تأويل مشكل القرآن صـ ٤

٢ — مافيه من معان خالدة ، وما حواه من علوم خارجة عن متناول البشر يقول : « لايخلق على كثرة الرد ، وعجيباً لاتنقضى عجائبه ، ومفيداً لاتنقضى فوائده »(١) .

٣ — مافيه من المعانى البلاغية التى تعتمد على دقة التعبير وإجادة التصوير بأسلوب يثير الخيال ويحفز على العمل وقد ذكر منها ابن قتيبة - عقب رأيه هذا : « الايجاز » الذى هو التعبير عن المعانى الكثيرة ، بدقة وعمق بألفاظ قليلة يقول(٢) « وجمع الكثير من معانيه فى القليل من لفظه ، وذلك معنى قول الرسول ﷺ : « أوتيت جوامع الكلم » .

ويقول ابن قتيبة : فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله تعالى : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »(٣) كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم .

وبهذا يكون ابن قتيبة قد أدرك أن عناصر الجمال فى الكلام بوجه عام تأتى من ثلاث جهات :

أولا : الألفاظ .

ثانياً : المعنى الأصلى .

ثالثاً : المعانى البلاغية اوالصورة البلاغية التى تحدثها الألفاظ إذا ضمت إلى بعضها على طريقة مخصوصة .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٤
(٢) نفس المرجع السابق .
(٣) سورة الأعراف آية ١٩٩

ويرى أنه من الممكن إدراك جمال الكلام بالذوق الأدبي الذى تربى تربية أدبية سليمة عمادها فهم ودراسة اللغـــة العربية وآدابها علوم ومعرفة العرب وفهم مذاهبهم وتفننهم فى الأساليب ، ومختلف ضروب الكلام .

فإنه ليس فى جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب(١) فلهم المجازات فى الكلام ـ ومعناها طرق القول ومآخذه ففيها الاستعارة ، والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير والحذف ، والتكرار ، والاخفاء ، والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ، والكناية ، والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد والواحد الجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ ـ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص(٢) .

ولذلك هاجم معاصريه لتقصيرهم فى تربية ملكاتهم الأدبية بالطريقة التى رسمها والتى تقوم على دراسة اللغة العربية وآدابها ، وفهم النصوص الجيدة القديمة : دينية كانت أو غير دينية ، وبطول الممارسة ، يستطيع الذوق أن يحكم على النظم القرآنى ، ويدرك سر تفوقه على المنظوم وكذلك يدرك سر تفوق قول على قول .

ولكن المعاصرين لابن قتيبة تنكبوا هذا الطريق ، واعتمدوا على علوم ، ووجوه ، لا تربى ملكة ولا تحشد عقلا ، ولا تثقف لسانا ، وإذا

---

(١) تأويل مشكل القرآن صـ ١٠
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٦

استعملها صاحبها كانت وبالا على لفظه وقيدا للسانه ، وعيا فى المحافل وغفلة عند المتناظرين يقول : « . . . ولو أن هذا المعجب بنفسه الزارى على الإسلام برأيه نظر من جهة النظر ، لأحياه الله بنور الهدى ، وثلج اليقين ولكنه طال عليه أن ينظر فى علم الكتاب ، وفى أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصحابته ، وفى علوم العرب ولغاتها وآدابها . فنصب لذلك وعاداه وانحرف منه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون ، وقل فيه المناظرون ، له ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم ، فإذا سمع الغمر ، والحدث الغر قوله : الكون والفساد ، وسمع الكيان والأسماء المفردة ، والكيفية والكمية ، والزمان والدليل ، والأخبار المؤلفة راعه ما سمع ، وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة ، وكل لطيفة ، فإذا طلعها لم يحل منها بطائل ، إنما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعرض لا يقوم بنفسه ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم .

والكلام أربعة : أمر ، وخبر ، واستخبار ، ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب ، والآن حد الزمانين مع هذيان كثير ، والخبر ينقسم إلى تسعة آلاف وكذا كذا مائة من الوجوه ، فإذا أراد المتكلم أن يستعمل بعض تلك الوجوه فى كلامه كانت وبالا على لفظه ، وقيدا للسانه ، وعيا فى المحافل ، وغفلة عند المتناظرين(١) .

ويذكر أنه ألف كتابه « تأويل مشكل القرآن » ليرد على الطاعنين

---

(٢) أدب الكاتب على هامش المثل السائر ص ٣ و ٤ الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هـ ١٩٤٥م مطبعة حجازى بالقاهرة .

على النظم القرآنى ، والنظم العربى بعامة وليكشف للناس ما يلبسون(١) .

وذكر مطاعن الطاعنين ، وهى تتلخص فى طعنهم فى اختـــلاف القراءات فالقراء مختلفون ، فهذا يرفع ما ينصبه ذاك ، وذاك يخفض ما يرفعه هذا ، وادعائهم وجود زيادة فى كتاب الله ووجود اللحن والخطأ فيه ، وكذلك التناقض .

وقولهم : ماذا أراد بإنزال المتشابه فى القرآن من أراد لعباده الهدى والبيان(٢) .

وقد رد عليهم ابن قتيبة وذكر الحجة عليهم والذى يهمنا من هذا هو رده عليهم فى المتشابه ، فقد تمخض رده عن مسائل بلاغية قيمة .

يرى ابن قتيبة أن بعض معانى القرآن مكشوفة ظاهرة يستوى فى معرفتها العالم والجاهل ، ولعله يريد بذلك « المحكم »(٣) .

وبعض معانى القرآن غامضة لا يظهر عليها إلا اللقن والعلماء المنقبون ولعله يريد بذلك « المتشابه »(٤) .

ويرى ابن قتيبـة : أن المتشابه مما يعلمه الراسخون فى العلم ، لأن الله جل وعلا — لم ينزل شيئا من القرآن إلا لينفع به عباده ، ويدل به على معنى أراد(٥) .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٧ .
(٢) أنظر المرجع السابق من ص ١٩ — ٢٥ .
(٣) المرجع السابق نفسه
(٤) أنظر المرجع السابق ص ٦٢ .
(٥) المرجع السابق ص ٧٢ ، ٧٣ .

وحتى نستطيع أن نفهم تلك المشكلة التى خاضها ابن قتيبة نوضح ما يلى :

أن النظم العربى فى أولى مراحله : أى فى الطريق المباشرة التى نطلق عليها سبيل الحقيقة والمساواة ، هذه السبيل يكون فيها التعبير عن المعنى بالألفاظ الموضوعة له فى أصل اللغة ، وأن تكون الألفاظ على قدر المعانى لا تزيد ولا تنقص .

فإذا ما تجاوز النظم طريق الحقيقة ، والمساواة ، وتأنق الأديب فى أسلوبه ، وتصرف فيه بأن استعار ألفاظا ، ونقلها من معناها الأصلى إلى معنى مجازى أو كنى عن المعنى المراد ، أو نكر ، أو عرف ، أو قدم وأخر ، — وزاد فى الألفاظ لمعنى ، أو عبر بألفاظ قليلة عن معان كثيرة . .

هذه التصرفات البلاغية تعبر عن معان فى نفس الأديب أحيانا لا يمكن التعبير عنها بالألفاظ ، أو إذا عبر عنها بالألفاظ طال الكلام وثقل .

هذا الطريق غير المباشرة فى اللغة لا يفهمها إلا العربى الأصيل أو الذى درس اللغة العربية دراسة عميقة وأتقن آدابها وأصبح له حظ موفور من هذه الآداب ،

هذه المشكلة هى التى خاضها أبو عبيدة معمر بن المثنى ، ويومها رد جميع الأساليب إلى مذاهب العرب فى كلامها .

وكذلك رأى ابن قتيبة إذ قال : إن القرآن نزل بألفاظ العرب ومعانيها ، ومذاهبها فى الإيجاز ، والاختصار ، والإطالة والتوكيد والإشارة إلى الشىء ، وإغماض بعض المعانى حتى لا يظهر عليه

إلا اللقن(١) هذه الطريقة غير المباشرة فى اللغة العربية . أو التصرفات البلاغية أو المشكل كما أطلق ابن قتيبة عليها استغلها المعاصرون لابن قتيبة سواء عن حسن نية أو سوء نية ممن يحقدون على الإسلام أو لا يتقنون آداب اللغة العربية .

فابتدأ ابن قتيبة يدرس « المجاز » لأن المشكل أكثر ما يكون فيه ، ولأن غلط أكثر المتأولين من جهته(٢) .

المجـــاز :

توسع ابن قتيبة فى فهم المجاز فأطلقه على جميع فنون الكلام يقول : « وللعرب المجازات فى الكلام ، ومعناها طرق القول ومآخذه ، ففيها الاستعارة والتمثيل ، والقلب ، والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والتكرار ، والإخفاء ، والإظهار ، والتعريض ، والإفصاح ، والكناية ، والإيضاح ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، وبلفظ العموم لمعنى الخصوص مع أشياء كثيرة ستراها فى أبواب المجاز إن شاء الله تعالى(٣) . فواضح أن ابن قتيبة يطلق « المجاز » ويريد منه الطريق غير المباشرة ، فى اللغة أو الأمور البلاغية فى الكلام أو الشكل كما كان يقول معاصروه .

كما استعمله بالمعنى المقابل للحقيقة ، وذلك واضح من مقدمة الباب الذى فتحه للمجاز فى كتابه : « تأويل مشكل القرآن » والتى تحدث فيها عن

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٦٢

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٧٤ ، ٧٥

(٣) أنظر تأويل مشكل القرآن ص ١٦

وروده بعض الصور المجازية التي توهم التشبيه بين الله ومخلوقاته — في الكتب المقدسة كالانجيل والتوراة، والزبور .

فقد ورد في الإنجيل قول المسيح عليه السلام : « أدعو أبي ، وأذهب إلى أبي وأشباه هذا » ، فتأولها بعض النصارى إلى : أبوة الولادة فوقعوا في التشبيه ، ومنهم من تأولها تأويلا مجازيا وحدث جدل بين النصارى واليهود حول أمثال هذه الصور واختلفوا في فهمها ، وتفرقوا تبعا لذلك إلى فرق وأحزاب(١) .

وانتقل هذا الجدل إلى المسلمين — بعد أن تم الامتزاج وترجمة الكتب — ونقبوا عن مثل هذه الصور في القرآن الكريم ، واختلفوا وتفرقوا كما اختلف ، وتفرق اليهود والنصارى يقول : أما المجاز فمن جهته غلط كثير من الناس في التأويل، وتشعبت بهم الطرق واختلفت النحل(٢) .

ثم يورد أمثلة من الزبور(٣) ومن التوراة(٤) ومن القرآن الكريم والشعر العربي ولا يصرفها على حقيقتها بل يتأولها تأولا مجازيا منها قوله :

« وكانت العرب تسمي الأرض « أما »(٥) : لأنها مبتدأ الخلق وإليها مرجعهم ، ومنها أقواتهم . وفيها كفاياتهم ، وقال أمية بن الصلت :

والأرض معقلنا وكانت أما ... فيها مقابرنا وفيها نولد

وقال الله تعالى في الكافر : « فأمه هاوية »(٦) لما كانت الأم كافلة الولد ، وغاذيته ، ومأواه ومربيته وكانت النار للكافر كذلك —

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٧٦
(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) نفس المرجع السابق
(٦) سورة القارعة آية ٩

جعلها أمه (١) .

فواضح مما سبق أن ابن قتيبة يورد كلمة المجاز فى الاستعمال البلاغى المعروف وهو : استعمال اللفظ فى غير ماوضع له فى أصل اللغة ، وأنه ممن يقولون بالمجاز فى القرآن الكريم ، ولذلك نراه يرد على القائلين بعدم جواز المجاز فى الأسلوب القرآنى وشبهتهم أن المجاز أخ الكذب ، والقرآن منزه عنه،وأن المتكلم لايعدل إليه إلا إذا ضاقت به الحقيقة فيستعير وذلك محال على الله تعالى(٢) فيتهمهم بالجهل،وسوء النظر،ويوضح لهم أن المجاز ضرورة لغوية لايستغنى عنها التعبير الفنى يقول :

وأما الطاعنون على القرآن بالمجاز ، فإنهم زعموا أنه كذب ،لأن الجدار لايريد(٣)والقرية لاتسأل(٤) وهذا من أشنع جهالاتهم وأدلها على سوء نظرتهم ، وقلة أفهامهم .

ولو كان المجاز كذبا،وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلا كان أكثر كلامنا فاسدا لأننا نقول :

نبت البقل ، وطالت الشجرة ، وأينعت الثمرة ، وأقام الجبل ، ورخص السعر، ونقول : كان هذا الفعل منك فى وقت كذا وكذا،والفعل لم يكن وإنما

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ٧٧

(٢) انظر الإيمان لابن تيمية ص ٥٣ ، ٥٤ والبرهان فى علوم القرآن للزركشى ج٢ ص٢٥٥ والاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ج٢ ص٣٦

(٣) اشارة إلى قوله تعالى فى سورة الكهف آية ٧٧: فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه .

(٤) اشارة إلى قوله تعالى فى سورة يوسف آية ٨٢ : (واسأل القرية التى كنا فيها) .

كون ونقول : كان الله وكان بمعنى حدث ، والله جل وعز ، قبل كل شيء بلا غاية ، لم يحدث فيكون بعد أن لم يكن .

والله تعالى يقـــول : «فإذا عزم الأمر(١)» ، وإنما يعزم عليه ، ويقول تعالى :

«فما ربحت تجارتهم»(٢) وإنما يربح فيها .

ويقول: «وجاءوا على قميصه بدم كذب»(٣) وإنما كذب به .

ولو قلنا للمنكر لقوله: (جدارا يريد أن ينقض): كيف كنت أنت قائلا في جدار على شفا إنهيار :

رأيت جدارا ماذا ؟ لم يجد بدا من أن يقول : جدارا يهم أن ينقض ، أو يكاد أن ينقض ، أو يقارب أن ينقض ، وأياما قال : فقد جعله فاعلا ، ولا أحسبه يصل إلى هـــذا المعنى في شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ(٤) .

وينتهي ابن قتيبة من الدفاع عن وقوع المجاز في القرآن كاشفا عن المجاز العقلي أيضا ـ وان لم يسمه ـ ثم يختم باب المجاز بتوضيح أن المجاز أعم من الاستعارة يقول :

ونبدأ بباب الاستعارة ، لأن أكثر المجاز يقع فيها(٥) .

---

(١) سورة محمد آية ٢٦
(٢) سورة البقرة آية ١٦
(٣) سورة يوسف آية ١٨
(٤) تأويل مشكل القرآن ص٩٩، ١٠٠
(٥) تأويل مشكل القرآن ص١٠١

الاستعارة :

إذا كان الجاحظ هو أول من قابلنا وقد ذكر تعريفاً للاستعارة - فيما نعلم - فإن ابن قتيبة هو أول من عقد لها « بابا » وتدخل البلاغة بذلك مرحلة التبويب ولكن لم يخلص لها حتى الآن كتابا مستقلا .

يعرف ابن قتيبة الاستعارة فيقول : «فالعرب تستعير الكلمة ، فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى أو مجاورا لها أو مشاكلا(١) » .والجاحظ عرفها بأنها تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه، أخذ ابن قتيبة هذا المسمى وبين صلته باللفظ الأصلى فقال: «إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى،أومجاورا لها أومشاكلا». فوضح العلاقة بين الكلمة المجازية والكلمة الحقيقية ، وإن كان أدخل أنواع المجاز الأخرى مع الاستعارة ثم مضى يمثل للاستعارة ، ولكن تحقيقا لكل ماذكره من أنواع العلاقة فى تعريفه فقال: فيقولون للنبات: نوء لأنه يكون عن النوء عندهم .

قال رؤبة بن العجاج: وجف أنواء السحاب المرتزق. أى جفت البقل(٢) وواضح أن العلاقة بين كلمة البقل ولفظ النوء السببية ، يقولون المطر سماء لأنه من السماء ينزل ،فيقال: مازلنا نطأ السماء حتى أتيناكم ، وقال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا(٣)

فالعلاقة بين السماء والغيث تصح أن تكون المجاورة .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص١٠١

(٢) تأويل مشكل القرآن ص١٠٢

(٣) المرجع السابق .

ويقولون : ضحكت الأرض، إذا أنبتت ،لأنها تبدى عن حسن النبات وتنفتق عن الزهر كما يفتر الضاحك عن الثغر(١) ، وواضح أن العلاقة بين الإنبات والضحك المشابهة ، وعلماء البلاغة يقولون :

إذا كانت العلاقة فى المجاز المشابهة جاءت الاستعارة ، وإذا كانت غير المشابهة جاء المجاز المرسل ومن ثم كانت الاستعارة عند ابن قتيبة مختلطة بأنواع المجاز الأخرى .

ولعل السبب فى هذا الخلط أن الاستعارة لم تكن متميزة فى ذهنه كما كانت عند سلفه الجاحظ فقد أطلقها الجاحظ على التشبيه والمجاز والبدل والاشتقاق وقيام الشىء مقام غيره .

ولقد وجدنا ابن قتيبة يطلقها على التشبيه فيجعـــل من الاستعارة قوله تعالى :

(هن لباس لكم وأنتم لباس لهن(٢)) وواضح أن هذه الآية من التشبيه البليغ وأحيانا يطلقها على الكناية فتراه يمثل للاستعارة بقوله تعالى:(فلا تقل لهما أف ولاتنهرهما)(٣) أى لاتستثقل شيئاً من أمرهما ، وتضيق بهصدرا، ولاتغلظ لهما،والناس يقولون لما يكرهون ويستثقلون : أف له(٤) وواضح كونه كناية .

وتراه يوضح المستعار له والمستعار منه، يقول فى قوله تعالى :(أو من

(١) تأويل مشكل القرآن ص١٠٢ .
(٢) سورة البقرة آية ١٨٧
(٣) سورة الاسراء آية ٢٣
(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١١١

كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس)(١) أي كان كافرا فهديناه ، وجعلنا له إيماناً يهتدي به . فاستعار الموت مكان الكفر ، والحياة مكان الهداية ، والنور مكان الإيمان(٢) .

وأحيانا يشير إلى الجامع للاستعارة فيقول في قوله تعالى : (والمرسلات عرفا)(٣) . يعني الملائكة ، يريد : أنها متتابعة يتلو بعضها بعضا بما ترسل به من أمور الله عز وجل وأصل هذا من عرف الفرس ، لأنه سطر بعضه في أثر بعض فاستعير للقوم يتبع بعضهم بعضا(٤) .

وتارة يكشف عن أصلها وهو التشبيه ، فيقول في قوله تعالى : (انا جعلنا في أعناقهم أغلالا)(٥) .

أي قبضنا أيديهم عن الانفاق في سبيل الله بموانع كالأغلال(٦) .

وتجده يبين الغرض من الاستعارة، ويكشف عن دورها في التعبير الفني في قوله تعالى : (فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين)(٧). تقول

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٢

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٠٦

(٣) سورة المرسلات آية ١

(٤) تأويل مشكل القرآن آية ١٢٦

(٥) سورة يس آية ٨

(٦) تأويل مشكل القرآن ص ١١٣

(٧) سورة الدخان آية ٢٩

العرب إذا أرادت أن تعظم مهلك رجل عظيم الشأن رفيع المكان ، عام النفع كثير الصنائع : أظلمت الشمس له ، وكسف القمر لفقده ، وبكته الريح والبرق والسماء والأرض . يريدون المبالغة في وصف المصيبة به ، وأنها قد شملت وعمت(١) فالغرض من الاستعارة عنده المبالغة في المعنى بها .

ويستمر ابن قتيبة في حشد الأمثلة للاستعارة والتعليق على الأمثلة ويصرح بأن الاستعارة تفارق الكذب يقول : وليس ذلك بكذب ، لأنهم جميعا متواطئون عليه ، والسامع له يعرف مذهب القائل فيه(٢) .

ولعله يقصد بقوله : « والسامع له يعرف مذهب القائل به » ، ماعناه المتأخرون من نصب المستعير قرينة تصرف السامع عن ظاهر الأسلوب ، والكاذب لايقيم قرينة .

وقد حشد ابن قتيبة كثيرا من الأمثلة للاستعارة وشرحها وعلق عليها بما أفاد البلاغيين من بعده، وأنها شملت الاستعارة بنوعيها: التصريحية والمكنية.

باب المقلوب :

فتح ابن قتيبة في كتابه « تأويل مشكل القرآن » بابا « المقلوب » أو ان شئت قلت :الطريق غير المباشرة في التعبير فمثلا من خصائص اللغة العربية أن يوصف الشيء بضد معناه ، ويرمون من وراء ذلك أغراضا بلاغية فهم يقولون : اللديغ : سليم ، تفاؤلا بالسلامة ، وللعطشان : ناهل أي سينهل ، يعنون : يروى ، وكقولهم للفلاة:مفازة أي منجاة،وهي مهلكة(٣) وواضح

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص١٢٧

(٢) المرجع السابق .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص١٤٢

كون هذا من المجاز المرسل . ويجعل من المقلوب إرادة أحد المعنيين من ألفاظ الأضداد ويرد هذا الاستعمال إلى مذاهب العرب وأحيانا يحاول أن يجد مسوغا للأضداد فى اللغة يقول :

«ومن ذلك أن يسمى المتضادان ، باسم واحد ، والأصل واحد ، فيقال للصبح: صريم، والليل: صريم، قال تعالى: (فأصبحت كالصريم)(١) أى سوداء كالليل، وكأن الذى سوغ هذا الوضع وبالتالى الاستعمال مجاورة الصبح لليل، يقول: «لأن الليل ينصرم عن النهار ، والنهار ينصرم عن الليل(٢)» .

ويجعل من المقلوب : التقديم والتأخير وهو لاينهج فيه منهجا بلاغيا بل يصرف همه إلى بيان صحة الأسلوب برده إلى مذاهب العرب فى كلامها .

يقول: «ومن المقلوب أن يقدم ماموضعه التأخير ، ويؤخر مايوضعه التقديم كقول الله تعالى :

(فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله)(٣) أى مخلف رسله وعده ، لأن الاخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرسل فتقول أخلفت الوعد وأخلفت الرسل(٤)» .

ويسير ابن قتيبة على هذا المنوال فى كل الأمثلة التى أوردها فإذا امتنع التأويل حمل القلب على الغلط ونزه القرآن عنه ، يقول : « وهذا مالا يجوز

---

(١) سورة القلم آية ٢٠
(٢) تأويل مشكل القرآن ص١٤٣
(٣) سورة إبراهيم آية ٤٧
(٤) تأويل مشكل القرآن ص١٤٨
(٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٥٤

لأحد أن يحكم به على كتاب الله عز وجل ، ولم يجد له مذهبا لأن الشعراء تقلب اللفظ ، وتزيل الكلام على الغلط أو على طريق الضرورة للقافية أو لاستقامة وزن البيت فمن ذلك قول لبيد :

نحن بنو أم البنين الأربعة

قال ابن الكلبي : هم خمسة فجعلهم للقافية أربعة(١) . ويورد كثيراً من الأمثلة لشعراء ارتكبوا ضرورات ، لإقامة الوزن والقافية يقول فى نهايتها :

والله تعالى لايغلط ولايضطر(٢) .

وابن قتيبة وان كان لم يوضح السر البلاغى لهذا الاستعمال فقد وضع الأمر ظاهرا مكشوفاً أمام البلاغيين الذين أتوا من بعده خاصة الشيخ عبدالقاهر الجرجانى الذى نهض بباب التقديم والتأخير .

الإيجاز :

عرف ابن قتيبة الإيجاز بنوعيه : إيجاز الحذف ، وإيجاز القصر .

أما إيجاز القصر فقد تعرض له فى صدر كتابه « تأويل مشكل القرآن » من غير تسمية عندما وصف النظم القرآنى بأنه جمع الكثير من معانيه فى القليل من لفظه - وسماه الاختصار - ومثل له بقوله تعالى :

(خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)(٣) وقال :

كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم .

---

(١) تأويل مشكل القرآن صـ١٥٤
(٢) تأويل مشكل القرآن صـ١٥٦
(٣) سورة الأعراف آية ١٩٩

أما إيجاز الحذف فقد فتح له بابا فى كتابه السابق بعنوان « باب الحذف والاختصار » ومثل له بفيض من الأمثلة من القرآن الكريم وكلام العرب .

وإيجاز الحذف عنده على أنواع :

من ذلك . أن تحذف المضاف ، وتقيم المضاف إليه مقامه وتجعل الفعل له ، كقوله تعالى :

(إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات)(١) أى ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات(٢) .

ومن ذلك أن توقع الفعل على شيئين وهو لأحدهما ، وتضمر للآخر فعله قال الشاعر :

ورأيت زوجك فى الوغى متقلدا سيفا ورمحا

أى متقلدا سيفا ، وحاملا رمحا(٣)

ومن إيجاز الحذف : أن يأتى بالكلام مبنيا على أن له جوابا ، فيحذف الجواب اختصارا لعلم المخاطب به كقوله تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤف رحيم)(٤) أراد : لعذبكم ، فحذف(٥) .

---

(١) سورة الاسراء آية ٧٥ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٦٢ .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٤) سورة النور آية ٢٠
(٥) تأويل مشكل القرآن ص ١٦٦ .

وينتهى ابن قتيبة من باب الحذف والاختصار ، وقد حشد فيه كثير من الأمثلة تناولت حذف الكلمة والكلمتين والجملة وحذف الحرف والإسم والفعل ، واشترط له أن يكون معلوما لدى السامع ، بأن يكون هناك مايدل عليه ، وألا يخل الحذف بالمعنى المراد(١) .

والحق أن جهود ابن قتيبة وأمثلته فى إيجاز الحذف لم يزد عليها البلاغيون المتأخرون شيئا يذكر ، إلا ما أتى به الرمانى من بيان السر البلاغى لايجاز الحذف وإطلاق كلمة إيجاز القصر على النوع الآخر .

الإطناب .

عرفه ابن قتيبة ، وتعرض لبعض صوره وذلك فى الباب الذى عقده تحت عنوان « باب تكرار الكلام والزيادة فيه » والحذف من الكلام أو تكراره أو الزيادة فيه،ظواهر يقف أمامها الدارس خاصة إذا كانت له لغة أصلية غير اللغة العربية ، أو كان اكتسب اللغة العربية دراسة وتعلما ، يقف أمام هذه الظواهر إما للتعلم والتعمق وفهم أسرارها أو يقف أمامها ليلتمس فيها مطعنا لينفس عن حقده وحسده تجاه الاسلام والعرب لأنه يعلم أن القرآن هو كتاب العربية الأول .

وسنرى أن ابن قتيبة يسير على منهج أبى عبيده معمر بن المثنى فيرد أساليب التكرار الموجودة فى القرآن الكريم إلى مذاهب العرب فى كلامها ويتعمق ابن قتيبة فى ظاهرتى تكرار الكلام والزيادة فيه ، ويبين الغرض البلاغى فيقول : من مذاهب العرب التكرار : إرادة التوكيد والإفهام ، كما أن مذهبهم الاختصار : إرادة التخفيف والإيجاز ، لأن افتنان المتكلم

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٦٩ ، ١٧٠

والخطيب فى الفنون ، وخروجه عن شىء إلى شىء أحسن من إقتصاره فى المقام على فن واحد(١) .

فابن قتيبة إذ يجيز التكرار فى البيان العربى بعامة يحدد له المقام والغرض الذى يستدعيه . فكأن الإطناب عنده بعد وقوعه فى مرقعه - التعبير عن المعنى بعبارة زائدة ، بحيث تحقق الزيادة فائدة ، فإن كانت الزيادة فى اللفظ لغير فائدة ، فقد خرج الأسلوب من مراتب البلاغة ولم يكن إطنابا ، بل كان الزائد تطويلا أو حشوا وكلاهما عيب فى الكلام .

وقد زعم الطاعنون ومن لا يعرف اللغة العربية ، ومذاهب العرب فى كلامهم - أن تكرار الأنباء والقصص وبعض المعانى فى القرآن الكريم من هذا القبيل ، وقد رد عليهم ابن قتيبة موضحا لهم: أن تكرار الأنباء والقصص جاء نتيجة لنزول القرآن منجما تيسيرا منه على العباد ، ولئلا تثقل جملة الفرائض على العباد ، والظروف تقتضيها طرق نشر الدعوة الاسلامية(٢) على أنه من المعلوم لدى علماء البلاغة ومن يعرف طرق الكلام أن تكرار الأنباء والقصص فى القرآن الكريم استدعاه المقام وطلبته الحال - وإن كان هذا التكرار لايتناول القصة كلها - غالبا - إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها ، أما جسم القصة كله فلا يكرر إلا نادرا . ولمناسبات خاصة فى السياق(٣) فلا يسمى اسهابا ولا حشوا ولا تطويلا .

ويرى ابن قتيبة أن تكرار المعنى فى الأسلوب القرآنى ، والأدب العربى بعامة يأتى لأغراض بلاغية وهو على نوعين :

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٨٢
(٢) أنظر تأويل مشكل القرآن ص ١٨٠ - ١٨٢
(٣) التصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب ص ١٢٥ . دار المعارف

النوع الأول : تكرار المعنى، والكلام من جنس واحد وبعضه يجزىء عن بعض(١) ويكون لغرض التوكيد وحسم الأطماع كقوله تعالى : (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون)(٢) .

أو يكون الغرض تعدد المتعلق إرادة الإفهام والتقرير ، يقول فى قوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان (٣) فإنه عدد فى هذه السورة نعماءه وأذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرته ولطف بخلقه ، ثم اتبع ذكر كل خلة وصفها بهذه الآية وجعلها فاصلة بين كل نعمتين ليفهمهم النعم ، ويقررهم بها ، وهذا كقولك : للرجل أحسنت إليه دهرك ، وتابعت عنده الأيادى ، وهو فى هذا ينكرك ويكفرك : ألم أبوئك منزلا وأنت طريد ؟ أفتنكر هذا ؟ وألم أحملك وأنت راجل ؟ ألم أحج بك وأنت صرورة ؟ أفتنكر هذا ؟(٤) .

وقد يكون التكرار التوكيد ، ويكون بإعادة اللفظ نفسه ، ولكن بتغيير حرف فيه استيحاشا من إعادته ثانيا ؛ لأنها كلمة واحدة فغيروا منها حرفا ثم أتبعوها الأولى ، كقولهم : عطشان نطشان ، كرهوا : أن يقولوا عطشان عطشان ، فأبدلوا من العين نونا وكذلك قولهم : حسن بسن . وشيطان ليطان(٥) .

النوع الثانى : تكرار المعنى بلفظين مختلفين ويكون لأغراض فيها :

إشباع المعنى والاتساع فى الألفاظ وذلك كقول القائل آمرك بالوفاء وأنهاك عن الغدر ، والأمر بالوفاء هو النهى عن الغدر .

أو لبيان فضل المكرر وحسن موقعه - كقوله سبحانه : (فيها فاكهة

---

(١) تأويل مشكل القرآن صـ ١٨٢ (٢) سورة التكاثر آية ٣ ، ٤

(٣) سورة الرحمن آية ١٣ وهى أول ورودها فى هذه السورة

(٤) تأويل مشكل القرآن صـ ١٨٦ (٥) تأويل مشكل القرآن صـ ١٨٣

ونخل ورمان)(١) والنخيل والرمان من الفاكهة فأفردهما عن الجملة التى أدخلهما فيها لفضلهما وحسن موقعهما(٢) .

وقد يكون الترغيب فى المكرر والتشديد لأمره ، كقوله تعالى :

(حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى)(٣)وهى منها،فأفردها بالذكر ترغيبا فيها وتشديدا لأمرها كما تقول: إتقى كل يوم ويوم الجمعة خاصة(٤).

ويرى ابن قتيبة أن الزيادة تكون للتوكيد يقول : وأما الزيادة للتوكيد فكقوله تعالى :

«يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم(٥) لأن الرجل قد يقول بالمجاز: كلمت فلانا ، وإنما كان ذلك كتابا أو اشارة على لسان غيره ،فأعلمنا أنهم يقولون بألسنتهم(٦) . ثم يتكلم عن الزيادة فى الحروف كزيادة «لا والباء واللام ، وعلى . وعن ،وإن الثقيلة وأن الخفيفة وإذ، وما وواو النسق»(٧)

ويرى أن الزيادة قد تقع فى الألفاظ فضلا عن الحروف فقد يزداد لفظ للوجه مثل مافى قوله تعالى «كل شىء هالك إلا وجهه»(٨) أى إلا هو»(٩)، مخالفا ما أجمع عليه المحققون من تجنب الزائد على بعض الحروف الواردة فى القرآن إذ الزائد لامعنى له ، وكلام الله منزه عن ذلك(١٠) .

---

(١) سورة الرحمن آية ٦٨ (٢) تأويل مشكل القرآن صـ ١٨٦

(٣)سورة البقرة آية ٢٣٨

(٤) تأويل مشكل القرآن صـ١٨٦، ١٨٧

(٥) سورة آل عمران آية ١٦٧

(٦) تأويل مشكل القرآن صـ١٨٧

(٧) تأويل مشكل القرآن صـ ١٨٩ (٨) سورة القصص آية ٨٨

(٩) تأويل مشكل القرآن صـ١٩٧

(١٠) البرهان فى علوم القرآن للزركشى جـ ٢ صـ ١٧٧ ، ١٧٨ .

الكناية والتعريض :

الكناية عند ابن قتيبة أنواع ولها مواضع .

فمنها أن تكنى عن اسم الرجل بالأبوة ، لتزيد فى الدلالة عليه إذا أنت راسلته أو كتبت إليه إذ كانت الأسماء قد تتفق ، أو لتعظمه فى المخاطبة بالكنية ، لأنها تدل على الحنكة وتخبر عن الاكتهال (١) .

وعرفها بالمعنى البلاغى المعروف يقول : وكلام العرب إيماء وإشارة وتشبيه يقولون « فلان طويل النجاد » والنجاد حمائل السيف ، وهو لم يتقلد سيفا قط ، وإنما يريدون : أنه طويل القامة ، فيدلون بطول نجاده على طوله لأن النجاد القصير لا يصلح على الرجل الطويل .

ويقولون : « فلان عظيم الرماد » ولا رماد فى بيته ولا على بابه وإنما يريدون : أنه كثير الضيافة ، فناره وارية أبدا ، وإذا كثر وقود النار كثر الرماد (٢) .

ويجعل من الكناية التعريض والتورية يقول : ومن هذا الباب التعريض والعرب تستعمله فى كلامها كثيرا ، فتبلغ ارادتها بوجه هو ألطف وأحسن من الكشف والتصريح ، ويعيبون الرجل إذا كان يكاشف فى كل شىء ، ويقولون : لا يحسن التعريض إلا ثلبا (٣) .

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٩٩
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ١٦٣ ، ١٦٤ تصحيح محمد زهرى النجار نشر مكتبة الكليات الأزهرية .
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢٠٦ .

باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه .

جمع ابن قتيبة تحت هذا العنوان فنونا من التعبير جاءت على خلاف مقتضى الظاهر ، ووضح الغرض البلاغى منها وأثبت أنها من مذهب العرب فى كلامها .

١ - فجعل منها إستعمال الخبر فى الإنشاء ، ويكون الدعاء على جهة الذم .

كقول الله عز وجل : (قتل الخراصون)(١) ، وقد يراد به التعجب من أصابة الرجل فى منطقه أو فى شعره أو رميه ، فيقال : قاتله الله ما أحسن ماقال ، وأخزاه الله ما أشعره ، ولله دره ما أحسن ما أحتج به (٢) .

٢ - ويعد منه ما عرف عند المتأخرين بالمشاكلة أو المجاز المرسل الذى علاقته السببية ، ويعبر عنه : بالجزاء عن الفعل بمثل لفظه ، والمعنيان مختلفان نحو قول الله تعالى :

(إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم) (٣) ، (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (٤) هى عن المبتدىء سيئة ومن الله عز وجل جزاء (٥) .

٣ - ومنه خروج الاستفهام عن حقيقته فيكون للتقرير ، كقوله سبحانه :

---

(١) سورة الذاريات آية ١٠ .
(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٢١٥ ، ٢١٦ .
(٣) سورة البقرة آية ١٤ ، ١٥ .
(٤) سورة الشورى آية ٤٠ .
(٥) تأويل مشكل القرآن ص ٢١٥ .

(أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله)(١) ، وقد يكون للتعجب ، كقوله تعالى :

(عم يتساءلون عن النبأ العظيم) (٢) كأنه قال :

عم يتساءلون يا محمد ، ثم قال ، عن النبأ العظيم يتساءلون ، وقد يكون للتوبيخ ، كقوله تعالى :

(أتأتون الذكران من العالمين (٣)) .

٤ — ومن مخالفة ظاهر اللفظ معناه عند ابن قتيبة : أن يأتى الكلام على لفظ الأمر وهو تهديد كقوله : (اعملوا ماشئتم)(٤) ، أو يقصد بلفظ الأمر التأديب كقوله تعالى : (واهجروهن فى المضاجع واضربوهن)(٥) ،

وقد يرد من لفظ الأمر الاباحة كقوله تعالى : (فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً (٦)) .

٥ — ومنه عام يراد به خاص كقوله سبحانه حكاية عن النبى صلى الله عليه وسلم :

(وأنا أول المسلمين)(٧) ، ولم يرد كل المسلمين ، لأن الأنبياء قبله كانوا مسلمين ، وإنما أراد مسلمى زمانه .

---

(١) سورة المائدة آية ١١٦ .
(٢) سورة النبأ آية ١ ، ٢ .
(٣) سورة الشعراء آية ١٦٥ .
(٤) سورة فصلت آية ٤٠ :
(٥) سورة النساء آية ٣٤ :
(٦) سورة النور آية ٣٣ (٧) سورة الأنعام آية ١٦٢

٦ — ومنه الجمع يراد به واحد واثنان كقوله سبحانه : (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) (١) . واحد واثنان فما فوق .

٧ — ومنه واحد يراد به جميع كقوله : (هؤلاء ضيفي فلا تفضحون)(٢)

والعرب تقول : فلان كثير الدرهم والدينار ، يريدون الدراهم والدنانير .

٨ — ومن مخالفة ظاهر اللفظ معناه : أن تصف الجميع صفة الواحد نحو قوله تعالى : (والملائكة بعد ذلك ظهير(٣)) ، وتقول: قوم عدل .

٩ — ومنه أن يوصف الواحد بالجمع نحو قولهم : برمة أعشار ، وثوب أسمال ونعل أسباط ، أي غير مطبقة .

١٠ — ويعد منه « الالتفات » يقول : ومنه أن تخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب كقوله تعالى : (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها) .

١١ — ومنه أن يجتمع شيئان ، ولأحدهما فعل فيجعل الفعل لهما — كقوله سبحانه :

(يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم) (٤) ، والرسل من الإنس دون الجن .

---

(١) سورة النور آية ٢ .
(٢) سورة الحجر آية ٦٨ .
(٣) سورة التحريم آية ٤ .
(٤) سورة الأنعام آية ١٣٠ .

١٢ — ومنه أن يجتمع شيئان فتجعل الفعل لأحدهما أو تنسبه لأحدهما وهو لهما كقوله : (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها)(١) .

١٣ — ومنه ان يخاطب الرجل بشيء ثم يجعل الخطاب لغيره ، كقوله تعالى :

(فإن لم يستجيبوا لكم (٢)) الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال للكفار :

(فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا اله إلا هو) . يدلك على ذلك قوله :

(فهل أنتم مسلمون) .

١٤ — ومنه أن تأمر الواحد والاثنين والثلاثة فما فوق أمرك الاثنين، فتقول : افعلا ، قال الله تعالى : (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد).(٣) الخطاب لخزنة جهنم أو زبانيتها .

١٥ — ومنه أنه يخاطب الواحد بلفظ الجميع كقوله سبحانه : (قال رب ارجعون) (٤) ، وأكثر من يخاطب بهذا الملوك ، لأن من مذاهبهم أن يقولوا : نحن فعلنا ، يقول الواحد منهم وهو يعني نفسه، فخوطبوا بمثل ألفاظهم.

١٦ — ومنه أن يتصل الكلام بما قبله حتى يكون كأنه قول واحد ، وهو قولان ، نحو قوله تعالى :

---

(١) سورة الجمعة آية ١١ .
(٢) سورة هود آية ١٤ .
(٣) سورة ق آية ٢٤ .
(٤) سورة المؤمنون آية ٩٩ .

(إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة)(١) - ثم قال : (وكذلك يفعلون) وليس هذا من قولها ، وانقطع الكلام عند قوله (أذلة) ثم قال الله سبحانه وتعالى : (وكذلك يفعلون) .

١٧ - ومن باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، أن يأتى الفعل على بنية الماضى ، وهو دائم أو مستقبل، كقوله:(كنتم خير أمة أخرجت للناس)(٢) أى أنتم خير أمة .

وقوله : (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)(٣) يريد يوم القيامة أى سيأتى قريباً فلا تستعجلوه .

١٨ - ومنه أن يجىء المفعول به على لفظ الفاعل كقوله سبحانه (لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم)(٤) أى لامعصوم من أمره،وقوله: (من ماء دافق)(٥) أى مدفوق ، وقوله:(فى عيشة راضية)(٦) أى مرضى فيها،وقوله : (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا)(٧) ، أى مأمونا فيه،وقوله : (وجعلنا آية النهار مبصرة)(٨) أى مبصرا بها والعرب تقول: ليل نائم وسر كاتم .

---

(١) سورة النمل آية ٣٤
(٢) سورة آل عمران آية ١١٠
(٣) سورة النحل آية ١
(٤) سورة هود آية ٤٣
(٥) سورة الطارق آية ٦
(٦) سورة القارعة آية ٧
(٧) سورة العنكبوت آية ٦٧
(٨) سورة الإسراء آية ١٢

١٩ — ومنه أن يأتى فعيل بمعنى مفعل نحو قـــوله : (بديع السموات والأرض)(١) أى مبدعها .

٢٠ — وفعيل ، يراد به فاعل ، نحو : حفيظ ، وقدير ، وسميع .

٢١ — ومنه أن يأتى الفاعل على لفظ المفعول به، وهو قليل، كقوله :

(إنه كان وعده مأتيا)(٢) ، أى آتياً(٣) .

وبهذا الباب طاف ابن قتيبة على علوم البلاغة الثلاثة فقد أتى فيه بما يدخل فى علم البديع وبما يدخل فى علم البيان والأكثر يدخل فى علم المعانى وعرف ابن قتيبة البلاغة على أنها مطابقة الكلام(٤) لمقتضى الحال ، وعرف الميزة البلاغية وجعلها فى اللفظ والمعنى ، وقسم الشعر على ضوء رأيه إلى أربعة أضرب :

ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه ، كقول القائل فى بعض بنى أمية :

فى كفه خيزران ريحه عبق من كف أروع فى عرنينه شمم

يغضى حياء ويغضى من مهابته فما يكلم إلا حـــين يبتسم

يقول ابن قتيبة : لم يقل فى الهيبة شىء أحسن منه .

---

(١) سورة البقرة آية ١١٧

(٢) سورة مريم آية ٦٢

(٣) تأويل مشكل القران ، باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه ، ص ٢١٣ — ٣٢٩ .

(٤) تأويل مشكل القران ص ١٠ ، ١١ وأدب الكاتب ص ١٣ — ١٦ .

وضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجدهنا فائده فى المعنى كقول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا
ولا ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الحديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح

يقول هذه الألفاظ كما ترى أحسن شىء ،مخارج ومطالع ومقاطع، وأن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان، وعالينا ابلنا الأنضاء، ومضى الناس، لا ينتظر الغادى الرائح ابتدأنا فى الحديث، وسارت المطى فى الأبطح(١).

لكن الشيخ عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ أعجب بهذه الأبيات ورأى(٢) : أنهم وأن أثنوا عليها من جهة الألفاظ ، إلا أنه بالتأمل تجد أن هذا منصرف إلى استعارة وقعت موقعها، وأصابت غرضها وحسن ترتيب تكامل معه البيان ، حتى وصل المعنى إلى القلب ، مع وصول اللفظ إلى السمع ... وتصوير فنى رائع خاصة فى الشطر الأخير : وسالت بأعناق المطى الأباطح .

وضرب منه جاد معناه ، وقصرت ألفاظه عنه ، كقول لبيد بن ربيعة :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

يقول : هذا وإن كان جيد المعنى والسبك ، فإنه قليل الماء والرونق .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة حـ١ ص٦٦،٦٧ بتحقيق الشيخ أحمد شاكر دار المعارف سنة ١٩٦٦

(٢) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ص١٤ - ١٦ تعليق السيد محمد رشيد رضا مطبعة الترقى سنة ١٣١٩ هـ

وضرب[١] منه تأخر معناه وتأخر لفظه كقول الأعشى :

إن محلا وإن مرتحلا وإن فى السفر ما مضى مهلا

التشبيه والتمثيل :

تعرض له ابن قتيبة ، وجعله مختلطا بالاستعارة كما أوضحنا فيما سبق عند الحديث عن الاستعارة عنده .

يقول فى قوله تعالى: (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا)[٢] : أى شبههم بالحمار[٣] .

والمثل عنده : يعنى الشبه ، يقال : هذا مثل الشىء ومثله ، كما يقال شبه الشىء وشبهه ، قال الله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت إتخذت بيتاً)[٤] أى شبه الذين كفروا شبه العنكبوت[٥] .

ويجعل من التشبيه والتمثيل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه ابن عباس :

« الحجر الأسود يمين الله تعالى فى الأرض ، يصافح بها من شاء من خلقه » .

يقول ابن قتيبة : ونحن نقول : أن هذا تمثيل وتشبيه ، وأصله :

---

(١) الشعر والشعراء حـ ١ ص٦٨
(٢) سورة الجمعة آية ٥
(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٣٧٨
(٤) سورة العنكبوت آية ٤١
(٥) تأويل مشكل القرآن ص٣٧٨

أن الملك كان إذا صافح رجلا قبل الرجل يده ، فكأن الحجر لله تعالى بمنزلة اليمين للملك ، تستلم ، وتلثم(١) .

كما ذكر ابن قتيبة ألوانا بلاغية أخرى عدها المتأخرون من البديع «كالتوجيه» ، ولكنه لم يزد فيه عما قال الفراء(٢) .

وتأكيد المدح بما يشبه الذم عرض له ابن قتيبة يقول في قوله تعالى : (وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله)(٣) أى ليس ينقمون شيئاً ، ولا يعرفون من الله إلا الصنع الجميل ، وهذا كقول الشاعر :

ما نقم الناس من أمية إلا أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم سادة الملوك فلا تصلح إلا عليهم العرب

وهذا ليس مما ينقم : وإنما أراد أن الناس لا ينقمون عليهم شيئاً وكقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

أى ليس فيهم عيب(٤) .

وعرف حسن الابتداءات يقول في قول النابغة :

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٢١٥
(٢) تفسير غريب القرآن ص٦٠ بتحقيق السيد صقر
(٣) سوره التوبة آية ٧٤
(٤) تفسير غريب القرآن ص١٩٠
(٥) الشعر والشعراء حـ١ ص٦٦

كليني لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

لم يبتدىء أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب منه[1] .

هذه هي إشارات ابن قتيبة البلاغية ومن قبلها جهود أبي عبيدة والفراء والجاحظ وهي جهود قيمة كان لها الأثر العظيم في بناء صرح البلاغة التعلمية ونسير مع الإشارات البلاغية عند المبرد وأبي العباس ثعلب .

(١) الشعر والشعراء حـ١ ص١٦٦ .

المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ

هو : أبو العباس المبرد ، ألف كتابه : « الكامل فى اللغة والأدب » قال فى مقدمته : هذا كتاب ألفناه يجمع ضروباً من الآداب مابين كلام منثور ، وشعر موصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة ، والنية فية : أن نفسر كل ماوقع فى هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق وأن نشرح مايعرض فيه من الإعراب شرحاً وافياً ، حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفياً ، وعن أن يرجع إلى أحد فى تفسيره مستغنياً[1] » .

هذا هو غرض المبرد من تأليف كتابه ، وواضح أنه يريد أن يسد حاجة المثقفين ويرضى رغباتهم ولذلك أصبح هـــذا الكتاب من كتب الأدب المعدودة .

وقد نثر فيه كثيراً من مسائل البلاغة فذكر الإيجاز والإطناب يقول : « من كلام العرب الاختصار المفهم والإطناب المفخم ، وقد يقع الإيماء إلى الشىء ، فيغنى عند ذوى الألباب عن كشفه كما قيل : لحة دالة[2] . كما يشترط للإيجاز أن يكون مفهوما وذلك بأن يعلمه السامع » .

والزيادة عنده التعظيم يقول فى قول مهلهل بن ربيعة التغلبى :

قتيل ماقتيل المرء عمرو   وهمام بن مرة ذو ضرير

---

(١) الكامل فى اللغة والأدب للمبرد جـ١ ص ٢ نشر المكتبة التجارية الكبرى دار العهد الجديد للطباعة .

(٢) الكامل جـ ١ ص ١٧

ما زائدة ، وفيها معنى التعظيم(١) .

ووقف أمام أسلوب الإلتفات يقـــول(٢) : « والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد ، ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب » ، ومثل له من القرآن الكريم ومن الشعر العربي مثل قول عنترة :

شطت مزار العاشقين فأصبحت
عسيراً على طلابك ابنة مخرم

يقول : فكان يتحدث عنها ثم خاطبها .

كما عرف أسلوب الاستفهام وخروجه إلى التقرير ، والتوبيخ(٣) وتحدث عن التغليب(٤)، وأسلوب التقديم والتأخير(٥) والقلب(٦) بما لا يزيد عن السابقين .

وذكر أمثلة المجاز العقلي(٧) ولم يسمه ، وذكر المجاز(٨) ، ولكن ما زال عنده بمعناه العام :

---

(١) الكامل جـ ١ صـ ٩٦
(٢) الكامل جـ ٢ صـ ٣
(٣) الكامل جـ ١ صـ ١٣٥
(٤) أنظر الفاضـــل للمبرد صـ ٢١ ، ٢٢ تحقيق الميمني دار الكتب سنة ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م
(٥) المقتضب ٦٩ جـ ٢ ، صـ ٧١ تحقيق دحضيمة نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
(٦) الكامل جـ ١ صـ ٢١٧
(٧) الكامل جـ ١ صـ ٧٩
(٨) الكامل جـ ١ صـ ٢٣١ ، جـ ٢ صـ ٣٢٨

أى مذاهب العرب فى كلامها .

وتجد له أمثلة شرحها ، وعلق عليها بما ينطبق على المجاز المرسل فيقول فى قول الراجز يصف غيثا :

أقبل فى المستن من ربابه   أسنمة الآبال من سحابه

أراد أن ذلك السحاب ينبت ما تأكله الإبل ، فتصير شحومها فى أسنمتها .

وقوله جل وعز : « أرانى أعصر خمراً » أى أعصر عنباً فيصير إلى هذه الحال(١) .

وعرف الاستعارة(٢) ولكنه لم يزد فيها شيئاً ، وتحدث عن التشبيه(٣) وكان حديثه عنه مفصلا ، وقسمه إلى أربعة أقسام : تشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد ، ويعتبر أول من قسم التشبيه إلى هذه الأقسام ، ومثل لكل نوع ، وبين دور التشبيه فى التعبير الفنى كما وضح أركانه ، وقال عنه : « والتشبيه جار كثير فى كلام العرب حتى لو قال قائل هو أكثر كلامهم لم يبعد(٤) .

وتحدث عن الكناية(٥) وهى عنده : على ثلاثة أنواع وهى عنده إما للتعمية والتغطية أو للرغبة عن اللفظ الخسيس إلى الجيد أو للتفخيم والتعظيم .

---

(١) الكامل جـ ٢ صـ ٦٨ نشر التجارية ـ مطبعة الاستقامة سنة ١٩٥١م
(٢) الكامل جـ ١ صـ ٥٧
(٣) الكامل جـ ٢ صـ ٨٧ — ١٠١
(٤) الكامل جـ ٢ صـ ٦٩
(٥) الكامل جـ ٢ صـ ٥ ، ٦

وذكر معنى اللف والنشر ، يقول فى قول عبيدالله بن عتبة : « ما أحسن الحسنات فى آثار السيئات وأقبح السيئات فى آثار الحسنات » .

والعرب تلف الخبرين المختلفين ثم ترمى بتفسيرها جملة ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره(١) .

وذكر المبرد للبلاغة تعريفاً قال : «إن حق البلاغة إحاطة القول بالمعنى واختيار الكلام ، وحسن النظم حتى تكون الكلمة مقاربة أختها ، ومعاضدة شكلها ، وأن يقرب بها البعيد ، ويحذف منها الفضول(٢) » .

ويذكر بلاغة الشعراء ، ويوازن بينهم ، ويفضل بعضهم على بعض ويجعل قول الرسول صلى الله عليه وسلم فوق كلامهم ، فإذا ماوصل إلى القرآن الكريم جعله فوق هذا وذاك .

ثم ينظر فى بلاغة القرآن وبلاغة الشعراء ثم يقول : قال أحد الشعراء فى وصف قوم يحملون الشعر ولايفهمونه قولا أجاد فيه ، وتقدم كلام كثير من المخلوقين ، قال :

زوامل للأشعار لاعلم عندهم
بجيدها إلا كعلم الأباعر
لعمرك مايدرى البعيد إذا غدا
بأوساقه أرواح مافى الغرائر

فمن هذا من قول الله تعالى : (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً) ،وقالت الخنساء ترثى أخاها صخراً :

---

(١) الكامل ج ٢ ص ٦٩

(٢) البلاغة للمبرد ص ٥٩ تحقيق رمضان عبد التواب دار العروبة سنة ١٩٦٥ م

ولولا كثرة الباكين حولى
على إخوانهم لقتلت نفسى
ومايكون مثل أخى ولكن
أعزى النفس عنه بالتأسى

وقال الله عز وجل للمشركين : (وان ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون) ، أى ما نزل بكم أجل من أن يقع معه التأسى ونظر بعض إلى بعض .

قال أردشير بن بابك فى عهده : وقد قال الأولون منا : « القتل أقل للقتل » .

يقول : إذا قتل القاتل امتنع غيره من التعرض للقتل ، فهذا أحسن الكلام من كلام مثله ... ولو اعترض معترض ، فقال : من القتل مايهيج القتل ويبعث عليه ، لكان ذاك له ، وإن لم يكن ماقصد له القائل .

فإذا جاء قوله جل وعز : (ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب) جاء مالا إعتراض عليه ، ولامعارضة له ، وقوله : (ياأولى الألباب) خطر ثان فتبارك الله الذى ليس كمثله شىء(١) .

ونختم الحديث عن المبرد برده على الكندى حينما ادعى أن فى اللغة العربية حشوا فقد روى ابن الأنبارى عن الكندى المتفلسف أنه ركب إلى أبى العباس المبرد وقال له : إنى لأجد فى كلام العرب حشواً ، فقال له أبو العباس ، فى أى موضع وجدت ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون : عبدالله قائم ، ثم يقولون : إن عبدالله قائم ، ثم يقولون : إن عبدالله لقائم ، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد ، فقال المبرد :

---

(١) البلاغة للمبرد ص ٦٦ ، ٦٧

بل المعانى مختلفة ، لاختلاف الألفاظ ، فقولهم : عبدالله قائم . إخبار عن قيامه ، وقولهم : إن عبدالله قائم . جواب عن سؤال سائل ، وقولهم : إن عبدالله لقائم . جواب عن إنكار منكر قيامه ، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعانى(١) ، وبهذه المحاورة القيمة كشف المبرد لنا عما عرف المتأخرين « بأضرب الخبر » .

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٠٦ تحقيق المراغى - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨

ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ

هو أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب فقد ألف فى الشعر كتابه «قواعد الشعر» تحدث فيه عن الشعر وأركانه وفنونه وأقسامه ونثر فيه بعض المسائل البلاغية كالتشبيه(١). وذكر الافراط والغلو فى المعنى(٢)، ولطافة المعنى وهى عنده: الدلالة بالتعريض على التصريح، ومن لطف المعنى أيضاً كل مايدل على الإيماء الذى يقوم مقام التصريح لمن يحسن فهمه واستنباطه(٣).

ثم ذكر الاستعارة وعرفها بقوله: «وهو أن يستعار للشىء اسم غيره أو معنى سواه(٤)» وقد مثل لها بأمثلة من عيون الشعر العربى كقول امرىء القيس فى وصف الليل:

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

قال: لأن الليل لاصلب له، وهذا يعد إشارة لقرينة الاستعارة.

وتكلم عن حسن الخروج(٥) ومجاورة الأضداد(٦)، ويعرفه بقوله:

---

(١) أنظر قواعد الشعر لثعلب ص ٣٠، ٣١ بتحقيق خفاجى - الطبعة الأولى سنة ١٩٤٨ م

(٢) قواعد الشعر ص ٣٩، ٤٠

(٣) قواعد الشعر ص ٤٣ — ٤٦

(٤) قواعد الشعر ص ٤٧ — ٥٠

(٥) قواعد الشعر ص ٥٠ — ٥٣

(٦) قواعد الشعر ص ٥٣

وهو ذكر الشيء مع مايعدم وجوده ، ويمثل له بقوله تعالى : (لايموت فيها ولايحيا) وواضح من هذا المثال أنه يريد به الطباق .

ويذكر المطابق(١) ويعرفه بقوله : وهو تكرير اللفظة بمعنيين مختلفين وهذا التعريف منطبق على التجنيس ثم تحدث عن اتساق النظم(٢) .

وهو عنده : ماطاب قريضه ، وسلم من السناد ، والإقواء ، والإكفاء ، والإجازة ، والإبطاء ، وغير ذلك من عيوب الشعر .

وتكلم عن أبلغ الشعر ، وكشف عن مذهبه فى البيان باختياره مذهب التوسط(٣) .

وبالحديث عن ثعلب ننتهى من مرحلة الإشارات البلاغية المبثوثة بين تضاعيف الكتب وكانت سمة هذه المرحلة تفسير الغامض من الأساليب البيانية وأحياناً الوقوف عند محاسن البيان وقوفاً عاماً أساسه الإحساس ـ الذوقى وليس وقوفاً تحليلياً أو بياناً لعناصر الجمال فى الأدب العربى . وعلى أية حال كانت أعمـــال أبى عبيدة والفراء والجاحظ وابن قتيبة وثعلب والمبرد ، وماحدث فى محيط الأدب وانسياق الشعراء فى طريق البديع وخروجهم عما رسمه الأقدمون .

كل هذه العوامل دفعت ابن المعتز أن يخرج للدارسين ولأبناء العربية كتابه « البديع » كتاباً خالصاً للبلاغة العربية يسير على منهج ويقود مذهباً فى البديع أثمر ثمرته التى نعتز بها إلى يومنا هذا أثمر حركة النقد المنظم عند العرب فى القرن الرابع الهجرى وبلوغها درجة سامية والتى سنحدثك عنها بعد حين .

---

(١) قواعد الشعر ص ٥٦ — (٢) قواعد الشعر ص ٥٩

(٣) قواعد الشعر ص ٦٣

الفصل الثالث

مرحلة الكتب المنهجية

وازدهار المحسنات البديعية

— ١ —

ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ

اتجهت عناية علماء المسلمين إلى جمع اللغة والشعر العربي القديم، وانصرفت همتهم إلى استقائه من منابعه الصحيحة بمراجعة محفوظاتهم منه، وبالسماع من أفواه الأعراب الذين لم تتأثر ألسنتهم ولا ملكاتهم بتيار العجمة.

ولقد أفاد العلماء بهذا الشعر، فالنحويون واللغويون وضعوا على ضوئه القواعد التي تعصم الذهن واللسان عن الخطأ، والمفسرون والمتكلمون استخدموه في شرح غريب القرآن وبيان معانيه.

وقد وضعوا لأنفسهم مبدأ لايحيدون عنه في عملهم، وهو استشهادهم بما قاله الأقدمون قبل أن تضعف الملكات وتفسد الألسنة.

فالشعر القديم هو — فقط — موضع ثقتهم في مثل مهمتهم الشاقة التي قاموا بها.

وبمقتضى هذا المبدأ استشهدوا بأشعار الجاهليين والمخضرمين، ثم اختلفوا في الإسلاميين كجرير والفرزدق، فانحاز بعضهم عن الاحتجاج بشعرهم واعتبروهم مولدين، وقد كان ذلك مبدأ الخصومة بين العلماء والشعراء

ولم يكتف العلماء بقصر شاهدهم على أشعار القدماء ـ وفى هذا تفضيل للشعر القديم من غير شك ـ بل غالوا فى شغفهم به ، وحبهم له ، وجعلوه الشعر الذى يجب أن يحتذى ، وأن يتمرس به ، وما بعده من الشعر لا يعتبر شيئاً ، ولذلك أقاموا الموازنة بين الشعراء على فكرة الزمن بدلا من الشعر ذاته وظهر فى المحيط الأدبى طائفتان : طائفة أنصار القديم والقدماء ، وطائفة أنصار الجديد والمحدثين .

يقول(١) ابن رشيق : كل قديم من الشعراء فهو محدث فى زمانه بالإضافة إلى من كان قبله ، وكان عمرو بن العلاء يقول : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته ، يعنى بذلك شعر جرير والفرزدق ، فجعله مولداً بالإضافة إلى شعراء الجاهلية والمخضرمين وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين .

قال الأصمعى : جلست إليه ثمانى حجج فما سمعته يحتج ببيت إسلامى وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا إليه ، وما كان من قبيح فهو من عندهم ، ليس النمط واحدا ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح ، وقطعة نطع ، هذا مذهب أبى عمرو وأصحابه كالأصمعى وابن الأعرابى ـ أعنى أن كل واحد منهم يذهب فى أهل عصره هذا المذهب ، ويقدم من قبلهم ـ وليس ذلك الشىء إلا لحاجتهم فى الشعر إلى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ثم صارت لجاجة .

وقد وازن ابن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣٢هـ بين الشعراء على أساس فكرة الزمن وذلك فى كتابه طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين ، وقد حاول ابن قتيبة أن يوفق بين أنصار القدماء ، وأنصار المحدثين فقرر

---

(١) العمدة فى محاسن الشعر ، وآدابه ، ونقده ، لابن رشيق جـ ١ صـ ٩، ١١ بتحقيق محى الدين الطبعة الثانية نشر المكتبة التجارية مطبعة السعادة .

أن البيان والبلاغة فضل يؤتيه الله من يشاء من عباده فى أى عصر شاء سبق الزمان أو تأخر قال : ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حظه ، ووفرت عليه حقه ، فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه فى متخيره ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، أو أنه رأى قائله .

ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك - مشتركا - مقسوما بين عباده فى كل دهر . وجعل كل قديم حديثاً فى عصره ، وكل شرف خارجية فى أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول :

لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته .

ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم ، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا ، كالخريمى والعتابى والحسن بن هانىء وأشباههم فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ، ذكرناه له ، وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله ، ولا حداثة سنه ، كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف ، لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه(١) .

لم تفلح هذه الدعوة فى التوفيق بين أنصار القديم ، وأنصار الحديث

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ ١ ص ٦٢، ٦٣

وتمادى اللغويون والنحويون فى تعصبهم ، وظلوا على موقفهم تجاه شعر المحدثين .

ومن البديهى أن يحدث هذا الموقف رد فعل فى نفوس الشعراء المحدثين فهاجموا الشعر القديم وبالأخص ديباجته ، يذكر ابن رشيق أن أول من فتح باب الهجوم على ديباجة القصيدة العربية القديمة هو أبو نواس ، إذ يقول :

لاتبك ليلى ، ولا تطرب لهنـــد
واشرب على الورد من حمراء كالورد

ويروى ابن رشيق أيضا : أن أبا نواس لما سجنه الخليفة على اشتهاره بالخمر ، وأخذ عليه ألايذكرها فى شعره قال :

أعر شعرك الأطلال والمنزل القفرا
فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعانى إلى نعت الطلول مسلط تضيق ذراعى أن أرد له أمراً
فسمعا أمير المؤمنــــين وطاعة
وإن كنت قد جشمتنى مركبا وعرا

فجاهر بأن وصفه الأطلال والقفر إنما هو من خشية الإمام ، وإلافهو عنده فراغ وجهل(١) .

فأبو نواس إذ يهاجم ديباجة القصيدة القديمة ، ويدعو إلى استبدالها بأخرى انما يريد أن يجدد فى نظام القصيدة العربية ، وأن يلفت نظر العلماء إليه ؛ ولكن هذه الدعوة لم يكتب لها الذيوع والإنتشار . لأنها لم تزد أن جعلت القصيدة العربية ديباجتين .

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ ١ صـ ٢٣١ ، ٢٣٢

كما أن أبا نواس لم يساير مذهبه إلى النهاية ؛ فكان يعود إلى الديباجة القديمة خشية السلطان أو ترضية له ضمانا لنواله كما يؤخذ من حديث ابن رشيق السابق .

لكن أبا نواس وبشار بن برد ومن لف لفهما أصروا على إحداث شيء في الشعر العربي، فاتجهوا مرة أخرى إلى قلب القصيدة القديمة، ودققوا النظر فيها ، فوجدوا أن العبارات الجزلة القوية قد استأثر بها القدماء ، والمعاني في المديح والهجاء والرثاء قد قد طرقها الأقدمون منذ ثلاثة قرون أو يزيد فالمجال ضيق عليهم والأبواب مغلقة في وجوههم ، وأينما اتجهوا وجدوا القدماء ، قد عبدوا القول ، وذللوه ، وأتوا على كل مافيه فاعتقدوا أو اعتقد الكثير منهم ، أن المعاني نضبت ، وأن لاملكية فيها ولا فضل(١) .

وفي النهاية عثروا على تعبيرات وصور ، وردت في القرآن الكريم وجاء بها الجاهليون والإسلاميون عفوا ومن غير قصد ، وأحسوا لها رونقاً وبهاء ، وأنها تزيد الكلام حسناً وجمالا ، فأخذوها ، وأدخلوها في أشعارهم ، وتفننوا فيها ، وجاء الرواة(٢) وسموا هذا النوع (البديع) وكلما تقدم بهم الزمن وجاء منهم طبقة تفننت في هذه التعبيرات ، والصور وأضافت هذا التفنن تحت اسم البديع ، وسموه تجديدا .

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري للأستاذ طه أحمد ابراهيم ، ص ٩٨ — دار الحكمة بيروت .

(٢) البيان ج ٤ ص ٥٥

هذا التجديد أحدث فى الشعر العربى مذهبين : مذهب القدماء أو أصحاب عمود الشعر أو أنصار القديم ، ومذهب المحدثين أو أصحاب البديع أو مذهب البديع ، ويقولون : إن زعيم(١) مذهب البديع هو بشار بن برد ومن رجال هذا المذهب ابن هرمة ، والعتابى ، والنمرى ، وأبو نواس ، ومسلم بن الوليد وأبو تمام والبحترى وابن المعتز ، ولكنهم يختلفون فى « البديع » من حيث الإقلال ، والإكثار ، والتسهيل والتوعير .

فبشار بن برد ومن سار على نهجه كابن هرمة والعتابى ومنصور النمرى وأبى نواس يتسمون بالإكثار من ألوان البديع بالنسبة إلى القدماء وبالسهولة وسلامة السليقة بالنسبة إلى متكلفى «البديع» من المحدثين ، وعلى أية حال كان بديع هؤلاء وسطا بين القديم والحديث — ثم جاء مسلم بن الوليد الذى يعتبر أول من — بالغ فى الإكثار من البديع حتى أنكر عليه بعض العلماء هذا الصنيع ، ورموه بالتكلف ، وعدوا إسرافه فى الاحتفال بالبديع إفسادا للشعر لما فيه من التكلف ومخالفة مذاهب العرب .

ووصل البديع إلى أبى تمام فتأنق فيه ، وأكثر من الزخرف والتنسيق والتكلف ، والتعقيد والمزج بألوان الثقافات الواسعة والخوض فى بحار الفلسفة .

وجاء البحترى وابن المعتز اللذان رجعا بالأسلوب البديعى إلى الطريقة التى سلكها مسلم بن الوليد ، لكن فى رفق ولين ، وقصد واعتدال وعدم الغوص وراء المعانى البعيدة ، والجرى وراء الألفاظ الغريبة(٢) ولقد كان

---

(١) البيان جـ ١ ص ٥٠ ، ٥١ .

(٢) الصبغ البديعى فى اللغة العربية للدكتور أحمد موسى ص ٦٢ — ١١٦ — نشر دار الكاتب العربى سنة ١٣٨٨ هـ/١٩٦٩ م .

لوصول مذهب البديع إلى هذه الحالة على يد أبي تمام أثر سيء في نفوس اللغويين والنحويين وبعض الأدباء .

إذ أعتبر هذا إفساداً للغة والشعر ، فقد حكى أن ابن الأعرابي قال :

وقد أنشد شعرا لأبي تمام: إن كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل(١).
وسمع أعرابي قصيدة أبي تمام :

طال الجميع لقد عفوت حميدا وكفى على رزئي بذاك شهيدا

فقال : إن في هـــذه القصيدة أشياء أفهمها ، وأشياء لا أفهمها ، فإما أن يكون قائلها أشعر من جميع الناس ، وإما أن يكون جميع الناس أشعر منه(٢) .

وكان من الطبيعي أن يثور اللغويون والنحويون فهم حماة اللغة والأوصياء عليها لقد هبوا في مبدأ القرن الثاني ، ووضعوا العلوم لحمايتها وبذلوا جهودا مضنية لتنقيتها ، وحاولوا أن يفرضوا قواعدهم النحوية على الشعراء والأدباء فخطئوا كثيرا من الشعراء واشتدت بينهم الخصومة بسبب ذلك .

فعبد الله من أبي إسحاق الحضرمي الذي يقول عنه ابن سلام : إنه أول من بعج النحو ومد القياس والعلل كان يكثر الرد على الفرزدق ، فقال فيه الفرزدق مخالفا للقياس إمعانا في إيجاعه ،

---

(١) أخبار أبي تمام للصولي ص ٢٤٤ ، نشر وتحقيق عساكر وآخرين لجنة التأليف والنشر سنة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧ م ، الموازنة للآمدي ص ٢١ بتحقيق محي الدين .
(٢) أخبار أبي تمام ص ٢٤٥ والصناعتين ص ١١ .

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

رد الياء إلى الأصل وهو مولى آل الحضرمى ، وهم حلفاء بنى عبد شمس ابن عبد مناف والحليف عند العرب مولى(١) .

فليختصموا مرة أخرى مع شعراء البديع ، وليفرضوا وصايتهم ، وليقننوا لهم القواعد التى يسيرون عليها فى نظام الشعر أو التى ينبغى أن يسيروا عليها .

وفعلا قام اللغويون بهذه المهمة فألف أبو العباس المبرد كتابه « قواعد الشعر » ذكره ابن النديم ، والقفطى ولكنه لم يصل إلينا ، وألف أبو العباس ثعلب كتابه « قواعد الشعر » والذى أتاك نبأه قبل حين .

ولكن لم تلق جهود النحويين واللغويين قبولا لدى الشعراء وأنصارهم ، واعتبروهم غرباء عن هذا الفن فقد روى ابن رشيق وغيره : أن الحسن بن عبد الله أخبره بعض الكتاب عن على بن العباس قال :

حضرت مع البحترى مجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وقد سأل البحترى عن أبى نواس ، ومسلم بن الوليد أيهما أشعر ؟ فقال البحترى : أبو نواس أشعر ، فقال عبد الله :

إن أبا العباس ثعلبا لا يطابقك على قولك ، ويفضل مسلما ، فقال البحترى :

ليس هذا من عمل ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله ، إنما يعلم ذلك من وقع فى سلك الشعر إلى مضايقه ، وانتهى إلى ضروراته ، فقال عبيد الله : ورِيَتْ بك زنادى يا أبا عبادة ، وقد وافق حكمك حكم

---

(١) طبقات الشعراء الجاهلين والاسلاميين لابن سلام ص ١٣ .

أخيك بشار بن برد ، فى جرير والفرزدق أيهما أشعر ؟ . فقال : جرير أشعرهما . فقيل له بماذا ؟

فقال : لأن جريرا يشتد إذا شاء ، وليس كذلك الفرزدق لأنه يشتد أبدا . فقيل له : فإن يونس وأبا عبيدة يفضلان الفرزدق على جرير . فقال : ليس هذا من عمل أولئك القوم ، إنما يعرف الشعر من يضطر إلى أن يقول مثله(١) .

لم يفلح اللغويون والنحويون أن يوجهوا الشعراء ويقننوا لهم ، ولم يخضع لهم شعراء البديع .

وتمادى بعض الشعراء فى غيه ، وادعى أن البديع طارىء على اللغة العربية وأنهم المخترعون له ، وهذا الإدعاء له خطره خاصة بعد مقالة الجاحظ : « والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان » . فإذا كان شعراء القرن الثالث وما بعده هم الذين اخترعوا « البديع » فمعنى ذلك أن شعر المحدثين أقوى وأحسن من شعر القدماء وهذا قول له خطره ولم يسلم به أحد حتى الآن .

والأستاذ البهبيتى فى كتابه « تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى » عرض الخصائص الكبرى للفن الجاهلى ؛ وقرر أنها خصائص فن مركب معقد، تام بالغ منزلة من النضج لم يكد يبلغها فى ميزان الشاعرية الصحيحة شعر عمر جاء بعده فى العربية .

ثم يصف الشعر الجاهلى بأنه قد تناول كل موضوع يمكن أن يمر بخاطر

---

(١) أنظر العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ١٠٤ وإعجاز القرآن للباقلانى ص ١٤٧ ، ١٤٨ تحقيق خفاجى .

شاعر ، ويحرك نفسه ، ويثير خواطره ، وفى رأيه أن الشعر الجاهلى فرض نفسه على عمود الشعر العربى ، والشعراء جميعهم عالة عليه ، ومن أجل ذلك عقد مقارنة بين امرىء القيس و بشار بن برد ، أبرز فيها تفوق امرىء القيس على بشار(١) .

هذا بالنسبة للشعر القديم . أما بالنسبة للقرآن الكريم كتاب العربية الأول فقد سجد لفصاحته أساطين اللغة ، فكان لايصلح للرد على شعراء البديع إلا رجل منهم عالم باللغة وآدابها .

لذلك قام الخليفة العباسى عبدالله بن المعتز بن المتوكل المتوفى سنة ٢٩٦هـ - أحد الشعراء العلماء ومن رجال البديع، أخذ الأدب عن أبى العباس المبرد وأبى العباس ثعلب وغيرهما(٢) - فألف كتاب البديع سنة أربع وسبعين ومائتين(٣) وغرضه منه، تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع(٤) وأن ما أتوا به وأكثروا فيه مما يسمى بديعاً موجود فى القرآن الكريم والحديث النبوى وشعر الجاهليين والإسلاميين ، « ليعلم أن بشاراً ومسلماً وأبا نواس، ومن تقيلهم (أشبههم) وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه ثم إن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به، حتى غلب عليه ، وتفرع فيه ،وأكثر منه فأحسن فى بعض

---

(١) تاريخ الشعر العربى للبهبيتى صـ ٥١ ، ١٠٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، طبعة دار الكتب سنة ١٩٥٠ م

(٢) ابن خلكان جـ٢ صـ٢٦٣ تحقيق محى الدين الطبعة الأولى سنة ٧ ١٣هـ/ ١٩٤٧ م - نشر مكتبة النهضة .

(٣) كتاب البديع لعبد الله بن المعتز صـ٥٨ نشر كراتشقوفسكى ليفينغراد

(٤) كتاب البديع صـ ٣

ذلك وأساء في بعض ، وتلك عقبى الإفراط ، وثمرة الإسراف(١) » .
ثم يذكر طريقة القدماء وهي المثلى في نظره « وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة وربما قرأت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ويزداد حظوة بين الكلام المرسل(٢) » .

وقسم ابن المعتز كتابه قسمين :

القسم الأول خمسة أنواع أطلق عليها اسم البديع وهي :

الاستعارة(٣) ، أول أنواع البديع وقد بدأ بها الكتاب وعرفها بقوله : « هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها » ، وهو تعريف مازال يشبه تعريف الجاحظ الذي عرفها بقوله : « تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه » ، ولم ينتفع بتعريف ابن قتيبة الذي وضح الصلة بين الكلمة الحقيقة والكلمة المجازية .

وقد مثل لها من القرآن الكريم بمثل قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبا(٤)) .

ومن الحديث النبوي قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما سمع هيعة طار إليها » .

ومن كلام الصحابة : بمثل قول علي ـ رضي الله عنه ـ في كتابه إلى ابن عباس وهو عامله على البصرة في بعض كلامه : « أرغب راغبهم ، وأحلل عقد الخوف عنهم » ، ومن الشعر القديم قول امرىء القيس :

(١ ، ٢) كتاب البديع ص ١
(٣) كتاب البديع ص ٢ - ٢٤
(٤) سورة مريم آية ٤

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهمـــوم ليبتلى
فقلت له لمـــا تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

ويعلق على هذا البيت بما يعد كشفا لقرينة الاستعارة يقول : هذا كله من الاستعارة، لأن الليل لا صلب له ولا عجز .

ويقول النابغة :

وصدر أراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ويعلق عليه بكشفه عن المستعار والمستعار منه يقول: أراح الليل عازب همه، هذا مستعار من اراحة الابل إلى مباءتها ، أى موضع تأوى إليه .

ومن كلام المحدثين وأشعارهم بمثل قول مالك بن دينار : « القلب إذا لم يكن فيه فكرة خرب » .

ويمثل قول أشجع :

تعض بأنيـــاب المنايا سيوفه وتشرب من أخلاف كل وريد

وبعد أن ذكر أمثلة كثيرة للاستعارة المستحسنة ختم الباب بذكر المعيب منها ليجتنب مثل قول الطائى :

فضربت الشتاء فى أخدعيه ضربة غادرته عوداً ركوباً

هذا والأمثـــلة التى ذكرها ابن المعتز للاستعارة المستحسنة تشمل التصريحية والمكنية .

والنوع الثانى من البديع : «التجنيس»(١) وقد عرفه بقوله :

---

(١) كتاب البديع ص ٢٥ - ٣٦

هو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى فى بيت شعر أو كلام ومجانستها لها أن تشبهها فى تأليف حروفها على السبيل الذى ألف الأصمعى كتاب الأجناس عليها .

وقال الخليل : الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض والنحو . فمنه: ماتكون الكلمة تجانس أخرى فى تأليف حروفها ومعناها، ويشتق منها قول الشاعر :

يوم خلجت على الخليج نفوسهم(١)

أو يكون تجانسها فى تأليف الحروف دون المعنى مثل قول الله تعالى : (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)(٢) .

ومثل قول الرسول ﷺ (الظلم ظلمات) ثم يسير على منهجه الذى رسمه لنفسه ، فيمثل له من كلام القدماء والمحدثين ثم يذكر فى النهاية أمثلة المعيب منه ، وإن كان يطلقه على ما إتحد فى المعنى أو اختلف من غير تفرقة بينهما .

والنوع الثالث من البديع : « المطابقة(٣) » ، ينقل لها تعريف الخليل ـ رحمه الله وهو : يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد ، وكذلك قال أبو سعيد . ثم قال : فالقائل لصاحبه «أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع فأدخلتنا فى ضيق الضمان» قد طابق بين السعة والضيق فى هذا الخطاب .

---

(١) خلج يخلج من باب ضرب يضرب : طعنت

(٢) سورة النمل آية ٤٤

(٣) كتاب البديع ص٣٦-٤٧

وقال الله تعالى : (ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب(١) ويسير على منهجه السابق فيمثل له من كلام الله ومن كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ومن كلام القدماء والمحدثين ثم يذكر أمثلة للمعيب منه ليجتنب .

والنوع الرابع من البديع : « رد أعجاز الكلام(٢) على ما تقدمها » ، قسمة إلى ثلاثة أقسام :

١ — مايوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة فى نصفه الأول .

مثل قول الشاعر :

تلقى إذا ما الأمر كان عرموما   فى جيش رأى لا يفل عرموم

٢ — مايوافق آخر كلمة منه أول كلمة فى نصفه الأول كقوله :

سريع إلى ابن العم يشتم عرضه   وليس إلى داعى الندى بسريع

٣ — ومنه مايوافق آخر كلمة فيه بعض مافيه كقول الشاعر :

عميد بنى سليم أقصدته   سهام الموت وهى له سهام

ومثل من القرآن الكريم بقول الله تعالى:(أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا)(٣) .

ويسير على منهجه الذى رسمه من حيث التمثيل ، ولعل ابن المعتز هو أول من تعرض لهذا النوع فيما نعلم .

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٩

(٢) كتاب البديع ص٤٧ - ٥٣

(٣) سورة الاسراء آية ٢١

والنوع الخامس من البديع : « المذهب الكلامى(١) » ، نقل ابن المعتز تسمية هذا النوع من الجاحظ وقال :

وهذا باب ما أعلم أنى وجدت فى القرآن منه شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

ويمثل له بقول أبى الدرداء : إن أخوف ما أخاف عليكم أن يقال : علمت فماذا عملت ، ويقول الفرزدق :

لكل امرىء نفسان نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى إذا قل من أحرارهن شفيعها

وواضح من تمثيله له أنه غير المذهب الكلامى المعروف لدى المتأخرين والذين يعرفونه بقولهم :

أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريقة أهل الكلام(٢) ويمثلون له بقول الله تعالى :(ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (٣) .

أما القسم الثانى من الكتاب ويسميه : « محاسن الكلام والشعر » ذكر منها ابن المعتز ثلاثة عشر لونا :

ذكر الالتفات(٤) ، وعرفه بقوله:هو إنصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الاخبار وعن الاخبار إلى المخاطبة ومايشبه ذلك،ويمثل له بقول الله تعالى: (حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة)،وهذا ماعرف بالالتفات فى

---

(١) كتاب البديع ص٥٣-٥٧
(٢) الإيضاح ضمن شروح التلخيص ج ٤ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ طبع الحلبى .
(٣) سورة الأنبياء آية ٢٢
(٤) كتاب البديع ص ٥٨، ٥٩

عرف المتأخرين، وقد أشار إليه أبو عبيدة والفراء والمبرد من قبل .

وقد ذكر ابن المعتز نوعا آخر الالتفات يقول عنه : ومن الالتفات ، الإنصراف من معنى يكون فيه إلى معنى آخر، ويمثل بقول جرير :

متى كان الخيام بذى طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام
أتنسى يوم تصقل عارضيها بعـــود بشامة سقى البشام

ويقول ابن رشيق : وحكى عن اسحاق الموصلى أنه قال: قال لى الأصمعى: أتعرف إلتفات جرير ؟ قلت: وما هو؟ فأنشدنى :

أتنسى إذ تودعنا سليمى بعود بشامة سقى البشام

ثم قال: أما تراه مقبلا على شعره ، إذا التفت إلى البشام فدعا له(١) .

ويسميه المتأخرون « الاعتراض » فواضح أن الأصمعى سبق إلى هذا النوع وإلى تسميته. فأخذ ابن المعتز هذه التسمية، ونوعها إلى النوعين السابقين.

ومن محاسن الكلام أيضا والشعر، اعتراض(٢) كلام فى كلام لم يتم معناه ثم يعود إليه فيتممه فى بيت واحد ، ويمثل له ابن المعتز بقول كثير :

لو أن الباخلين - وأنت منهم - رأوك تعلموا منك المطالا

وهو عند المتأخرين من صور الأطناب .

وذكر الرجوع(٣)، وعرفه بقوله : وهو أن يقول شيئاً ويرجع عنه كقول بشار :

نبئت فاضح أمــه يغتابنى عند الأمير وهل عليه أمير

وقد سبقه إلى هذا أبو عبيدة كما أسلفنا .

---

(١) العمدة ج ٢ ص ٤٦

(٢) كتاب البديع ص ٥٩ ، ٦٠

(٣) المرجع السابق ص ٦٠

ومن محاسن الكلام والشعر عنده ، حسن الخروج(١) من معنى إلى معنى ، ومن أمثلته التي ساقها قول بعضهم :

إذا ما تقى الله الفتى وأطاعه
فليس به بأس وإن كان من جرم

ويسميه المتأخرون الاستطراد .

ومن محاسن الكلام ، تأكيد مدح(٢) بما يشبه الذم ، كقول الذبياني :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وبقول الجعدي :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

وعرض لتجاهل(٣) العارف ، ومثل له بقول زهير :

وما أدري وسوف إخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وجعل من محاسن الكلام ، هزل(٤) يراد به الجد ، كقول أبي نواس :

اذا ما تميمي أتاك مفاخرا
فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب

ومن محاسن الكلام ، حسن التضمين(٥) ، ومن أمثلته له قول الأخطل :

---

(١) كتاب البديع صـ ٦٠ ، ٦١
(٢) المرجع السابق صـ ٦٢
(٣) المرجع السابق صـ ٦٢ ، ٦٢
(٤) المرجع السابق صـ ٦٣
(٥) المرجع السابق صـ ٦٤

ولقد سما للخرمى فلم يقل
بعد الوغى لكن تضايق مقدمى

والبيت تضمين لبيت عنترة :

إذا يتقون بى الأسنة لم أخم عنها ولكنى تضايق مقدمى

وقد ذكره الجاحظ كما وضحنا فيما سبق ولكن ابن المعتزله التسمية والتمثيل من الشعر .

وذكر التعريض(١) والكناية، وهى من المصطلحات البلاغية التى ظهرت مبكراً فقد رأيناها عند كل من تعرضنا لهم حتى الآن ، فليس لابن المعتز فيهما من فضل إلا الأمثلة التى ساقها لهما والذى يبدوا منها أنهما كلمتان مترادفتان على معنى واحد .

ومن محاسن الكلام والشعر عند ابن المعتز ، الافراط فى(٢) الصفة ، ومن أمثلته التى ساقها قول أبى نواس :

ملك أغر إذا احتبى بنجاده
غمـــر الجماجم والسماط قيام

وذكر حسن(٣) التشبيه ، ولم يزد فيه على من سبقه ، ولم يتعرض لبيان أركانه ، ولا وجه الشبه ، ولكن نبه على أحسنه ، يقول : ومن عجائب التشبيه قول عدى بن الرقاع :

---

(١) كتاب البديع ص ٦٤ ، ٦٥
(٢) المرجع السابق ص ٦٥ ، ٦٨
(٣) المرجع السابق ص ٦٨ ، ٧٤

تزجى أغن كأن إبرة روقه　　قلم أصاب من الدواة مدادها

ويجعل ابن المعتز من محاسن الكلام والشعر ، إعنات(١) الشاعر نفسه في القوافي ، وتكلفه من ذلك ما ليس له ، وساق له أمثلة كلها تنطبق على لزوم مالا يلزم ، والتي منها قول الشاعر :

يقولون في البستان للعين لذة　　وفي الخمر والماء الذي غير آسن

فإن شئت أن تلقى المحاسن كلها
　　في وجه من تهوى جميع المحاسن

وذكر حسن الابتداء(٢)،ومثل له بقول النابغة :

كليني لهم يا أمية ناصب　　وليل أقاسيه بطىء الكواكب

هذه هى الألوان التي ذكرها ابن المعتز في كتابه « البديع » وهو عمل كان له أثره البعيد المدى في حركة النقد التي نشطت في القرن الرابع الهجرى سواء من ناحية الحكم على الكلام الفنى أو من ناحية زيادة المقاييس البلاغية وازدهارها .

والكتاب العربى في مادته وشواهده مستمدة من شواهد السابقين وأكثر الألوان التي ذكرها موجودة عند السابقين ، ولكن يجب أن ننبه بأن عمل أبى عبيدة كان تفسيرا لأساليب البيان ، وكذلك الفراء والمبرد وكانت الاشارات البلاغية مبثوثة في تضاعيف كتبهم والجاحظ وابن قتيبة كان عملهما يتجه أولا إلى بيان أن الأساليب البيانية من مذاهب العرب في كلامها وأنها ضرورة لغوية .

---

(١) كتاب البديع ص ٧٤ ، ٧٥
(٢) المرجع السابق ص ٧٥ ، ٧٦

وثانياً : كان أيضاً إبرازاً لمحاسن الكلام ، كوقوف الجاحظ أمام الازدواج وأمام أسلوب التضمين وكذلك ابن قتيبة ، حينما قسم الشعر العربى إلى الأقسام التى وضحناها فيما سبق .

وكتاب البديع امتاز بأنه خاص فى فنون البديع من أوله إلى آخره .
وامتاز أيضاً بأنه بحث فى محاسن الكلام وعيوبه .

فالقضية أن شعر البديع امتاز على غيره وابن المعتز يعترف بأن البديع من مميزات الكلام فعرضه بالطريقة التى يراها ويدلل على أن هذا الجمال أو البديع موجود فى القرآن الكريم وفى الحديث النبوى الشريف وكذلك فى شعر الأقدمين والمحدثين كون كتاب البديع خالصاً لفنون البديع يجعل ابن المعتز على صواب حينما قال : « وما جمع فنون البديع ولا سبقنى إليه أحد » فهو أول من جمعها ووضعها فى كتاب مستقل .

وهو أول من ألف فى البديع بحثاً خالصاً فى محاسن الكلام وعيوبه .
لذلك لم يخطىء المتقدمون ومن تابعهم من المتأخرين حين عدوه أول من ألف فى البديع .

وأما تقسيم الكتاب إلى البديع وهو الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى ، وإلى محسنات الكلام وهى ثلاثة عشر محسنا عددها فى كتابه منها :

الالتفات والتشبيه ولزوم مالا يلزم ، والكناية والتعريض وغيرها .

ولعل السر فى هذا التقسيم أن الأنواع الخمسة التى ذكرها تحت اسم البديع كانت بارزة وواضحة فى أشعار البديعيين ، وكانت موضع جدل بين أنصار القديم وأنصار الحديث .

أما أنواع المحسنات الأخرى فلم تكن موضع جدل ولا إنكار ويرى

المرحوم الدكتور إبراهيم سلامة أن السر فى هذا التقسيم يرجع إلى كثرة الأول - أى البديع - فى الشعر، أما القسم الثانى - أى المحسنات - فعام بين الشعر والنثر. وإلى أن الأصناف الخمسة الأولى عرفها الشعراء، وعرفها الجاحظ قبل ابن المعتز فليس له فى العثور عليها من فضل إلا ردها إلى الشعر القديم، ليرد على الشعراء المجددين دعوتهم فى التجديد .

أما صنوف القسم الثانى فمن اختراعه وحده، وقف عليها لما تتبع أشعار القدامى والمحدثين، ودونها قبل أن يدونها غيره، وأطلق عليها أسماء لم تكن معروفة قبله فى مصطلحات البلاغيين، ولذلك فصل بين القسمين ليقول : هذا لكم وهذا لى، وهذا منكم، وهذا منى(١) .

ويرد على هذا الرأى : أن القسم الأول والثانى يأتيان فى النثر والشعر كثيراً ونظرة واحدة إلى الشواهد التى أوردها فى القسمين لاتؤيد ماذهب إليه المرحوم الدكتور إبراهيم سلامه، هذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى لايمكن التسليم بأن المحسنات التى ذكرها ابن المعتز هى من اختراعه كلها فقد ذكر بعضها من سبقه، وزادوا عليه ألواناً، وقد وضحنا ذلك أثناء العرض، هذا والبديع عند ابن المعتز ليس ماتعارف عليه المتأخرون من وجوه تحسين الكلام اللفظية والمعنوية، وإنما هو مصطلح عام يطلق على كثير من مصطلحات البلاغة كالاستعارة، والجناس والطباق وغيرها .

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان للدكتور إبراهيم سلامه . ص ١٣٤

والكتاب يعد رائدا للنقاد وكاشفا لهم طريق الحكم الصحيح على الأدب وبيان قيمته ، وذلك باتباع — الطريقة التاريخية التي تهتم بدراسة نصوص كل مرحلة على حدة ثم الحكم على ضوء نتائج هذه الدراسة وهذا واضح من تمثيله لكل نوع من أنواع البديع بأمثلة من القرآن الكريم أولا — ثم من الحديث النبوي والشعر العربي القديم وشعر المحدثين .

وكتاب البديع لابن المعتز — لاشك — أنه نبه الأذهان إلى إن محاسن الكلام كثيرة لاتحصى ، ففتح لعلماء البديع - من بعده - الباب على مصراعيه للبحث والتنقيب عن هذه المحاسن ، وأباح لهم أن يسموه بديعاً إذا شاءوا يقول : ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ، ومحاسنهما كثيرة لاينبغى للعالم أن يدعى الإحاطة بها حتى يتبرأ من شذوذ بعضها عن علمه وذكره ، وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد كتابنا للمتأدبين ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختيارا من غير جهل بمحاسن الكلام ولاضيق في المعرفة ، فمن أحب أن يقتدى بنا — ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة ، فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ولم يأت غير رأينا فله اختياره(١) .

وكتاب البديع له منهجه في البحث وخاصة حينما يأتي بالبديع المستحسن ثم يردفه بالمعيب ، ولعله بذلك يقصد خلق روح المقارنة والموازنة بين جيد الكلام وبين رديئه ، فيتمسك الأديب بالكلام الجيد ، ويتمرس به ويتجنب الكلام المعيب ، ويسقطه من حسابه . يقول بعد أن ساق أمثلة للمعيب المردود من الاستعارة : إنما نخبر بالقليل ليعرف فيتجنب (٢) .

---

(١) كتاب البديع ص٥٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣ .

٢ — قدامة بن جعفر (١) المتوفى سنة ٣٣٧ هـ

ألف كتابه « نقد الشعر » وهو الكتاب الثانى فيما نعلم — بعد كتاب البديع لابن المعتز يبحث فى الشعر وبيان جيده من رديئه .

وينعى على معاصريه تقصيرهم فى العناية بعلم جيد الشعر من رديئه ، يقول :

إن الناس قد عنوا بوضع الكتب فى علوم الشعر الأخرى أما علم جيد الشعر من رديئه ، فإن الناس يخطبون فى ذلك منذ تفقهوا فى العلوم ، فقليلا مايصيبون (٢) . ثم حد الشعر بقوله : « إنه قول موزون مقفى يدل على معنى » . ثم مضى يخرج محترزات التعريف ، بطريقة تدل على اتصاله بالفلسفة اليونانية ، ولاسيما المنطق ثم حكم على الشعر بأنه صناعة كسائر الصناعات وأن ماهذا سبيله له طرف أحدهما :

غاية الجودة ، والآخر : غاية الرداءة وحدود بينهما تسمى الوسائط ولكل من ذلك أسباب :

فالشعر الجيد هو الذى اجتمعت فيه أسباب الجوده ، وخلا من الخلال المذمومة بأسرها ، والشعر الردىء هو الذى اجتمعت فيه أسباب الرداءة وخلا من الصفات المحمودة .

---

(١) معجم الأدباء لياقوت جـ ١٧ ص ١٢ - ١٥ مراجعة وزارة المعارف طبع دار المأمون .

(٢) نقد الشعر لأبى الفرج قدامة بن جعفر بتحقيق كمال مصطفى ص ٩ - ١٢ الطبعه الأولى مكتبة الخانجى مصر .

وما يجتمع فيه من الحالين أسباب ينزل له اسم بحسب قربه من الجيد أو من الردىء أو وقوعه فى الوسط الذى يقال لما كان فيه : صالح ، أو متوسط ،أولا جيد ولا ردىء (١) .

ولكى يبين أسباب الجودة ، والرداءة يذكر أن عناصر الشعر أربعة :

١ - اللفظ .

٢ - الوزن .

٣ - القافية .

٤ - المعنى .

ثم يذكر ائتلاف هذه العناصر مع بعضها ،فينتج عنــــده أربعة ائتلافات هى :

١ - ائتلاف اللفظ مع المعنى .

٢ - ائتلاف اللفظ مع الوزن .

٣ - ائتلاف المعنى مع الوزن .

٤ - إئتلاف المعنى مع القافية .

ثم يتكلم عن عيوب ومحاسن هذه الثمانية ويعرض لعشرين لونا من ألوان البديع سنذكرها مرتبة على حسب ورودها فى كتابه وهى :

الترصيع ، وهو من نعوت الوزن، ويعرفه بقوله : « وهو أن تتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت على سجع أو شبيه به ، أو جنس واحد

---

(١) نقد الشعر ص ١٢ ، ١٣

فى التصريف ، وهو موجــــود فى أشعار القدماء والمحدثين ، ثم ساق له الأمثلة .

ويرى أن الترصيع إنما يحسن إذا اتفق له فى البيت موضع يليق به ، فإنه ليس فى كل موضع يحسن ، ولا على كل حال يصلح ، وإذا توافر فى الأبيات كلها دل على تعمد ، وأبان عن تكلف(١) وهو مذكور عند الجاحظ باسم الازدواج كما مر بنا .

ثم يذكر التشبيه ،وهو عنده من المعانى الدال عليها الشعر ، ويعرفه بقوله: التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك فى معان تعمهما ويوصفا بها ، وافتراق فى أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتها ثم أشار إلى أن أحسن التشبيه ما كان بين شيئين اشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها ، حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد .

ثم ساق أمثلة للتشبيهات الحسان ، وعلق عليها ببيان المشبه والمشبه به والجهة المشتركة بينهما التى قصدها الشاعر من إيراد تشبيهه .

ثم يذكر أنه : قد يقع فى التشبيه تصرف إلى وجوه تستحسن ، فمنها :

أن تجمع تشبيهات كثيرة فى بيت واحد وألفاظ يسيرة ، ومنها أن يشبه شىء بأشياء فى بيت أو لفظ قصير ، ومنها : أن يشبه شىء فى تصرف أحواله بأشياء تشبهه فى تلك الأحوال ، ويجعل من أبواب التصرف فى التشبيه أن يكون الشعراء قد لزموا طريقة واحدة ،من تشبيه شىء بشىء ،فيأتى الشاعر من تشبيهه بغير الطريق التى أخذ فيها عامة الشعراء . وهو فى كل ذلك يسوق الأمثلة ، وتحليله لها منصب على إصابة التشبيه للمعنى الذى قصده الشاعر (٣) .

---

(١) نقد الشعر من ص ١٣ — ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٨ - ١١٨ .

وعرض لصحة التقسيم ، وهي عنده من نعت مايعم جميع المعانى الشعرية ويعرفها بقوله : وهى أن يبتدىء الشاعر فيضع أقساما فيستوفيها ولايغادر قسما منها .

مثال ذلك قول نصيب الشاعر : وهو يريد أن يأتى بأقسام جواب المجيب عن الإستخبار :

فقال فريق القوم : لا ، وفريقهم
نعم ، وفريق قال : ويحك لاأدرى

فليس فى أقسام الإجابة عن مطلوب إذا سئل عنه غير هذه الأقسام(١) ثم يسوق بقية الشواهد ، وقد رأيناها سابقاً عند الجاحظ .

ويذكر صحة المقابلة ، وهى عنده من أنواع المعانى وأجناسها أيضاً ويعرفها بقوله :هو أن يصنع الشاعر معانى يريد التوفيق بين بعضها و بعض، والمخالفة فيأتى فى الموافق بما يوافق ، وفى المخالف بما يخالف على الصحة ، أو يشترط شروطاً ، ويعدد أحوالا فى أحد المعنيين ، فيجب أن يأتى فيما يوافقه بمثل الذى شرطه وعدده وفيما يخالف بضد ذلك(٢) . فشمل هذا التعريف أيضاً ماعرف عن المتأخرين بأسم مراعاة النظير أو التناسب ، وهى أن يجمع فى الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد (٣) ، ثم يسوق الأمثلة ، ويعلق عليها .

وذكر صحة التفسير(٤) وهى من أنواع المعانى أيضاً ويعرفها بقوله :

---

(١) نقد الشعر ص ١٣٠-١٣٣ .
(٢) المرجع السابق ص ١٣٣ - ١٣٥ .
(٣) الايضاح ضمن شروح التلخيص ج ٤ ص ٣٠١ .
(٤) نقد الشعر ص ١٣٥ - ١٣٦ .

وهو أن يضع الشاعر معانى يريد أن يذكر أحوالها فى شعره الذى يصنعه ، فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها ، ولا يزيد أو ينقص ، مثل قول الفرزدق :

لقد خنت قوما لو لجأت إليهم   طريد دم أو حاملا ثقل مغرم

فلما كان هذا البيت محتاجاً إلى تفسير قال :

لألفيت فيهم مطعماً ومطاعنا   وراءك شزرا بالوشيج المقوم

ففسر قوله : حاملا ثقل مغرم بقوله : « أن يلق فيهم من يطاعن دونه ويحميه» ، ثم ساق بقية الشواهد موضحاً مواضع التفسير .

وعرض للتتميم(١) ، وقال عنه أنه من أنواع نعــوت المعانى وعرفه بقوله :

وهو أن يذكر الشاعر المعنى فلا يدع من الأحوال التى تتم بها صحته وتكمل معها جودته شيئاً إلا أتى به . ثم يسوق له الأمثلة ، ومنها قول نافع ابن خليفة المغنوى :

رجال إذا لم يقبل الحــق منهم
ويعطوه عاذوا بالسيوف القواطع

ويقول : فما تمت جودة المعنى إلا بقوله : « يعطوه » ، وإلا كان المعنى منقوض الصحة ، وسماه المتأخرون بالتكميل أو الاحتراس وجعلوه من صور الإطناب(٢) .

---

(١) نقد الشعر ص ١٣٦ - ١٣٩ .
(٢) الايضاح ضمن شروح التلخيص جـ ٣ ص ٢٣١ .

وعرف المبالغة(١) وجعلها من أنواع نعوت المعانى ، وحدها بقوله :

وهى أن يذكر الشاعر حالا من الأحوال فى شعر لو وقف عليها لأجزأه ذلك فى الغرض الذى قصده فلا يقف حتى يزيد فى معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد ، ثم يسوق لها الأمثلة ثم يشرحها .

وذكر التكافؤ(٢) ، وهو من نعوت المعانى عنده أيضا ، وعرفه بقوله : وهو أن يصف الشاعر شيئا أو يذمه ، ويتكلم فى أى معنى كان فيأتى بمعنيين متكافئين ، والذى أريد بقولى متكافئين فى هذا الموضع أى : متقاربين ، أما من جهة المصادرة أو السلب والإيجاب أو غيرهما ، من أقسام التقابل . وساق له الأمثلة التى منها قول حميد بن ثور :

فلم أر محزونا له مثـــل صوتها ... ولا عربيا شاقه صوت أعجما

فقول الشاعر : عربى وأعجم ، تكافؤ .

فواضح من التعريف ، ومن هـذا المثال ، وغيره أنه ينطبق على لون الطباق الذى عرض له ابن المعتز وسماه ثعلب مجاورة الأضداد كما عرفنا .

وقد لامه الآمدى على مخالفته لابن المعتز فى التسمية(٣) .

ومن نعوت المعانى عنده الالتفات(٤) . وقد قال فى تعريفه : وهو

---

(١) نقد الشعر ص ١٣٩ — ١٤١ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤١ — ١٤٤ .

(٣) أنظر الموازنة للآمدى بتحقيق محى الدين ص ٢٥٧ الطبعة الثانية مطبعة السعادة .

(٤) نقد الشعر ص ١٤٤ .

أن يكون الشاعر آخذاً فى معنى — فكأنه يعترضه إما شك فيه ، أو ظن بأن راداً يرد عليه قوله أو سائل يسأله عن سببه ، فيعود راجعا إلى ما قدمه ، فأما أن يذكر سببه أو يحل الشك فيه ، وقد ساق له الأمثلة وكشف عن موضع الالتفات فيها وكلها تدل على أنه نوع من نواعى الإلتفات عند ابن المعتز .

وذكر المساواة(١) ، وهى عنده من أنواع ائتلاف اللفظ مع المعنى ، وقد عرفها بقوله : وهو أن يكون اللفظ مساويا للمعنى حتى لا يزيد عليه ، ولا ينقص عنه ، ثم يقول عنها : وهذه هى البلاغة التى وصف بها بعض الكتاب رجلا فقال : كانت ألفاظه قوالب لمعانيه ، أى هى مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر . . . ثم ساق لها الأمثلة ، ولم يعلق عليها .

ثم عرض للإشارة (٢) وهى عنده من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى ، وعرفها بقوله :

وهو أن يكون اللفظ القليل مشتملا على معانى كثيرة بإيماء إليها ، أو لمحة تدل عليها ، كما قال بعضهم وقد وصف البلاغة فقال : هى لمحة دالة، ثم ساق لها الشواهد .

ويذكر الارداف(٣) ، وقد جعله من أنواع ائتلاف اللفظ والمعنى وحده بقوله :

---

(١) نقد الشعر ص ١٤٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٥١ .
(٣) المرجع السابق ص ١٥٤ .

وهو أن يريد الشاعر دلالة على معنى من المعانى ، فلا يأتى باللفظ الدال على ذلك المعنى ، بل بلفظ يدل على معنى هو ردفه وتابع له ، فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع ، بمنزلة قول الشاعر :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل
أبوها وإما عبد شمس فهاشم

وإنما أراد الشاعر أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخاص به ، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد ، وهو بعد مهوى القرط . . . والارداف نوع من أنواع الكناية . وقد قصر المتأخرون اسم الكناية عليه .

أما التمثيل(١) فقد جعله من نعوت ائتلاف اللفظ والمعنى ، وعرفه بقوله : وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاما يدل على معنى آخر ، وذلك المعنى الآخر والكلام ينبئان عما أراد أن يشير إليه ثم يسوق الأمثلة منها قول الرماح بن ميادة :

ألم تك فى يمنى يديك جعلتنى
فلا تجعلنى بعدها فى شمالكا
ولو أذنبت ما كنت هالكا
على خصلة من صالحات مهالكا

يقول : فعدل عن أن يقول فى البيت الأول ، إنه كان عنده مقدما فلا يؤخره أو مقربا فلا يبعده ، أو مجتبى فلا يجتنبه ، إلى أن قال : إنه كان فى يمنى يديه فلا يجعله فى اليسرى ، ذهابا نحو الأمر الذى قصد الإشارة

---

(١) نقد الشعر ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

إليه بلفظ ومعنى يجريان مجرى المثل له ، والإبداع في المقالة .

وعرض للمطابق(١) والمجانس(٢) ، وقال عنهما : وقد يضع الناس من صفات الشعر المطابق والمجانس ، وهما داخلان في باب ائتلاف اللفظ والمعنى ، ومعناهما أن تكون في الشعر معان متغايرة قد اشتركت في لفظة واحدة بعينها - ويقصد بذلك المطابق ، ويمثل له بمثل قول الأفوه الأودي :

وأقطع الهوجل مستأنسا بهوجل عيرانة عنتريس

ويقول : فلفظة : الهوجل في هذا الشعر واحدة قد اشتركت في معنيين، لأن الأول ، يعني الأرض والثاني ، الناقة . وواضح أن هذا ينطبق على الجناس التام عند البلاغيين .

وأما المجانس . فأن تكون المعاني المتغايرة اشتراكها في ألفاظ متجانسة على جهة الإشتقاق ، وساق له كثيرا من الشواهد منها قول الفرزدق :

جفاف أجف الله منه سحابه
وأوسعه من كل ساف وصاحب

فقد قسم الجناس إلى قسمين : ما كان بين اسمين متفقين في اللفظ مختلفين في المعنى أطلق عليه المطابق وما كان بين لفظين ، يجمع بينهما الاشتقاق أطلق عليه المجانس ، وقد مر بنا فيما سبق عند الحديث عن ثعلب أنه يسمى أنواع الجناس كلها طباقا .

وذكر ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر(٣) البيت ،

---

(١) ، (٢) نقد الشعر ص ١٦١ ، ١٦٢ .
(٣) المرجع السابق ص ١٦٥ .

وسماه المتأخرون(١) :

« التمكين » ، كما يقول ابن أبي الأصبع فى المقدمة ، وعرفه قدامة بقوله :

هو أن تكون القافية متعلقة بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم له وملاءمة لما مر فيه . وقد فرع قدامة من هذا الباب ، باب التوشيح ، وباب الإيغال .

فالتوشيح عرفه بقوله(٢) : وهو أن يكون أول البيت شاهدا بقافيته ومعناها متعلقا به حتى أن الذى يعرف قافية القصيدة التى البيت منها إذا سمع أول البيت عرف آخره ، وبانت له قافيته وساق له الأمثلة منها قول عباس بن مرداس :

هم سودوا هجنا وكل قبيلة   يبين عن أحسابها من يسودها

يقول : فمن تأمل هذا البيت وجد أوله يشهد بقافيته وقد سماه المتأخرون باسم « الارصاد » .

وأما الإيغال(٣) فقد جعله من أنواع ائتلاف القافية مع سائر معنى البيت ، وعرفه بقوله : وهو أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تاما من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صنع ، ثم يأتى بها لحاجة الشعر فيزيد بمعناها

---

(١) تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبى الأصبع المصرى بتحقيق د . شرف ص ٨٦ نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية و الصبغ البديعى فى اللغة العربية ص ١٥٤ .

(٢) نقد الشعر ١٦٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦٧ .

فى تجويد ما ذكره من المعنى فى البيت وساق له الأمثلة التى منها قول امرىء القيس :

كأن عيون الوحش حول خبائنا
وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

يقول قدامة : « فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملا قبل القافية وذلك أن عيون الوحش شبيهة به ، ثم لما جاء بالقافية أوغل بها فى الوصف ووكده ، وهو قوله : الذى لم يثقب ، فإن عيون الوحش غير مثقبة . وهى بالجزع الذى لم يثقب أدخل فى التشبيه » . وقد جعله المتأخرون من صور الإطناب .

وتعرض للاستعارة(١) أثناء حديثه عن المعاظلة ، يقول : ومن عيوب اللفظ : المعاظلة ، وهى التى وصف عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - زهيرا بمخالفته لها أيضا ، حيث قال : وكان يعاظل بين الكلام . وسألت أحمد بن يحيى عن المعاظلة ، فقال : مداخلة الشىء فى الشىء ، يقال : تعاظلت الجرادتان ، وعاظل الرجل المرأة إذا ركب أحدهما الآخر ، وإذا كان الأمر كذلك فن المحال أن تنكر مداخلة بعض الكلام فيما يشبهه من وجه ، أو فيما كان من جنسه . وبقى النكير إنما هو أن يدخل بعضه فيما ليس من جنسه ، وما هو غير لائق به .

وما أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة مثل قول أوس :

وذات هدم عار نواشرها   تصمت بالماء تولبا جدعا

فسمى الصبى : تولبا ، وهو ولد الحمار .

ومثل قول الآخر :

---

(١) نقد الشعر ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

وما رقد الولدان حتى رأيته على البكر يمريه بساق وحافر

فسمى رجل الإنسان : حافرا ، فإن ماجرى هذا المجرى من الإستعارة قبيح لا عذر فيه .

ولم يسلم رأيه من النقد ، فأنكر عليه الآمدى (١) ذلك ، وكذلك أبو هلال العسكرى (٢) الذى يرى أن تسمية القدم بحافر ليست بمداخلة كلام فى كلام ، وإنما هو بعد فى الاستعارة .

وقال الشيخ عبد القاهر الجرجانى : إن المثالين اللذين أوردهما قدامة لا مغالطة فيهما وأنهما من — الاستعارة المفيدة المؤسسة على التشبيه ، فالشاعر الذى استعمل كلمة «تولب» للطفل الإنسانى ، إنما يقصد الاستعارة وذلك لأنه يصف حال ضر وبؤس ويذكر امرأة بائسه فقيرة ، والعادة فى مثل ذلك ، الصفة بأوصاف البهائم ، ليكون ابلغ فى سوء الحالة وشدة الإختلال .

والشاعر الذى استعمل الساق والحافر لرجل ، وقدم الإنسان مع أنهما للحيوان أصلا ، ليس بالبعيد أن يكون شوب بما مضى ، (أى أن تكون الإستعارة مفيدة) وأن يكون الذى أفضى به إلى ذكر الحافر قصده أن يصفه بسوء الحال فى مسيره ، وتقاذف نواحى الأرض به ، وأن يبالغ فى ذكره بشدة الحرص على تحريك بكره واستغراق مجهوده فى نفسه (٣) .

ولعل ابن قتيبة يتفق مع الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، فقد مثل للإستعارة بالبيت الأخير واكتفى بقوله « فجعل الحافر موضع القدم »(٤).

---

(١) الموازنة بتحقيق محى الدين ص ٢٥ (٢) الصناعتين ص ١٦٣

(٣) أسرار البلاغة للشيخ عبد القاهر الجرجانى ص ٢٦ — ٢٨ طبعة المنار .

(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١١٦ .

أما ابن طباطبا معاصر قدامة فقد جعل البيت الأخير من الأبيات المستكرهة الألفاظ ، القلقة القوافى ، الرديئة النسج ، فليست تسلم من عيب يلحقها فى حشوها ، أو قوافيها ، أو ألفاظها أو معانيها(١) هذا فى الاستعارة القبيحة عند قدامة .

أما الاستعارة الحسنة عنده : فهى التى ليست فيها شناعة ، وكان لها مجاز وللشعراء لهم فيها معاذير ، إذا كان مخرجها مخرج التشبيه يقول : « وقد استعمل كثير من الشعراء الفحول المجيدين أشياء من الاستعارة ليس فيها شناعة كهذه ، وفيها لهم معاذير إذا كان مخرجها مخرج التشبيه » ، ثم أورد بعد ذلك أمثلة للاستعارة الحسنة منها قول امرىء القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

يقول : كأنه أراد أن هذا الليل فى تطاوله الذى يتمطى بصلبه ، لا أن له صلبا ، وهذا مخرج لفظه إذا تؤمل(٢) ، فهو يكشف لنا عن حقيقة الاستعارة ، وأن أصلها التشبيه .

وأما التصريع(٣) فقد جعله قدامة من نعت القوافى ،وعرفه بقوله : هو أن تقصد لتصيير مقطع المصراع الأول فى البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها ، فإن الفحول والمجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك ، ولا يكادون يعدلون عنه ؛ وربما صرعوا أبياتا أخر من القصيدة بعد البيت الأول ، وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره .

---

(١) عيار الشعر لمحمد بن طباطبا بتحقيق الحاجرى وسلام ص ١٠٢ ، ١٠٣ المكتبة التجارية سنة ١٩٥٦ .

(٢) نقد الشعر ص ١٧٥

(٣) المرجع السابق ص ٤٢

هذه هي الألوان التي ذكرها قدامة عرضناها عليك بإيجاز ، ونلاحظ فيها العمق أكثر من السابقين .

٣ - محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ

كان معاصرا لابن المعتز ، وقدامة بن جعفر ، ألف كتابه « عيار الشعر » ليتحدث فيه عن علم الشعر ، وطريقة نظمه وتقريبه إلى الأفهام .

استهله بتعريف الشعر وهو عنده بائن عن المنثور ، لكونه منظوما .

ويشترط ابن طباطبا في الشاعر أن يكون ذا طبع عربي أصيل ، ومتمتعاً بذوق أدبي سليم .

ويرى أن الذوق المنحرف من الممكن تقويمه بحذق علم العروض ، ولكن لا يرضى بهذا الذوق حتى يكون بمعرفته المستفاده من علم العروض كالطبع الذي لا تكلف فيه .

وللشعر عنده أدوات لابد من إعدادها قبل نظمه ، منها ، التوسع في علم اللغة والنحو ، ودراسة اللغة العربية وآدابها ، وفنونها ، وطريقة العرب في كلامهم وأيامهم وتقاليدهم ، وعاداتهم ، وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذي به تتميز الأضداد (١) وهو بذلك جعلنا نحس بالصلة التي بينه وبين الجاحظ وابن قتيبة في تربية الفنية الأدبية القادره على الابتكار وتوليد المعاني .

ثم يتحدث عن إبداع الشعر ونقده وما يجب على الشاعر أن يعمله حتى يصل إلى نتاج محكم ونظم متسق فيطلب إليه أن يمخض المعنى الذي يريده ،

---

(١) عيار الشعر ص ٣ ، ٤ ، ٥ .

ويلبسه الألفاظ التي تطابقه والقوافي التي توافقه ، والوزن الذي يسلسه . وإذا أسس شعره على أن يأتي بالكلام البدوي الفصيح لم يخلط به الحضري المولد ، وأن يلائم بين كلامه والسامعين الذين يخاطبهم .

وينصح الشاعر أن يصل أجزاء قصيدته بصلات لطيفة ، فيحسن التخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ، ومن الشكوى إلى الإستماحة إلى آخر المعاني المتفرقة التي ذكرها في كل جزء من اجزاء قصيدته ويتحدث عن المعاني والألفاظ ، ويرى أن للمعاني ألفاظا تشاكلها فتحسن فيها ، وتقبح في غيرها فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء ، التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض . وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه ، وكم من معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه ، وكم من حكمة غريبة قد إزدريت لرثاثة كسوتها ـ ولو كسيت لباسها اللائق بها ـ لكثر المشيرون إليها(١) .

وحديثه عن المعاني والألفاظ مستمد من قول الجاحظ : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء ، فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل »(٢) .

ويقول : أن شعراء المولدين ضاقت عليها مسالك القول بالنسبة إلى من سبقهم وستعثر في أشعارهم بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ... والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشد منها على من كان ـ قبلهم ، لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ، ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة (٣) .

وينصحهم ألا يظهروا شعرهم إلا بعد ثقتهم بجودته ، وأن يديموا النظر

---

(١) عيار الشعر ٥ ـ ٧ .
(٢) الحيوان للجاحظ جـ ٣ ص ٣٩ .
(٣) عيار الشعر ٨ ، ٩ .

فى الأشعار التى اختارها لهم حتى تلصق معانيها بفهمهم وترسخ أصولها فى قلوبهم ، ثم يتناسوها عند ذلك يسهل الكلام عليهم .

ويتكلم عن طريقة العرب فى التشبيه فيقول : « إن العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات والحكم ما أحاطت به معرفتها » .

ثم يعدد المعانى الخلقية التى يلمون بها فى مديحهم وهجائهم (١) .

ويصل إلى عيار الشعر ، ويجعل علة حسنه الاعتدال فى الأساليب وموافقته للحال التى يعد معناه لها ، حتى تسكن النفس وتطرب ويحدث لها أريحيه عند سماعه (٢).

والتشبيه (٣) أول مقياس بلاغى يلقانا فى كتابه ، وهـــو عنده على ضروب مختلفة منها : تشبيه الشىء بالشىء صورة وهيئة كقول امرىء القيس:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا　　لدى وكرها العناب والحشف البالى

ومنها : تشبيه الشىء بالشىء ولونا وصورة كقول حميد بن ثور :

على أن سحقا من رماد كأنه　　حصى اثمد بين الصلاء سحيق

ومنها : تشبيه الشىء بالشىء صورة ولونا وحركة وهيئة كقول الشاعر :

والشمس كالمرآة فى كف الأشل

ومنها : تشبيه الشىء بالشىء حركة وهيئة كقول الآخر :

---

(١) عيار الشعر ١٠ - ١٣ .
(٢) المرجع السابق ١٤ - ١٧ .
(٣) المرجع السابق ص ١٧ - ٢٨ .

كأن أنوف الطير فى عرصاتها   خراطيم أقلام تخط وتعجم

وخامس الأقسام أو الضروب تشبيه الشىء بالشىء معنى لا صورة كتشبيه الجواد بالبحر، والشجاع بالأسد، ومن الضروب تشبيه الشىء بالشىء حركة وبطئا وسرعة كقول الشاعر :

كأنما الرجلان واليدان   طالبتا وترو هـا ربان

ومنها تشبيه الشىء بالشىء لونا كقول أمرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   على بأنواع الهموم ليبتلى

وأما تشبيه الشىء بالشىء صوتا كقول الراعى :

كأن دوى النحل تحت ثيابها
حصاد السفا لاقى الرياح الزعازعا

ويلاحظ الفروق بين أدوات التشبيه فما كان من التشبيه صادقا قلت :

وصفه كأنه أو قلت ككذا، وما قارب الصدق قلت فيه : تراه، أو تخاله أو يكاد (١).

وقد اعتمد أبو هلال العسكرى فى باب التشبيه على ما قاله ابن طباطبا عن التعريض الذى ينوب عن التصريح، والاختصار الذى ينوب عن الإطالة، ويذكر سنن العرب وتقاليدهم وعاداتهم مما قد ينبهم على قارىء أشعارهم، ثم يعرض للأشعار المحكمة ولطائفة من الأبيات المستكرهة الألفاظ المتفاوتة النسيج ولطائفة أخرى، أفرط الشعراء فى معانيها.

ويتحدث عن المعانى المشتركة، وينتهى الكتاب بالحديث عن الشعر

---

(١) عيار الشعر ص ٢٣.

من حيث اللفظ ، والمعنى ، ولايخلو من إشارات إلى أنواع المجاز والتشبيه (١) .

٤ — أبو الحسين اسحاق بن ابراهيم بن وهب

ألف كتابه « البيان » الذى اشتهر باسم « نقد النثر » ونسبه بعض المحدثين (٢) إلى قدامة بن جعفر والبعض الآخر ينسبه إلى أبي الحسين اسحاق ابن ابراهيم بن وهب باسم آخر هو « البيان »(٣) .

وهذا الكتاب يقول عنه صاحبه : « وقد ذكرت فى كتابى هذا جملا من أقسام البيان ، وفقرا من آداب حكماء أهل هذا اللسان ، لم أسبق المتقدمين إليها ، ولكن شرحت فى بعض قولى ما أجملوه ، واختصرت فى بعض ذلك ما أطالوه ، وأوضحت فى كثير منه ما أوعروه ، وجمعت فى مواضع منه ما مزقوه ، وليخف بالاختصار حفظه ، ويقرب بالجمع والايضاح فهمه » (٤) .

فالكتاب قد وضعه مؤلفه على سبيل المعارضة لكتاب « البيان والتبيين »

---

(١) عيار الشعر ص ٢٩ .

(٢) تحقيق فى حياة قدامه بن جعفر فى صدر كتاب نقد النثر لعبد الحميد العبادى ص ٤٦ نشر وزارة المعارف — الطبعة الرابعة ، مطبعة مصر .

(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ٩٣ ، دار المعارف سنة ١٩٦٥ م .

(٤) نقد النثر ص ٥ .

للجاحظ للاستدراك به عليه(١) غير أنه توسع فى شرح أصناف الدلالات وصرح كثيرا بالأخذ عن اليونان والنقل عن ارسطو .

وذكر أنواعا من البديع منها : التشبيه ، والكناية ، والاستعارة والحذف والإلتفات ويسميه الصرف والمبالغة ، والتقديم والتأخير ، ودعا إلى دراسة اللغة العربية والتمرس بآدابها وتكلم عن الطلب ومنه الاستفهام عنده وذكر خروجهما عن المعنى الحقيقى .

وبعد ! ! فهذه الكتب ، كتاب البديع لابن المعتز ، ونقد الشعر لقدامة وعيار الشعر لابن طباطبا ونقد النثر أو البيان لابن وهب ، هى أهم الكتب وألصقها بالبديع التى ظهرت فى أواخر القرن الثالث الهجرى وصدر القرن الرابع . وقد أثمرت ثمرتها المرجوة إذ ظهرت فى القرن الرابع الهجرى حركة النقد العلمى المنظم عند العرب وبلغت درجة سامية بظهور حكومة الآمدى فى الشعر وكذلك حكومة القاضى الجرجانى ، عرف العرب النقد المنهجى بمعناه العلمى الدقيق .

٥ — حكومة الآمدى والقاضى الجرجانى

أفاد نقاد القرن الرابع الهجرى بجهود السابقين حول إبداع الشعر ونقده والدفاع عن النظم القرآنى والنظم العربى بعامة .

وبظهور كتب البديع تعمقت النظرة إلى الشعر وأصبح النقد موضوعيا يميل إلى التحليل والتعليل ، وظهرت حركة النقد المنظم وبلغت درجة سامية .

وفى هذا القرن كانت الخصومة عنيفة بين أنصار البحترى من ناحية

---

(١) نقد النثر ص ١

وبين أنصار أبي تمام من ناحية أخرى فألف أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى ، المتوفى سنة ٣٧١ هـ كتابه « الموازنة بين الطائيين » . ويعد هذا الكتاب أول كتاب فى النقد المنهجى عند العرب بمعناه العلمى الدقيق ، إذ سار فيه على منهج مفصل أعلنه فى صدر كتابه يقول : « وأنا ابتدىء بما سمعته من احتجاج كل فرقة من أصحاب هذين الشاعرين على الفرقة الأخرى عند تخاصمهم فى تفضيل أحدهما على الآخر ، وما ينعاه بعض على بعض ، لتتأمل ذلك ، وتزداد بصيرة وقوة فى حكمك إن شئت أن تحكم ، واعتقادى فيما لملك تعتقد » .

وعقب انتهائه من عرض حجج أنصار الشاعرين يتحدث عن النقاط التى سوف يناقشها وهى :

أخطاء أبي تمام وعيوبه ، وأخطاء البحترى وعيوبه ، ومحاسن أبي تمام ، ومحاسن البحترى ثم الموازنة التفضيليه بين الشاعرين .

ويقول : « فأما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر ، ولكن أقارن بين قصيدتين من شعرهما إذا اتفقتا فى : الوزن - والقافية - واعراب القافية - وبين معنى ومعنى فأقول أيهما أشعر فى هذه القصيدة وفى تلك ، ثم أحكم أنت حينئذ على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علما بالجيد والردىء » [1]

وقد مضى الآمدى وهو يوازن بين الشاعرين يعرض بعض مسائل البلاغة كالاستعارة ، والطباق ، والجناس ، والتشبيه ، والحذف ، والمجاز ، والاستفهام وخروجه إلى التقرير ، وذكر القلب وحسن الابتداءات .

فلما تقدم القرن الرابع الهجرى ظهرت الخصومة قوية أيضاً بين أنصار المتنبي وخصومه .

---

(١) الموازنة ص ٣ طبع الحلبي

فألف أيضا القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى كتابه القيم «الوساطة بين المتنبى وخصومه». يقول الثعالبى: «لما عمل الصاحب رسالته المعروفة فى إظهار مساوىء المتنبى عمل القاضى أبو الحسن كتاب الوساطه بين المتنبى وخصومه فى شعره، فأحسن وأبدع وأطال، وأصاب شاكلة الصواب، واستولى على الآمدى فى فصل الخطاب، وأعرب عن تبحره فى الأدب وعلم العرب، وتمكنه من جودة الحفظ وقوة النقد، فسار الكتاب سير الرياح (١)».

وصدر القاضى كتابه بمقدمة طويلة تحدث فيها عن أخطاء الأقدمين والمحدثين وطريقة العرب فى كلامها كما تحدث عن موهبة الأديب وماينبغى أن يقف عليه حتى يصل إلى نتاج محكم، ثم وضع مذهبه فى الحكم بأنه لايحكم على الشاعر بما أساء فيه بل بما أحسن فلكل شاعر أخطاؤه، وكان هذا تمهيدا للدفاع عن المتنبى والرد على خصومه.

ثم تناول بالدراسة والتحليل ماعيب على المتنبى فى شعره وماوجه إليه من مآخذ.

وأعظم مافى الكتاب تناوله لمعانى الشعر وكيف تناولها الشعراء وعبروا عنها، ثم ترك الباب مفتوحا لمن شاء أن يضم إلى تلك المعانى مايعثر عليه من معان أخرى عبر عنها الشعراء كل بألفاظه.

وقد ذكر فى كتابه بعض صور البديع كالاستعارة، والتجنيس، والطباق والتقسيم، والتشبيه، والتمثيل والمبالغة. كما تحدث عن التخلص، والإستهلال، والخاتمة.

وترجع القيمة البلاغية لكتابى «الموازنة»، و«الوساطة» إلى استعمال

---

(١) اليتيمة جـ ٣ صـ ٢٣٩

المقاييس البلاغية فى الحكم فى هاتين الخصومتين ، كما اتخذ الأسلوب البيانى للقرآن الكريم حكما فى كل مسألة اشتدت الخصومة حولها .

قال الصولى وهو يدافع عن أبى تمام ، ويرد على خصومه : وعابوا قوله أى قول أبى تمام :

لاتسقنى ماء الملام فاننى صب قد استعذبت ماء بكائى

فقالوا : مامعنى ماء الملام؟، وهم يقولون : كلام كثير الماء ، وما أكثر ماء شعر الأخطل . قاله يونس بن حبيب ، ويقولون : ماء الصبابة وماء الهوى ، يريد الدمع ، إلى أن يقول : فما يكون أن استعار أبو تمام من هذا كله ، حرفا فجاء به فى صدر بيته ، لما قال فى آخره «فإنى صب قد استعذبت ماء بكائى» قال فى أوله : «لاتسقنى ماء الملام» .

وقد تحمل العرب اللفظ على اللفظ ، فيما لايستوى معناه ، قال الله عز وجل :

«وجزاء سيئة سيئة مثلها» والسيئة الثانية ليست بسيئة ، لأنها مجازاة ولكنه لما قال : وجزاء سيئة قال (سيئة) فحمل اللفظ على اللفظ وكذلك (مكروا ومكر الله) وكذلك (فبشرهم بعذاب أليم) لما قال : بشر هؤلاء بالجنة قال : بشر هؤلاء بالعذاب ، والبشارة إنما تكون فى الخير لافى الشر فحمل اللفظ على اللفظ(١) .

وقال الآمدى وأما قوله :

لاتسقنى ماء الملام فاننى صب قد استعذبت ماء بكائى

---

(١) أخبار أبى تمام لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى تحقيق خليل عساكر وآخرين صـ ١٣ ، ١٦ .

فقد عيب، وليس بمعيب عندى ، لأنه لما أراد أن يقول : « قد استعذبت ماء بكائى » جعل للملام ماء ، ليقابل ماء بماء ، وإن لم يكن للملام ماء على الحقيقه ، كما قال الله عز وجل :

(وجزاء سيئة سيئة مثلها) .

ومعلوم أن الثانية ليست بسيئه ، وانما هى جزاء عن السيئة وكذلك :

(وان تسخروا منا فانا نسخر منكم) والفعل الثانى ليس بسخرية ، ومثل هذا فى الشعر والكلام كثير مستعمل .

فلما كان مجرى العادة أن يقول القائل : أغلظت لفلان القول ؛ وجرعته منه كأساً مرة ، وسقيته منه أمر من العلقم ، وكان الملام مما يستعمل فيه التجرع على الإستعارة - جعل له ماء على الإستعارة ، ومثل هذا كثير موجود(١) .

واتخاذ المقاييس البلاغيه أداة من أدوات النقد ليس غريباً ، فهذه المقاييس استنبطت من محاسن الشعر والنثر ، وكون النظم القرآنى هو الفصل فى مسائل الجودة والفصاحة ليس أمراً غريباً فالقرآن الكريم هو كتاب العربية الأول .

على أية حال فقد وجهت حركة النقد فى القرن الرابع الهجرى — الأذهان ، ووجهت الأنظار نحو بيان وجه اعجاز القرآن البلاغى وهل يمكن بيان عناصر الاعجاز البلاغى بهذه المقاييس ، وإذا أمكن فما دورها فى التعبير القرآنى ؟ هذا مايلقانا عند الرمانى وأبى هلال العسكرى .

---

(١) الموازنة للآمدى بتحقيق محى الدين ص ٢٤٤ الطبعه الثالثة مطبعة السعادة سنه ١٩٥٩ .

٦ – الرمانى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ

هو أبو الحسن على بن عيسى الرمانى النحوى المتوفى سنة ٣٨٤ هـ من أعلام الاعتزال و من كتاب الإعجاز كان محبا للعلم واسع الاطلاع وله مصنفات كثيرة ، منها رسالته « النكت فى إعجاز القرآن » (١) .

وهى تأخذ شكل جواب عن سؤال وجه إلى الرمانى عن « ذكر النكت فى إعجاز القرآن دون التطويل بالحجاج » .

ويأخذ الرمانى فى الجواب قائلا : « إن وجوه الإعجاز تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة (٢) » .

ثم ترك الوجوه الثلاثة الأولى ، والوجوه الثلاثة الأخيرة . ليتكلم عنها باختصار فى آخر الكتاب .

ويبدأ بالبلاغة : وهى عنده على ثلاثة طبقات : منها ما هو فى أعلى طبقة ، ومنها ما هو فى أدنى طبقة ومنها ما هو فى الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة .

---

(١) ابن خلكان جـ ٢ ص ٤٦١ بغية الوعاة للسيوطى تحقيق محمد أبو الفضل جـ ٢ ص ١٨٠ – ١٨١ طبع الحلبى ، وأنباه الرواة للقوطى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم جـ ٢ ص ٢٩٤ – ٢٩٦ ، دار الكتب .

(٢) النكت فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للخطابى والرمانى وعبد القاهر الجرجانى بتحقيق الدكتور خلف الله وسلام ، ص ٦ دار المعارف .

فأعلاها طبقة فى الحسن بلاغة القرآن : وهى له خاصة ، وهى معجزة العرب ، والعجم . وما كان منها دون ذلك فهو ممكن كبلاغة البلغاء من الناس .

وعرف البلاغة بقوله : « وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ » ، فالبلاغة عنده فى اللفظ والمعنى ، لذلك لا يرضى أن تكون فى المعنى فقط ، لأنه قد يفهم المعنى متكلمان أحدهما بليغ والآخر عيي ، ولا أن تكون فى اللفظ فقط ، لأنه قد يحقق اللفظ على المعنى وهو غث مستكره .

ثم حصر البلاغة فى عشرة أقسام هى : الإيجاز . والتشبيه ، والاستعارة والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس والتصريف ، والتضمين والمبالغة ، وحسن البيان ثم مضى يفسرها بابا — بابا وابتدأ بالإيجاز(١).

والإيجاز عنده(٢) على ضربين : حذف ، وقصر ، فإيجاز الحذف : يكون بإسقاط كلمة أو أكثر . ويسوق له الأمثلة منها قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤها وفتحت أبوابها »(٣) .

يقول : كأنه قيل ، حصلوا على النعيم المقيم الذى لا يشوبه التنغيص والتكدير .

ويوضح الرمانى القيمة البلاغية لإيجاز الحذف ، يقول : « وإنما صار الحذف فى مثل هذا أبلغ من الذكر ، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب ؛

---

(١) النكت ص ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٠ — ٧٤ .
(٣) سورة الزمر آية ٧٣ .

ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه، وبيان السر البلاغى لم نسمعه قبل الرمانى فيما نعلم وفى هذا تعميق للمقاييس البلاغية وبيان دورها فى التعبير الفنى .

وأما إيجاز القصر – وهذه التسمية(١) له – فهو : بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف، وساق له الأمثلة منها قوله تعالى : « إنما بغيكم على أنفسكم »(٢) ، وشرط إيجاز الحذف عنـــده عدم الإخلال بالمعنى ، وأن يكون فى الكلام ما يدل عليه ، وأن يصادف موقعه .

وإيجاز القصر عنده أغمض من إيجاز الحذف ، وإن كان فى الحذف غموض ويبدو أنه يقصد الغموض الذى يحرك النفس ، ويجعلها تذهب كل كل مذهب فى تقدير المحذوف ، فإذا انكشف صادف منها قبولا ، وارتاحت له النفس واهتزت .

وإذا كان الغموض كذلك ، وليس الذى من شأنه يؤدى إلى التعمية والإبهام كان إيجاز القصر أبلغ ، لذلك جاء فى القرآن منه الكثير .

وعقد مقارنة بين بلاغة القرآن الكريم وبين بلاغة الناس ، ومثل للقرآن بقوله تعالى : (ولكم فى القصاص حياة) ومثل لبلاغة الناس بقولهم : « القتل أنفى للقتل » ، ويرى أن التفاوت بين بلاغة القرآن وبلاغة الناس يظهر من أربعة أوجه :

فالآية أكثر فى الفائدة ، لأن فيها كل ما فى قولهم : « القتل

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ص ٢٤٧ .

(٢) سورة يونس آية ٢٣ .

أنفى للقتل ، وزيادة معان حسنة منها إبانة العدل لذكر القصاص ، وإبانة الغرض لذكر الحياة ، ومنها استدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به .

وأوجز فى العبارة ، لأن الذى هو نظير — القتل أنفى للقتل — قوله تعالى : (القصاص حياة) ، والقول : أربعة عشر حرفا ، والآية عشرة أحرف .

وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة الذى فيه على النفس مشقة ، فإن قولهم : « القتل أنفى للقتل » تكريرا غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر فى باب البلاغة .

وأحسن تأليفا بالحروف المتلائمة ، وهذا مدرك بالحس وموجود فى لفظ الآية ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعد الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام ، فباجتماع هذه الأمور التى ذكرناها صارت أبلغ منه وأحسن ، وإن كان قولهم بليغا حسنا .

ويتحدث عن الإطناب وهو من البلاغة عنده ، ويذكر أنه يكون فى تفصيل المعنى ، وما يتعلق به فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل ، فإن لكل واحد من الإيجاز ، والإطناب موضعا يكون به أولى من الآخر ، لأن الحاجة إليه أشد ، والاهتمام به أعظم .

فأما التطويل فعيب وعى ، لأنه تكلف فى مواضع يكون القليل فيها يكفى عن الكثير .

وعرض للتشبيه(١) وعرفه بقوله : « هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حس أو عقل » ، وبذلك قسم التشبيه إلى حسى وعقلى ، أما الحسى فكماءين وذهبين ، يقوم أحدهما مقام الآخر ونحوه .

وأما التشبيه النفسى فهو تشبيه قوة زيد بقوة عمرو ، فالقوة لاتشاهد ، ولكنها تعلم سادة مسد أخرى .

ويسمى الأول : تشبيه حقيقة ، ويمثل له بنحو : هذا الدينار ، كهذا الدينار فخذ أيهما شئت ، والثانى تشبيه بلاغة ، كتشبيه أعمال الكفار بالسراب .

والتشبيه عند الرمانى من الأبواب التى يتفاضل فيها الشعراء ، وتظهر فيها بلاغة البلغاء . وهو على طبقات أيضا فأعلاه طبقة تشبيهات القرآن الكريم ، وما كان منه دون ذلك ، فهو الذى ورد فى كلام الناس .

والتشبيه البليغ عنده هو : إخراج الأغمض إلى الأظهر بأداة التشبيه مع حسن التأليف وليس كتشبيه الجوهر بالجوهر، وتشبيه السواد بالسواد، وإنما يتحقق فى تشبيه شيئين مختلفين يجمعهما مشترك بينهما ، كتشبيه الشدة بالموت ، والبيان بالسحر الحلال . بشرط أن يكون هذا الجمع يحدث بيانا فيهما ، وأبلغه ما كان على وجوه :

١ - منها إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة كتشبيه المعدوم بالغائب ، ويمثل له من القرآن الكريم بآيات منها قوله تعالى :

---

(١) النكت ص ٧٤ - ٧٩ .

« والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا »(١) .

ويقول : فهذا بيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة ، وقد اجتمعا فى بطلان المتوهم مع شدة الحاجه وعظم الفاقه ، ثم يلاحظ دقة اختيار القرآن الكريم لألفاظه فى التعبير عن المعنى المراد بصورة أقوى وأبلغ فيقول : ولو قيل يحسبه الرائى ماء ثم يظهر أنه على خلاف ما قدر لكان بليغا .

وأبلغ منه لفظ القرآن ، لأن الظمآن أشد حرصا عليه ، وتعلق قلب به ، ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذى يصيره إلى عذاب الأبد فى النار .

ويلاحظ الرمانى : أن تشبيه أعمال الكفار بالسراب ، فى الآية الكريمة من أحسن التشبيهات ، لكن جمال الأسلوب القرآنى ليس هذا فحسب بل ينضم إلى ذلك حسن النظم وعذوبة اللفظ ، وكثرة الفائدة ، وصحة الدلالة .

٢ — ومنها إخراج مالم تجر به عادة إلى ماقد جرت به العادة ، كتشبيه البعث بعد الموت بالاستيقاظ بعد النوم ، ومن القرآن الكريم قوله تعالى : (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة)(٢) ويقول : وهذا بيان قد أخرج مالم تجر به عادة إلى ماقد جرت به العادة ، وقد اجتمعا فى معنى الارتفاع فى الصورة ، وفيه أعظم الآية لمن فكر فى مقدورات الله تعالى عند مشاهدته

---

(١) سورة النور آيه ٣٠ .
(٢) سورة الأعراف آية ١٧١ .

لذلك أو عمله به ليطلب الفوز من قبله ، ونيل المنافع بطاعته . وهو بذلك يحدد وجه الشبه ويوضح الغرض الذى سيق لأجله التشبيه .

٣ — ومنها إخراج مالايعلم بالبديهة إلى مايعلم بالبديهة ، مثاله تشبيه إعادة الأجسام باعادة الكتاب، ومن القرآن الكريم قوله تعالى :

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت)(٢) يقول : فهذا تشبيه قد أخرج مالا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة وقد اجتمعا فى ضعف المعتمد ووهاء المستند . وفى ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين ، مع الشعور بما فيه من التوهين .

٤ — ومنها إخراج مالاقوة له فى الصفة إلى ماله قوة فى الصفة، كتشبيه ضياء السراج بضياء النور ، وذلك كقوله تعالى : (وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام)(٣). يقول : فهذا تشبيه قد أخرج مالاقوة له فى الصفة إلى ماله قوة فيها، وقد اجتمعا فى العظم، إلا أن الجبال أعظم، وفى ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها، وما فى ذلك من الإنتفاع بها وقطع الأقطار البعيدة فيها .

وقد انتفع بكل هذه التفصيلات فى التشبيه كل من جاءوا بعد الرمانى مثل أبى هلال العسكرى والشيخ عبد القاهر الجرجانى وغيرهما .

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤١

(٣) سورة الرحمن آية ٢٤

وينتقل إلى الاستعارة(١) ويحدها بقوله: «الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له فى أصل اللغة على جهة النقل للإبانة». وقد اعترض على هذا التعريف الفخر الرازى صاحب نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز، وابن حمزة العلوى صاحب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز.

ويحاول أن يوضح الفرق بين الاستعارة والتشبيه، فيرى أنهما، جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر، إلا أن الغرض فى الاستعارة يكون بنقل الكلمة من معناها الأصلى إلى المعنى المجازى الذى استعملت فيه - أما فى التشبيه فيكون بواسطة أداته الدالة عليه فى اللغة فبقى التشبيه فى الكلام على أصله، لم يغير عنه فى الاستعمال وليس كذلك الاستعارة، لأن مخرج الاستعارة مخرج ماعلقت عليه العبارة ليست له فى أصل اللغة.

وأركان الاستعارة عنده ثلاثة: مستعار ومستعار له، ومستعار منه.

واللفظ المستعار لابد له من حقيقة وهى دلالته على معناه فى أصل الوضع، وحقيقته أصل، واستعماله فى المعنى المجازى فرع. وهذا النقل أو الاستعمال لغرض فنى هو البيان الذى لا تقوم الحقيقة به إذ لو قامت به لكانت أولى ولم تجز الاستعارة كقول امرىء القيس فى صفة الفرس، قيد الأوابد، والحقيقة فيه: مانع الأوابد، وقيد الأوابد أبلغ وأحسن، فكل استعارة لابد لها من حقيقة، ولابد من بيان لايفهم - بالحقيقة.

ثم أخذ يوضح جمال الاستعارة فى القرآن الكريم، ويحللها تحليلا رائعا فقد مثل لها بقوله تعالى:

---

(١) النكت ٧٩-٨٧

(وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)(١) .

وسلك فى بيانها وبلاغتها مسلكا لم نره عنـــد السابقين ، فيعمد إلى الاستعارة ويبين اللفظ المستعار، وهو عنده لفظ «قدمنا» ويوضح حقيقته وهى عنده «عمدنا» ، ثم يقرر أن «قدمنا» أبلغ من «عمدنا» ، لأن لفظ «قدم» يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر ، لأنه من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ، ثم قدم فرآهم على خلاف ماأمرهم، وفى هذا تحذير من الاغترار بالامهال ، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل .

وأما «هباء منثورا» ، فبيان قد أخرج مالاتقع عليه الحاسة إلى ماتقع عليه حاسة : أى أن المعنى الذهنى وهو هنا (لاشىء) أصبح ظاهرا مكشوفا يدرك بحاسة البصر فى شكل ذرات متناثرة فى الهواء .

ويقول فى قوله تعالى : (فاصدع بما تؤمر)(٢)، حقيقته فبلغ ماتؤمر به، والاستعارة أبلغ من الحقيقة ، لأن الصدع بالأمر لابد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة، والتبليغ قد يصعب حتى لايكون له تأثير ، فيصير بمنزلة مالم يقع، والمعنى الذى يجمعهما الإيصال ، إلا أن الايصال الذى له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ وبما كشفه لنا الرمانى، وهو يوضح جمال الاستعارة استخدام القرآن للحواس فى عرض المعانى، يقول فى قوله تعالى : (أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس)(٣) : أصل الحصيد للنبات ، حقيقته : مهلكة ، والاستعارة أبلغ لما فيه من الإحالة على إدراك البصر .

ويقول : فى قوله تعالى : (وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا)(٤) :

---

(١) سورة الفرقان آية ٢٣
(٢) سورة الحجر آية ٩٤
(٣) سورة يونس آية ٢٤
(٤) سورة الأحزاب آية ٤٦

السراج هاهنا مستعار، وحقيقته: مبينا، والاستعارة أبلغ للاحالة على ما يظهر بالحاسة.

وكذلك يقول فى قوله تعالى: (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر)(٣)، حقيقته: لنعذبنهم، والاستعارة أبلغ، لأن إحساس الذائق أقوى، لأنه طالب لإدراك ما يذوقه، ولأنه جعل بدل إحساس الطعام المستلذ إحساس الآلام، لأن الأسبق فى الذوق ذوق الطعام.

ويمضى فى بقية الآيات التى حشدها على هذا النحو بما لا يدع مجالا لمستزيد، ويتحدث الرمانى عن التلاؤم(٤).

ويقول: إن التلاؤم نقيض التنافر، والتلاؤم تعديل الحروف فى التأليف.

والتأليف عنده على ثلاثة أوجه: متنافر، ومتلائم فى الطبقة الوسطى، ومتلائم فى الطبقة العليا.

والمتلائم فى الطبقة العليا القرآن كله - ويمثل للمتنافر والمتلائم فى الطبقة الوسطى بأمثلة الجاحظ.

ويذكر سبب التلاؤم وهو عنده: تعديل الحروف فى التأليف، وكلما كان أعدل كان أشد تلاؤما.

وواضح أنه لم يذكر قاعدة لتعديل الحروف ويبدو أنه ترك ذلك للذوق، وينقل سبب التنافر عن الخليل وهو عنده البعد الشديد فى مخارج الحروف

---

(٣) سورة السجدة آية ٢١

(٤) النكت ص ٨٧-٨٩

أو شدة قربها ، وأجمع العلماء من بعده بأن هذه القاعدة غير مطردة ، لأن الكلمتين قد تتركبان من حروف واحدة ، وتكون إحداهما ثقيلة دون الأخرى، وذلك مثل (علم،وملع) فالأولى خفيفة على اللسان ، ولاينبو عنها الذوق بخلاف الثانية مع اتحاد حروفهما ، وقد تتألف الكلمة من حروف متقاربة ، ولا تكون ثقيلة مثل (ذقته بفمى) فالباء والفاء والميم أحرف شفوية متقاربة ولا ثقل فيها ، ولكنه مع هذا لا يمكن إنكار مالمخارج الحروف وصفاتها وهيئة تأليفها من الأثر فى خفة الكلمة وثقلها ، ويكاد العلماء يجمعون على أن المعول عليه فى خفة الكلمة وثقلها ـ الذوق الصحيح، فما يعده ثقيلا عسر النطق فهو متنافر ، سواء أكان ذلك من قرب مخارج الحروف أم من بعدها أم من غيرها ، وإنما عول على الذوق دون قرب مخارج الحروب أو بعدها ،لأن الذوق لايجرى على قاعدة معروفة .

وفائدة التلاؤم عنده تظهر فى حسن الكلام فى السمع ، وسهولته فى اللفظ وتقبل المعنى له فى النفس لمـــا يرد عليها من حسن الصورة ، وطريق الدلالة .

ويضرب لذلك مثلا : بقراءة الكتاب فى أحسن ما يكون من الخط والحرف، وقراءته فى أقبح مايكون من الحرف والخط ، ثم يقول : فذلك متفاوت فى الصورة وان كانت المعانى واحدة .

وواضح من صنيع الرمانى فى بيان فائدة التلاؤم : أنه يقصد بهالقشرة السطحيه للقرآن الكريم وللكلام العربى بعامه وهى الناحيه التوقيعيه ، من حيث ترتيب سكنات الكلام وحركاته فى نغمة ترتاح لهـا النفس وتتقبلها الأذن ، وهذه الناحية مع حسنها وبلوغ القرآن فيها حد الإعجاز، لا تقوم بإبراز جميع عناصر الاعجاز فى القرآن الكريم ولاعناصر الجمال فى الكلام العربى بوجه عام .

وقد أحس الرمانى بذلك فقال بعد مابين فائدة التلاؤم : «فإذا إنضاف إلى ذلك حسن البيان فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع،البصير بجواهر الكلام .

ولعله يريد بحسن البيان الناحية الأخرى فى القرآن الكريم والكلام العربى - التى تطلق عليها كلمة «النظم» ، ويطلق عليها الرمانى دلالة التأليف التى لانهاية لها .

ثم يتحدث عن الفواصل(١) وهى عنده : عبارة عن حروف متشاكلة فى المقاطع توجب حسن إفهام المعانى .

ويقرر أن الفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب لأن الفواصل تابعة للمعانى،وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها .

ويمثل للسجع بقول بعض الكهان:«والأرض والسماء ،والغراب الواقعة بنقعاء لقد نفر المجد إلى العشراء »،وبقول مسيلمة الكذاب : «ياضفدع نقى كم تنقين،لا الماء تكدرين ، ولا النهر تفارقين» .

ويقول : فهذا أغث كلام يكون وأسخفه ، وعلة ذلك عنده أن القائلين له تكلفوا المعانى من أجله ، وجعلوها تابعة له من غير أن يبالوا بها ما كانت .

ويستدل لغويا على قبح السجع فيقول : وإنما أخذ السجع فى الكلام من سجع الحمامة ، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة ، كما ليس فى سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة،إذ كان المعنى لما تكلف من غير وجه الحاجة إليه والفائدة فيه لم يعتد به ؛ فصار بمنزلة ماليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة .

---

(١) النكت ص ٨٩-٩١

ويقول الرماني : « وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ، ولأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صـــورة يدل عليها وهي على وجهين :

أحدهما على الحروف المتجانسة كقوله تعالى: «طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى(١)» الآيات.

والثاني على الحروف المتقاربة ، كالميم من النون كقوله تعالى : (الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)(٢) ،وكالدال مع الياء نحو :(ق والقرآن المجيد). ويقول : وإنما حسن في الفواصل الحروف المتقاربة ، لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد في تمييز الفواصل والمقاطع لما فيه من البلاغة وحسن العبارة .

ويقول : إن الفائدة في الفواصل عامه ، دلالتها على المقاطع ، وتحسينها الكلام بالتشاكل، وابداؤها في الآي بالنظائر .

وقد عالج الجاحظ الأسجاع في معرض الرد على من كره الأسجاع مستدلا بمفهوم خبر ورد عن رسول الله ﷺ — ذكرناه في موضعه — كما ذكرنا أن الجاحظ رأى في الاسجاع رأيا ملخصه : أن السجع إذا كان متكلفا بارداً والمعاني تابعة للألفاظ ، فهذا الذي كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما الأسجاع التي فيها الألفاظ تابعة للمعاني ، والسجع حينئذ طريق إلى عرض هذه المعاني في أحسن صورة ،فهذا لم يكرهه الرسول عليه السلام.

---

(١) صورة طه آيه ١ ، ٢ ، ٣

(٢) سورة الفاتحه آيه ٣ ، ٤

وكيف يكون ذلك ، وقد ورد فى القرآن الكريم ، ونطق به الرسول صلى الله عليه وسلم .

وربما يكون الرمانى قد قرأ رأى الجاحظ الآنف الذكر ، وسمع عن الشعراء المولدين الذين أتوا فى أشعارهم بالسجع المتكلف البارد وقصدوا إليه قصدا ولم يراعوا حق المعنى ، فصار بذلك شعرهم مرضا للنقد وسمع أيضا عن سجع الكهان فى الجاهلية .

فلعله رأى أن يطلق على السجع الذى فى القرآن الكريم « فواصل » تنزيها للقرآن الكريم من النقد الذى كان يوجه إلى السجع بوجه عام منذ عصر الجاحظ حتى عصره .

ويتحدث عن التجانس (١) ويقصد به الجناس ، ويقول فيه : « تجانس البلاغة هو بيان بأنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحد فى اللغة » .

والتجانس عنده على وجهين : مزاوجة ومناسبة ، فالمزاوجة ، تقع فى الجزاء .

ويسوق الشواهد من القرآن الكريم ، منها قوله تعالى : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) يقول :

أى جاوزه بما يستحق على طريق العدل ، إلا أنه استعير للثانى لفظ الاعتداء ، لتأكيد الدلالة على المساواة فى المقدار ، فجاء على مزاوجة الكلام لحسن البيان . ويمثل لها بقول العرب : « الجزاء بالجزاء » ، ويقول :

---

(١) النكت ص ٩١ ، ٩٢

والأول ليس بجزاء ، وإنما هو على مزاوجة الكلام . ويقول عمرو بن كلثوم :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ويقول : هذا حسن فى البلاغة ، ولكنه دون بلاغة القرآن ، لأن المزاوجة فى بيت عمرو لا تؤذن بالعدل كما أذنت بلاغة القرآن فى مثل قوله : (فمن اعتدى عليكم . . الآية) وإنما فيه الإيذان براجع الوبال فقط .

وأما قولهم : « الجزاء بالجزاء » فدون بلاغة القرآن أيضاً ، لأن فيه الإستعارة للأول . والاستعارة فى الثانى أولى من الاستعارة للأول ، لأن الثانى يحتذى فيه على مثال الأول فى الاستحقاق ، فالأول بمنزلة الأصل ، والثانى بمنزلة الفرع الذى يحتذى فيه على الأصل ، فلذلك نقصت منزلة قولهم : الجزاء بالجزاء ، عن الاستعارة بمزاوجة الكلام فى القرآن .

أما الوجه الثانى من التجانس فهو لمناسبة ، وهى تدور فى فنون المعانى التى ترجع إلى أصل واحد ، ومن أمثلته لها قول الله تعالى : (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم (١)) . يقول : فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير ، والأصل فيه واحد وهو : الذهاب عن الشيء ، أما هم فذهبوا عن الذكر وأما قلوبهم فذهب عنها الخير .

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٧

ويذكر الرمانى « التصريف » (١) وهو عنده نوعان : تصريف المعنى فى المعانى كتصريف الأصل فى الاشتقاق فى المعانى المختلفة، وهو عقدها به على جهة المعاقبة مثل تصريف « الملك » فى معانى الصفات ، فصرف فى معنى مالك ، وملك ، وذى الملكوت ، والمليك ، وفى معنى التمليك ، والتمالك ، والاملاك، والتملك ، والمملوك .

ويرى أن هذا الضرب من التصريف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعانى التى تظهره وتدل عليه .

أما النوع الثانى فهو تصريف المعنى فى الدلالات المختلفة ، فقد جاء فى القرآن فى غير قصة . وضرب مثلا بقصة موسى عليه السلام ، هذه القصة ذكرت فى سورة الأعراف ، وفى طه ، وفى الشعراء ، ، ، وغيرها ، لوجوه من الحكمة :

منها : التصرف فى البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبه .

ومنها : تمكين العبرة والموعظة .

ومنها : حل الشبهة فى المعجزة .

وعرض للتضمين (٢) وهو عنده : حصول معنى فى الكلام من غير ذكر له باسم أو صفة هى عبارة عنه ، ويدل الكلام عليه دلالة إخبار أو دلالة قياس .

وهو عنده على وجهين : تضمين توجيه البنية مثل : الصفة بمعلوم توجب أنه لابد من عالم ، وهذا يدل عليه الكلام دلالة إخبار لأنه ظاهر من لفظه .

---

(١) النكت ص ٩٣ ، ٩٤

(٢) النكت ص ٩٤ ، ٩٥

وأما التضمين الذى يوجبه معنى العبارة ، ويدل عليه الكلام دلالة إخبار من جهة جريان العادة . فمثل قولهم : « الكر بستين » المعنى فيه بستين دينارا ، فهذا مما حذف ، وضمن الكلام معناه ،لجريان العادة به. والتضمين كله إيجاز استغنى به عن التفصيل إذا كان مما يدل دلالة الإخبار فى كلام الناس أما إذا دل عليه الكلام دلالة قياس فلا يكون فيه إيجاز إلا فى كلام الله عز وجل خاصة ، لأنه تعالى لا يذهب عليه وجه من وجوه الدلالة ، فنصبه لها يوجب أن يكون قد دل عليها من كل وجه يصح أن يدل عليه .

وليس كذلك سبيل غيره من المتكلمين بتلك العبارة : لأنه قد تذهب إليه دلالتها من جهة القياس ، ولا يخرجه ذلك عن أن يكون قد قصد بها الإبانة عما وضعت له فى اللغة من غير أن يلحقه فساد فى العبارة .

ويرى الرمانى : أن كل آية لا تخلو من تضمين لم يذكر باسم أو صفة ومن ذلك (بسم الله الرحمن الرحيم) يقول : قد تضمن التعليم لاستفتاح الأمور على التبرك به ، والتعظيم لله بذكره ، وأنه أدب من آداب الدين ، وشعار المسلمين .

وأنه إقرار بالعبودية ، واعتراف بالنعمة التى هى من أجل نعمه ، وأنه ملجأ الخائف ، ومعتمد للمستنجع. ثم أشار إلى أنه وضح ذلك بعد انقضاء كل آية فى كتابه « الجامع لعلم القرآن » .

ويذكر المبالغة ويعرفها بقوله : هى الدلالة على كبر المعنى على جهة التغيير عن أصل اللغة لتلك الإبانة :

وهى عنده على وجوه منها :

١ - المبالغه فى الصفه المعدولة ، مثل غفار معدول ، عن غافر للمبالغه .

٢ - المبالغة بالصيغة العامة فى موضع الخاصة ، كقول القائل : أتانى الناس ، ولعله لا يكون أتاه إلا خمسة فاستكثرهم ، وبالغ فى العبارة عنهم.

٣ - اخراج الكلام مخرج الاخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة، كقوله تعالى : (فأتى الله بنيانهم من القواعد)(١) . يقول : أى أتاهم بعظيم بأسه فجعل ذلك إتيانا له على المبالغة .

٤ - إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة ، نحو قوله تعالى :

(ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط)(٢) .

٥ - إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة فى العدل والمظاهرة فى الحجاج، كقوله تعالى :

(وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين)(٣) .

٦ - حذف الأجوبه للمبالغة، كقوله تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار)(٤)، كأنه قيل : لجاء الحق أو لعظم الأمر . ثم يقول ، بعد أن ساق

---

(٢) سورة النحل آية ٢٦ .
(٢) سورة الأعراف آية ٤٠ .
(٣) سورة سبأ آية ٢٤ .
(٤) سورة الأنعام آية ٢٧ .

الأمثلة للحذف : كل ذلك يذهب إليه الوهم لما فيه من التفخيم، والحذف أبلغ من الذكر ، لأن الذكر يقتصر على وجه والحذف يذهب فيه الوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم لما قد تضمنه من التفخيم .

والباب الأخير من أبواب البلاغة عند الرمانى « حسن البيان » وحده بقوله : هو الاحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره فى الادراك .

وقسمه إلى أربعة أقسام : كلام ، وحال ، واشارة ، وعلامة ، وقد تابع الجاحظ فيما رآه :

من أن حكم المعانى خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعانى مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعانى مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة .

والكلام عند الرمانى ينقسم قسمين : كلام يظهر به تميز الشيء من غيره فهو بيان ، وكلام لايظهر به تميز الشيء فليس ببيان ، كالكلام المخلط والمحال الذى لايفهم به معنى ، ولا يحسن أن يطلق اسم البيان على ما قبح من الكلام لأن الله قد مدح البيان فقال :(الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان). وقسم البيان إلى قسمين : بيان يكون باسم أو صفة وبيان يكون بالتأليف من غير اسم للمعنى أو صفة، كقولك : غلام زيد، فهذا التأليف يدل على الملك من غير ذكر له باسم أو صفة ، ودلالة الاشتقاق كدلالة التأليف ، كقولك : قاتل تدل على مقتول وقتل من غير ذكر اسم أو صفة لواحد منها.

ثم يقرر كما قرر الجاحظ من قبل ، أن دلالة الأسماء والصفات متناهية أما دلالة التأليف ، فليس لها نهاية ، وجعل منها القرآن الكريم ولهذا حصل فيها التحدى بالمعارضة .

ويرى الرمانى أن حسن البيان فى الكلام على مراتب : فأعلاها مرتبة

ماجمع أسباب الحسن فى العبارة من تعديل النظام حتى يحسن فى السمع ويسهل على اللسان ، وتتقبله النفس تقبل البرد ، وحتى يأتى على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة .

وواضح من صنيع الرمانى أن أعلى مراتب حسن البيان له ناحيتان : الأولى التلاؤم أو تعديل النظم أو خلو الكلام مما يشين الفصاحة.

والثانية : دلالة التأليف التى لانهاية لها ، أو يمكن أن يقال ، المعانى التى يحدثها النظم . وهاتان الناحيتان هما اللتان يقوم عليها الإعجاز البيانى للقرآن الكريم ؛ لذلك نراه يقرر فى النهاية أن - القرآن كله فى نهاية حسن البيان . ثم أخذ يعرض بعض الآيات موضحا فيها جهة الحسن ، منها قوله تعالى: (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)(١) ويقول :وهذا أشد مايكون من التحذير .

هذه الأبواب العشرة التى ذكرها الرمانى فى رسالته « النكت فى إعجاز القرآن »،وواضح أنه أضاف فى حديثه عن هذه الأبواب إضافات جديدة فقد حدود بعضها تحديدا نهائيا وبرزت الصورة البيانية عنده فى مرحلة صباها :ثم عقد بابا فى نهاية (النكت) وضح فيه الوجوه الستة الباقية التى رد الاعجاز القرآنى إليها .

وإذا كان الرمانى وهو من كتاب الاعجاز تعمق فى بيان أسرار الجمال للألوان التى ذكرها فإننا سنجد أبا هلال العسكرى يقوم بدراسة واسعة فى ميدان البلاغة والنقد ،ويجمع أشتات المقاييس التى تمخضت عن دراسات السابقين .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥

٧ - أبو هلال العسكرى المتوفى سنه ٣٩٥ ﻫ

هو : أبو هلال(١) الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد العسكرى المتوفى سنه ٣٩٥ ﻫ أحد أعلام النقد والأدب فى القرن الرابع الهجرى صاحب كتاب « الصناعتين ، الكتابه والشعر ، وقد استهله ببيان أن القرآن الكريم معجز بما خصه الله به من حسن التأليف وبراعه التركيب ، وماشحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وحلله من رونق الطلاوة مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها ، وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التى عجز الخلق عنها وتحيرت عقولهم فيها .

ولا يرضى بالتقليد فى معرفه وجه إعجاز القرآن البلاغى ، لأنه طريق الجاهل الغبى ، وعلى المسلم أن يتعلم البلاغه فهى أحق العلوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ ، إذ بها يعرف إعجاز القرآن الكريم معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم - ودلالة صدقه فيما يبلغ عن ربه .

وبالبلاغة يستطيع الناقد أن يميز الكلام الجيد من الردىء ، كما أنها تمكنه من إنشاء الكلام الجيد وابتكار المعانى الرائعة ، واختيار الأشعار الممتازة .

ثم يعيب على الأصمعى اختياره لبعض الشعر ، وكذلك المفضل الضبى وغيرهما من علماء العربيه ويناقشهم فيما اختاروه (٢).

ثم يذكر الحافز له على تأليف كتابه « الصناعتين » ، الكتابه والشعر ، قال : فلما رأيت تخليط هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام ، ووقفت

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ﺟ ٨ ص ٢٥٨ - ٢٦٧ مراجعه وزارة المعارف طبع دار المأمون وبغية الوعاة للسيوطى ﺟ ١ ص ٥٠٦

(٢) الصناعتين : ص ١ - ٤

على موقع علم البلاغة من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبل ، ووجدت الحاجة إليه ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب « البيان والتبيين » لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمري كثير الفوائد ، جم المنافع ، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة ، والخطب الرائعة ، والبلاغة البارعة ، وما حواه من أسماء الخطباء ، والبلغاء ، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة ، وغير ذلك من فنونه المختارة ونعوته المستحسنة ، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة ، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ، ومنتشرة في أثنائه ، فهي ضالة بين الأمثلة ، لاتوجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير ، فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملا على جميع مايحتاج إليه في صنعة الكلام : نثره ونظمه ، ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تقصير وإخلال ، وإسهاب واهذار ، وأجعله عشرة أبواب مشتملة على ثلاثة وخمسين فصلا(١) » .

وكتاب « الصناعتين » من الكتب الجامعة التي حوت بين دفتيها خلاصة ما كتبه السابقون في النقد والأدب وشذبه أبو هلال كما يقول وزاد عليه .

يتحدث أبو هلال عن البلاغة(٢) والفصاحة فيوضح مأخذهما من اللغة ويذكر حدودهما والفرق بينهما ، ويشرح ماجاء عن العلماء فيهما وقد أشرنا إلى رأيه في أول البحث .

ويعتمد أبو هلال في تفسيره البلاغة والفصاحة على ماورد في البيان والتبيين إلى حد بعيد ، وفي أثناء تفسيره لحدود البلاغة تعرض لمطابقة الكلام لمقتضى الحال ، والطريقة التي يراها لتربية الفنية الأدبية بما لايزيد على الجاحظ وابن طباطبا .

---

(١) هكذا في الأصل ، وصحتها : أربعة وخمسون فصلا ، الصناعتين ص ٥

(٢) الصناعتين ص ٦ — ١٣

ويرى أبو هلال أن الميزة البلاغية تكمن فى اللفظ وأن المعانى موجودة وملك لكل شاعر أو كاتب ، ويحكى ما قاله الجاحظ : « وليس الشأن فى إيراد المعانى ، لأن المعانى يعرفها العربى والعجمى والقروى والبدوى ، وإنما هو فى جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ؛ والخلو من أود النظم والتأليف ، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ، ولا يقنع من اللفظ ، بذلك حتى يكون على ما وصفنا من نعوته التى تقدمت(١) » .

على أن أبا هلال لا يهمل المعانى يقول : « ولا خير فى المعانى إذا استكرهت قهرا ، والألفاظ إذا اجترت قسرا ، ولا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه ، ولا غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور القصد(٢) » .

ثم يصف قوما بغلبة الجهل عليهم لأنهم صاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة ، وجاسية غريبة ، ويستجيدون الكلام إذا رأوه سلسا عذبا ، وسهلا حلوا ، والمذهب المفضل عنده هو السهل الممتنع ويعده من أجود الكلام .

ويرى أن صاحب البلاغة يحتاج إلى إصابة المعنى كحاجته إلى تحسين اللفظ ، لأن المدار بعد على إصابة المعنى ، ولأن المعانى تحل من الكلام محل الأبدان ، والألفاظ تجرى معها مجرى الكسوة .

وإذا كان أبو هلال يرى أن الميزة البلاغية كامنة فى الألفاظ فإنه

---

(١) الصناعتين ص ٥٧ ، ٥٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٦١ .

لا يراها فى اللفظ من حيث وضعه اللغوى أو بمقارنته بلفظ آخر بل يرى أن الميزة البلاغية فى الألفاظ التى تتكون منها العبارة ، من حيث اختيارها ، ورصفها وتأليفها ونظمها ، يقول : « على أن المعانى مشتركة بين العقلاء ، فربما وقع الجيد للسوقى والنبطى والزنجى ، وإنما يتفاضل الناس فى الألفاظ ورصفها ونظمها » .

ولم يحاول أبو هلال أن يرسم نظرية للنظم ، ولكنه شغل بالحديث عن المعانى والتنبيه على خطئها ، وصوابها وأنها عنده على ضربين : ضرب يبتدعه صاحب الصناعة . وضرب يحتذيه على مثال تقدم .

ثم يتكلم عن حسن النظم ، وجودة الرصف والسبك وخلاف ذلك ، ويذكر أن أجناس الكلام ثلاثة : الرسائل والخطب ، والشعر ، وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب .

ثم يتكلم عن حسن التأليف ودوره فى التعبير الفنى يقول : وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحا وشرحا ، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية ، فإذا كان المعنى سبيا ، ورصف الكلام رديا لم يوجد له قبول ، ولم تظهر عليه طلاوة ، وإذا كان المعنى وسطا ، ورصف الكلام جيدا كان أحسن موقعا وأطيب مستمعا .

ويحاول أبو هلال أن يتصور نظم الكلام فيشبهه بالعقد المنظم إذا اختل منه خرزة كان مشوها يقول :

« فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعا فى المرأى ، وإن لم يكن مرتفعا جليلا ، وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا »(١) .

---

(١) الصناعتين ص ٦٩ — ١٧٣ .

أحس أبو هلال بروعة النظم وأن كل تصرف فيه يفيد معنى زائدا على المعنى الأصلي، ولاحظ أثر التقديم فيه والتأخير.

لكن لم يصل إلى بيان ما هو ؟، وبأى شىء يتكون ؟.

وبعد أن ينتهى أبو هلال من علاج هذه المقدمات يسرع إلى عرض مسائل البلاغة وأول مقياس عنده « الإيجاز »(١) .

ويذكر أن أصحاب الإيجاز يقولون : الإيجاز قصور البلاغة على الحقيقة، وما تجاوز مقدار الحاجة فهو فضل داخل فى باب الهذر والخطل ، وهما من أعظم أدواء الكلام ، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصناعة .

ثم يذكر الأقوال فى فضل الإيجاز معتمدا على ما ورد فى البيان والتبيين ويقسمه إلى نوعين : إيجاز القصر وإيجاز الحذف . وإيجاز القصر عنده هو : تقليل الألفاظ ، وتكثير المعانى ، ويمثل له بالآية الكريمة : « ولكم فى القصاص حياة » ويبين فضلها على قولهم : القتل أنفى للقتل ، بما يخرج عما قاله الرمانى . ثم يسوق له الأمثلة من القرآن والحديث وكلام العرب فمن القرآن مثل قوله تعالى : « أولئك لهم الأمن » . يقول : دخل تحت الأمن جميع المحبوبات ، لأنه نفى به أن يخافوا شيئا أصلا من الفقر والموت ، وزوال النعمة والجور ، وغير ذلك من أصناف المكاره ، فلا ترى كلمة أجمع من هذه .

ومن الحديث : يمثل قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن من البيان لسحرا » .

ومن كلام العرب يمثل قول الأعرابى : « اللهم هب لى حقك وأرض عنى خلقك » .

---

(١) الصناعتين ص ١٧٩ — ١٩٥ .

وأما إيجاز الحذف ، فقد جمله على وجوه نقلها بشواهدها ، وتعليقاتها عن ابن قتيبة مع إسقاط لبعض الآيات من ناحية ، وزيادة بعض الأمثلة من كلام العرب من ناحية أخرى .

وفي نهاية حديثه عن الإيجاز قال : ومن الحذف الردىء قول الحارث بن حلزة :

والعيش خـــير فى ظلا ل النوك ممن عاش كدا

وإنما أراد : العيش الناعم خير فى ظلال النوك من العيش الشاق فى ظلال العقل ، وليس يدل لحن كلامه على هذا فهو من الإيجاز المقصر .

ومن هنا اشترط البلاغيون أن يكون الحذف غير مخل للمعنى . ثم يسوق بقية الشواهد متأثرا بمنهج ابن المعتز فى كتابه البـــديع ويجعل أبو هلال « المساواة » من باب الإيجاز ، ويعرفها بقوله :

وهى : أن تكون المعانى بقدر الألفاظ ، والألفاظ بقدر المعانى ، لا يزيد بعضها على بعض ، وهو المذهب المتوسط بين الإيجاز والأطناب ، وإليه أشار القائل : كأن ألفاظه قوالب لمعانيه ، أى لا يزيد بعضها على بعض .

ثم يسوق لها الأمثلة التى منها قوله تعالى :(حور مقصورات فى الخيام) وواضح نقله عن قدامة فى المساواة .

ويذكر الإطناب(١) ويبدأ حديثه عنه بقول أصحاب الإطناب فى بيان فضله : « المنطق إنما هو بيان ، والبيان لا يكون إلا بالإشباع ، والشفاء لايقع إلا بالإقناع ، وأفضل الكلام أبينه وأبينه أشده إحاطة بالمعانى ،

---

(١) الصناعتين ص١٩٦ — ٢٠١ .

ولا يحاط بالمعاني إحاطة تامة إلا بالاستقصاء ، والإيجاز للخواص ، والإطناب مشترك فيه الخاصة والعامة .

ويرى أن الحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في موضعه ، وأن الإطناب بلاغة والتطويل عي ، والإطناب إذا لم يكن منه بد : إيجاز ، وهو في المواعظ خاصة محمود ، كما أن الإيجاز في الأفهام محمود ممدوح .

وقد يكون الإطناب بالتكرير لغرض التوكيد كقوله تعالى : « كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون » ، وقد يكون بالصفة إذا أرادوا توكيدها ، فيغيرون منها حرفا إستيحاشا من إعادتها مرة ثانية كقولهم : عطشان نطشان .

ومن التكرير قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ، وذلك أنه عدد فيها نعماءه ، وأذكر عباده آلاءه ونبههم على قدرها ، وقدرته عليها ولطفه فيها ، وجعلها فاصلة بين كل نعمة ، ليعرف موضع ما أسداه إليهم منها .

ويقول : ومما أجل من هذا كله قول الله عز وجل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي » ، فالإحسان داخل في العدل وإيتاء ذى القربى داخل في الإحسان والفحشاء داخل في المنكر ، والبغي داخل في الفحش .

وواضح تأثره بالرماني وابن قتيبة والجاحظ في معالجته الإطناب .

ويذكر التشبيه(١) ويرى أنه من الصور التي تزيد المعنى وضوحا ، وتكسبه توكيدا ويعرفه بقوله :

هو الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ، ناب منابه أو لم ينب ، وقد تحذف أداة التشبيه كقول امرىء القيس :

له أيطلا ظبي وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

---

(١) الصناعتين ص ٢٤٥ — ٢٦٥ .

يقول : هذا إذا لم يحمل على التشبيه فسد الكلام ، لأن الفرس لا يكون له أيطلا ظبي ولا ساقا نعامة ولا غيره مما ذكره ، وإنما المعنى له أيطلان كأيطلي ظبي ، وساقان كساقي نعامة .

والتشبيه عنده مبنى على المبالغة ، وفرق بين المبالغة والكذب ، وقد يكون التشبيه لا مبالغة فيه بل مبنى على الواقع ، ويحكى بصدد ذلك أن إنساناً قال لبعض الشعراء : زعمت أنك لا تكذب فى شعرك وقد قلت : ولأنت أجرأ من أسامة ، أو يجوز أن يكون رجل أشجع من أسد ؟ فقال : قد يكون ذلك ، فإنا قد رأينا « مجزأة بن ثور » فتح مدينة ، ولم تر الأسد فعل ذلك ، ويرى أنه لا يلزم أن يكون المشبه يشبه المشبه به من كل الوجوه ، بل يكفى أن يتشابها فى وجه واحد مثل قولنا :

وجهك مثل الشمس ، ومثل البدر ، وإن لم يكن مثلهما فى ضيائهما وعلوهما ولا عظمهما ، وإنما شبهه بهما لمعنى يجمعهما وإياه ، وهو الحسن ، وعلى هذا قول الله عز وجل : (وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام) إنما شبه المراكب بالجبال من جهة عظمها لا من جهة صلابتها ورسوخها ورزانتها ، ولو أشبه الشىء الشىء من جميع جهاته لكان هو هو ، ولعله لا يعجبه ما رآه قدامة من أن أحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشيئين إشتراكهما فى الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدنى بهما إلى حال الاتحاد .

والتشبيه عنده على ثلاثة أوجه : فواحد منها تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون ، مثل تشبيه الليلة بالليلة .

والآخر : تشبيه شيئين متفقين يعرف إتفاقهما بدليل ، كتشبيه الجوهر بالجوهر .

والثالث : تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما ، كتشبيه البيان بالسحر ، والمعنى الذى يجمعهما لطافة التدبير ودقة المسلك .

ثم يتكلم عن أجود التشبيه وأبلغه . وهو عنده على أربعة وجوه : نقلها بشواهدها عن الرمانى وزاد عنه بالتمثيل من كلام العرب .

ويرى أن التشبيه فى جميع الكلام يجرى على وجوه :

منها تشبيه الشيء بالشيء صورة كقوله تعالى : (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) (١) .

ومنها : تشبيه الشيء بالشيء لونا وحسنا ، كقوله تعالى : (كأنهن بيض مكنون) (٢) .

ومنها : تشبيهه به لونا وصورة كتشبيه الثغر بالاقحوان لونا وصورة لان ورق الاقحوان صورته كصورة الثغر سواء وإذا كان الثغر نقيا كان فى لونه سواء .

ومنها : تشبيهه به حركة كقول الأعشى :

غراء فرعاء مصقول عوارضها
تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوحل

ومنها : تشبيهه به معنى كقول النابغة :

فإنك كالليل الذى هـــو مدركى
وأن خلت أن المنتأى عنك واسع

وواضح أنه ينقل عن عيار الشعر لابن طباطبا .

ثم ينهى حديثه عن التشبيه بحشد الأمثلة للتشبيه الجيد ليتبع وبالتشبيه المعيب ليجتنب متأثرا بنهج إبن المعتز .

وعرض للسجع والازدواج (٣) وذهب الجاحظ ، فأطلقه على القرآن الكريم بشرط أن يكون بريئا من التكلف خاليا من التعقيد .

(١) سورة يس آية ٣٩

(٢) سورة الصافات آيه ٤٩

(٣) الصناعتين ص ٦٦ — ٢٧١

وهو عنده على وجوه : منها أن يكون الجزآن متوازيين متعادلين لا يزيد أحدهما على الآخر ، مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه ، ويمثل له بقول الأعرابي : سنة جردت ، وحال جهدت ، وأيد جمدت ، فرحم الله من رحم ، فأقرض من لا يظلم .

ويقول : فهذه الأجزاء متساوية لا زيادة فيها ولا نقصان ، والفواصل على حرف واحد ، ثم يذكر بقية الأمثلة .

ومنها : أن يكون ألفاظ الجزأين المزدوجين مسجوعة ، فيكون الكلام سجعا في سجع . وهو مثل قول البصير :

حتى عاد تعريضك تصريحـــا ، وتمريضك تصحيحا ، فالتعريض والتمريض سجع ، والتصريح والتصحيح سجع آخر ، فهو سجع في سجع .

ويرى أن هذا الجنس إذا سلم من الاستكراه فهو أحسن وجوه السجع .

وهذان الوجهان من أعلى مراتب الازدواج ، والسجع عند أبي هلال والذي هو دونهما عنده :

أن تكون الأجزاء متعادلة ، وتكون الفواصل على أحرف متقاربة المخارج ، إذا لم يمكن أن تكون من جنس واحد كقول بعض الكتاب ، «إذا كنت لا تؤتى من نقص كرم، وكنت لا أوتى من ضعف سبب ، فكيف أخاف منك خيبة أمل ، أو عدولا عن اغتفار زلل ، أو فتورا عن لم شعث أو قصورا عن إصلاح خلل». يقول أبو هلال : فهذا الكلام جيد التوازن ولو كان بدل « ضعف سبب » كلمة آخرها « ميم » ليكون مضاهيا لقوله : « نقص كرم » لكان أجود .

كما يرى أبو هلال أن الذي ينبغي أن يستعمل في هذا الباب ـ ولا بد منه : هو الازدواج فإن أمكن أن يكون كل فاصلتين على حرف واحد

أو ثلاث أو أربع لا يتجاوز ذلك نسب إلى التكلف ، وإن أمكن أيضاً أن تكون الأجزاء متوازنة كان أجمل ، وإن لم يكن ذلك فينبغى أن يكون الجزء الأخير أطول ، على أنه قد جاء فى كثير من إزدواج الفصحاء ما كان الجزء الأخير منه أقصر ومثله من كلام الرسول ﷺ :

« رحم الله من قال خيرا فغنم أو سكت فسلم » .

وينبغى أيضاً أن تكون الفواصل على زنة واحدة ، وأن لم يمكن أن تكون على حرف واحد فيقع التعادل والتوازن ، كقول بعضهم : أصبر على حر اللقاء ومضض النزال ، وشدة المصاع ، ومداومة المراس ، فلو قال على حر الحرب ومضض المنازلة ، لبطل رونق التوازن ، وذهب حسن التعادل .

ثم يذكر عيوب الازدواج : ومنها التجميع : وهو أن تكون فاصلة الجزء الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثانى، ويمثل له بما ذكر قدامة من أن كاتبا كتب : وصل كتابك ، فوصل به مايستعبد الحر ، وأن كان قديم العبودية ، ويستغرق الشكر ، وإن كان سالف وذلك لم يبق منه شيئا . ويقول : فالعبودية - بعيدة عن مشاكلة منه .

ومن عيوبه أيضا التطويل : وهو أن تجىء بالجزء الأول طويلا ، فتحتاج إلى أطالة الثانى ضرورة ، وينقل ماذكره قدامة أيضا : أن كاتبا كتب فى تعزية : إذا كان للمحزون فى لقاء مثله أكبر الراحة فى العاجل ، ويقول : فأطال هذا الجزء وعلم أن الجزء الثانى ينبغى أن يكون طويلا مثل الأول وأطول، فقال : «وكان الحزن راقبا إذا رجع إلى الحقائق وغير زائل»، فأتى بإستكراه ، وتكلف عجيب .

ويرى أبو هلال أن السجع يأتى فى الشعر ويمثل له بأمثلة منها قول الشاعر :

فتور القيام قطيع الكلام   يفتر عن ذى غروب خصر

ويذكر أن أهل الصنعة يسمون هذا النوع من الشعر المرصع ولعله يقصد بذلك قدامة .

ولم يذكر أبو هلال هذه الألوان البلاغية التى عرضناها تحت اسم البديع ، ويبدو من كلامه أن أحداً لم يدع أن المحدثين قد ابتكروها فقد قال ، بعد أن فتح بابا للبديع وعدد ألوانه سواء منه ما وجد عن السابقين ، وما هو من ابتكاره :

« فهذه أنواع البديع التى ادعى من لا رواية له ولا دراية أن المحدثين ابتكروها وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين(١) » .

ويرى أن أنواع البديع إذا برئت من العيوب وسلمت من التكلف كان الكلام فى غاية الحسن ، ونهاية الجودة ثم يتحدث عن جهده فى الكتاب وملخصه : أنه هذب الأنواع التى وردت عن السابقين ، وشذبها وزاد عليها ستة أنواع : التشطير والمجاورة والتطريز والمضاعف والاستشهاد ، والتلطف ، ويزيد عليها فى آخر الكتاب « المشتق » وينبه عليه ، وسنرى من خلال عرضنا لها مبلغ صدقه فيما يقول :

وسيرد أبو هلال ألوان البديع إلى القدماء كما فعل ابن المعتز .

يبدأ حديثه عن ألوان البديع بالاستعارة(٢) والمجاز ويحد الاستعارة بتعريف الرمانى لها مع شرح لما أجمله فقال : الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها فى أصل اللغة إلى غـيره لغرض ، وذلك الغرض

---

(١) الصناعتين ص ٢٧٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٧٤ - ٣١٥

إما أن يكون شرح المعنى ، وفضل الإبانة عنه ، أو تأكيده ، والمبالغة فيه ، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ ، أو تحسين المعرض الذى يبرز فيه .

ويرى أن هذه الأوصاف موجودة فى الاستعارة المصيبة ،وأن الاستعارة المصيبة ، لابد أن تشتمل على غرض فنى ، وإلا كانت الحقيقة أولى منها استعمالا ، ثم يستشهد على ذلك بقول الله تعالى :

(يوم يكشف عن ساق) ، ويرى أن الاستعارة أبلغ وأحسن وأدخل مما قصد له من قوله لو قال : يوم يكشف عن شدة الأمر ، وأن كان المعنيان واحداً ، ثم يسوق كثيراً من الأمثلة يبين فيها فضل الاستعارة على الحقيقة ، مستعيناً بشواهد الرمانى وتعليقاته ، وكذلك ابن قتيبة ، ويتعرض لأصلين من أصول الاستعارة :

الأول : أنه لابد لكل استعارة من حقيقة وشرح ذلك بأمثلة الرمانى وبسط الشرح .

أما الثانية : فهو الجامع بين المستعار له والمستعار منه . قال : ولابد أيضاً من معنى مشترك بين المستعار(١) والمستعار منه ، ثم وضح ذلك بالأمثلة .

وقد جعل عنوان هذا البحث « الاستعارة والمجاز » ومع ذلك لم يتحدث عن المجاز إلا بقوله : ولابد لكل استعارة ومجاز من حقيقة ، وهى أصل الدلالة على المعنى فى اللغة .

وقد تأثر فى صنيعه هذا بالأقدمين أمثال الجاحظ وابن قتيبة فقد كانا لايفرقان بينهما غير أن ابن قتيبة جعل المجاز أعم من الاستعارة ، وقد نقل

---

(١) هكذا فى الأصل والصواب « المستعار له » .

أمثلة ابن قتيبة للاستعارة ، وهى مما يصلح أن تكون أمثلة للمجاز المرسل ، إذ قال : ويسمون النبات نوءا قال :

وجف أنواء السحاب المرتزق

أى جف البقل ، ويقول للمطر : سماء ، قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

وأما أسلوب التشبيه البليغ فهو عنده محتمل للاستعارة والتشبيه على اختلاف التوجيه يدل على ذلك قوله ، فى توجيه قوله تعالى : (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) معناه ، فإنه يماس المرأة وزوجها يماسها ، والاستعارة أبلغ ، لأنها أدل على اللصوق ، وشدة الممارسة ، ويحتمل أن يقال : إنهما يتجردان ، ويجتمعان فى ثوب واحد ويتضامان ، فيكون كل واحد منهما للآخر بمنزلة اللباس ، فيجعل ذلك تشبيها بغير أداة التشبيه . ومثل للإستعارة المصيبة من القرآن والحديث وكلام العرب القدماء والمحدثين ، وانتهى بذكر المعيبة منها متأثرا بمنهج ابن المعتز فى كتابه « البديع » .

ويتحدث عن المطابقة(١) فيقول : قد أجمع الناس على أن المطابقة فى الكلام هى الجمع بين الشىء وضده فى جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة ، أو البيت من بيوت القصيدة ، مثل الجمع بين البياض والسواد ، والليل والنهار ، والحر والبرد .

ويشير إلى مخالفة قدامة العلماء فى هذه التسمية ثم وضح مأخذ الطباق من اللغة فقال : والطباق فى اللغة ، الجمع بين الشيئين .

---

(١) الصناعتين ص ٣١٦ إلى ٣٢٩

يقولون : طابق فلان بين ثوبين . ثم استعمل فى غير ذلك ، فقيل : طابق البعير فى سيره ، إذا وضع رجله موضع يده ، وهو راجع إلى الجمع بين شيئين .

وساق له الأمثلة من القرآن الكريم مثل قوله تعالى : (وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا) ثم ذكر أن الناس تنازعوا هذا المعنى .

قال ابن مطر : تضحك الأرض من بكاء السماء .

وقال آخر : ضحك المزن بها ثم بكى .

ثم يذكر شاعرين آخرين تنازعا هـذا المعنى ويقول : إن أحدهما لم يقرب من لفظ القرآن فى اختصاره وصفائه ، ورونقه ، وبهائه ، وطلاوته ومائه ، وكذلك جميع ما فى القرآن من الطباق ، ثم يمثل للطباق من الحديث وكلام التابعين ، والأعراب والقدماء والمحدثين وينتهى بذكر المعيب منه .

وينتقل للتجنيس(١) ، وينقل تعريف ابن المعتزله ، وعرض لقسميه اللذين عرض لهما :

١ — ما تكون الكلمة تجانس الأخرى لفظاً واشتقاق معنى ، كقول الشاعر :

يوما خلجت على الخليـــج نفوسهم
عصبا وأنت لمثلها مســـتام

خلجت : أى جذبت . والخليج : بحر صغير يجذب الماء من بحر كبير، فهاتان اللفظتان متفقتان فى الصيغة ، واشتقاق المعنى والبناء .

---

(١) الصناعتين ص ٣٣٠ - ٣٤٥

٢ — ما يجانسه فى تأليف الحروف دون المعنى، كقول الشاعر .

فارفق به ان لوم العاشق اللوم

ثم ذكر أن بعض الأدباء شرط هذا الشرط فى التجنيس وخالفه فى الأمثلة .

فقال : ومن جنس تجنيسين فى بيت ، زهير فى قوله :

بعزمه مأمور مطيع وآمر مطاع فلا يلقى لجزمهم مثل

ويقول : وليس المأمور والآمر والمطيع والمطاع من التجنيس ، لأن الاختلاف بين هذه الكلمات لأجل أن بعضها فاعل ، وبعضها مفعول به ، وأصلها إنما هو الأمر والطاعة .

وكتاب الأجناس الذى جعلوه لهذا الباب مثالا لم يصنف على هذا السبيل ، ويكون المطيع مع المستطيع والآمر مع الأمير تجنيسا .

وساق أمثلة أخرى على نحو قول زهير ، وقال : ليس فى هذه الألفاظ تجنيس وإنما اختلفت هذه الكلم لتصريف.

ثم يذكر نوعين آخرين للتجنيس ، قال : ومن التجنيس ضرب آخر ، وهو أن تاتى بكلمتين متجانستى الحروف، إلاأن فى حروفها تقديما وتأخيرا كقوله فى حية :

منقوشة تحـــكى صدور صحائف
أبـان يبدوا من صدور صفائح

والنوع الثانى : يخالف ماتقدم بزيادة حرف أو نقصانه وهو مثل قول الله تعالى :

(والليل وما وسق ، والقمر إذا إتسق)

وساق الأمثلة على طريقته وفى نهايتها ذكر المعيب منه .

ويتحدث عن المقابلة(١) ويعرفها بقوله : إيراد الكلام ، ثم مقابلته بمثله فى المعنى واللفظ على جهة الموافقة ، أو المخالفة .

ونوعها إلى نوعين : الأول المقابلة فى المعنى ، وهى مقابلة الفعل بالفعل

مثاله قول الله عز وجل : (فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) ، فخواء بيوتهم وخرابها بالعذاب مقابلة لظلمهم .

وجعل منه مقابلة المعانى بعضها لبعض ومثل له بقول الشاعر :

أسرناهم وأنعمنا عليهم وأسقينا دماءهم الترابا

فما صبروا لبأس عند حرب ولا أدوا لحسن يد ثوابا

فجعل بإزاء الحرب إن لم يصبروا ، وبإزاء النعمة إن لم يثيبوا ، فقابل على وجه المخالفة .

والنوع الثانى : المقابلة بالألفاظ ، كقول عمرو بن كلثوم :

ورثناهن عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بنينا

ثم ذكر فساد المقابلة وهى : أن تذكر معنى تقتضى الحال ذكرها بموافقة أو مخالفة ، فيؤتى بما لا يوافق ولا يخالف مثل أن يقال : فلان شديد البأس نقى الثغر ، لأن نقاء الثغر لا يخالف شدة البأس ولا يوافقه ثم ساق بقية الأمثلة .

---

(١) الصناعتين ص ٣٤٦ - ٣٤٩

وينتقل إلى التقسيم(١) ، ويقول : إن التقسيم الصحيح هو أن تقسم الكلام قسمة مستوية تحتوى على جميع أنواعه ، ولا يخرج منها جنس من أجناسه ، فمن ذلك قوله تعالى : (هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا)(٢). قال : وهذا أحسن تقسيم ، لأن الناس عند رؤية البرق بين خائف وطامع ليس فيهم ثالث ، ثم ساق بقية الأمثلة وأنهى الحديث عن صحة التقسيم بذكر عيوب القسمة .

ويذكر صحة التفسير(٣) وهى : أن يورد الأديب معانى ، فيحتاج إلى شرح أحوالها ، فإذا شرحت تأتى فى الشرح بتلك المعانى من غير عدول أو زيادة تزداد فيها كقول الله تعالى :

(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله)(٤)، فجعل السكون لليل ، وابتغاء الفضل للنهار ، فهو فى غاية الحسن ، ونهاية التمام. ثم ساق بقية الأمثلة كعادته .. ومعلقا عليها .

ويعرض للإشارة(٥) ويحدها بقوله : الإشارة ، أن يكون اللفظ مشارا به إلى معان كثيرة ، بإيماء إليها ولمحة تدل عليها ، وذلك كقوله تعالى: (إذ يغشى السدرة ما يغشى) ، وقول الناس لو رأيت عليا بين الصفين ، فيه حذف وإشارة إلى معان كثيرة ثم ساق بقية الشواهد .

وينتقل إلى الإرداف(٦) والتوابع ويقول : هما أن يريد المتكلم

---

(١) الصناعتين ص ٣٥٠ - ٣٥٤

(٢) سورة الرعد آية ١٢

(٣) الصناعتين ص ٣٥٥ - ٣٥٧

(٤) سورة القصص آية ٧٣

(٥) الصناعتين ٣٥٨ - ٣٦٩

(٦) المرجع السابق ص ٣٦٠ - ٣٦٣

الدلالة على معنى ، فيترك اللفظ الدال عليه الخاص به ، ويأتى بلفظ هو ردفه وتابع له فيجعله عبارة عن المعنى الذى أراده ، وذلك مثل قول الله تعالى : (فيهن قاصرات الطرف) ، وقصور الطرف فى الأصل موضوعة للعفاف على جهة التوابع والأرداف وذلك أن المرأة إذا عفت قصرت طرفها على زوجها ، فكان قصور الطرف ردفا للعفاف والعفاف ردف وتابع لقصور الطرف ، ثم ساق الأمثلة وكلها ينطبق على ماعرف عند المتأخرين باسم الكناية .

ويتحدث عن المماثلة(١) ، ويحدها بقوله : أن يريد المتكلم العبارة عن معنى ، فيأتى بلفظة تكون موضوعة لمعنى آخر ، إلا أنه ينبىء إذا أورده عن المعنى الذى أراد ، ويسوق لها الأمثلة ويعلق عليها ، منها قولهم : « فلان نقى الثوب » يريدون به أنه لاعيب فيه ، وليس موضوع نقاء الثوب البراءة من العيوب وإنما استعمل فيه تمثيلا .

ومنها قول الله تعالى : (كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) يقول : فمثل العمل ثم إحباطه بالنقض بعد الفتل ، وواضح أن هذه الآية من التشبيه التمثيلى وقوله سبحانه وتعالى : (ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط) يقول : فمثل البخيل الممتنع عن البذل بالمغلول ، لمعنى يجمعها . وهو أن البخيل لايمد يده بالعطية فشبهه بالمغلول ، وواضح أن هذه الآية من الاستعارة التمثيلية .

ثم يناقش قدامة فى بعض أمثلته لهذا الباب قال : وقال قدامة : من أمثلة هذا الباب قول الشاعر :

أوردتهم وصدور العيس مسنفة   والصبح بالكواكب الدرى منحور

---

(١) الصناعتين ص ٣٦٤ - ٣٦٨ .

وقال : قد أشار إلى الفجر إشارة إلى طريقه بغير لفظه، وليس فى هذا البيت إشارة إلى الفجر ، بل قد صرح بذكر الصبح وقال: منحور بالكوكب الدرى أى صار فى نحره ، ووضع هذا البيت فى باب الاستعارة أولى منه فى باب المماثلة . ثم ذكر المعيب منها .

وعرف الغلو(١) وحده بقوله : الغلو تجاوز حد المعنى والارتفاع فيه إلى غاية لايكاد يبلغها . وساق الأمثلة من القرآن ومن النثر والشعر ، فمن القرآن قوله تعالى : (ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط)،قال : وهذا إنما هو على البعيد ، ومعناه لايدخل فى سم الخياط ، ولايدخل هؤلاء الجنة . ثم ذكر أمثلة للمعيب منه الذى خرج إلى حد المحال .

أما المبالغة (٢) فعرفها بقوله ، أن تبلغ بالمعنى اقصى غاياته ، وأبعد نهاياته ، ولاتقتصر فى العبارة عنه ، على أدنى منازله ، وأقرب مراتبه ، مثل لها بقول الله عز وجل : (يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى)(٣) ، وقال : لو قال تذهل كل امرأة عن ولدها لكان بيانا حسنا وبلاغة كاملة ، وإنما خص المرضعة للمبالغة . لأن المرضعة أشفق على ولدها لمعرفتها بحاجته إليها . وأشغف به لقربه منها ولزومها له ، لايفارقها ليلا ونهاراً ، وعلى حسب القرب تكون المحبة والألف . ثم ساق بقية الشواهد ، ثم قال : ومن المبالغة نوع آخر ، وهو أن يذكر المتكلم حالا لووقف عليها أجزأته فى غرضه منها ، فيجاوز ذلك حتى يزيد المعنى زيادة تؤكده ، ويلحق به لاحقة تؤيده كقول عمير بن الأيهم التغلبى :

---

(١) الصناعتين ص ٣٦٩ - ٣٧٧.
(٢) المرجع السابق ص ٣٧٨ - ٣٨٠ .
(٣) سورة الحج آية ٢

ونكرم جارنا مـــادام فينا   ونتبعه الكرامة حيث مالا

فأكرامهم الجار مادام فيهم مكرمة ، وأتباعهم إياه الكرامة « حيث مالا » من المبالغة .

ويذكر الكناية (٢) والتعريض ويعرفهما بقوله : وهو أن تكنى عن الشيء ، وتعرض به ولا يصرح ، على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء ، وساق الأمثلة ، ومما مثل به للكناية قوله تعالى : (أو جاء أحدمنكم من الغائط أولا مستم النساء) .

قال : فالغائط كناية عن الحـــاجة ، وملامسة النساء كناية عن الجماع .

ويمثل للتعريض الجيد بما كتب به عمرو بن مسعده إلى المأمون: أما بعد، فقد استشفع بى فلان إلى أمير المؤمنين ، ليتطول عليه فى الحاقه بنظرائه من المرتزقين فيما يرتزقون ، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلنى فى مراتب المستشفع بهم ، وفى ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام ، فوقع فى كتابه : قد عرفنا تصريحك له وتعريضك بنفسك ، وأجبناك إليهما ، وأوقفناك عليهما .

ومازالت الكناية عنده تطلق على الكناية كما فهمها السابقون ، ثم ذكر المعيب منها على طريقته .

وينتقل إلى العكس (٢) ويعرفه بقوله : هو أن تعكس الكلام فتجعل فى الجزء الأخير منه ماجعلته فى الجزء الأول . ويذكر أن بعضهم يسميه

---

(١) الصناعتين ص ٣٨١- ٣٨٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٨٥—٣٨٦ .

التبديل ، ثم ساق الأمثلة منها قوله تعالى : (يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي) .

ومن المنظوم قول عدى بن الرقاع :

ولقد ثنيت يد الفتاة وسادة لى جاعلا أحدى يدى وسادها

ثم قال : والعكس أيضاً من وجه آخر ، وهو أن يذكر المعنى، ثم يعكسه بايراد خلاف . كقول الصاحب : واستلان لبس المخازى ومد سجوفها ، وتلقب شمس المعالى وكان كسوفها .

ونلتقى بالتذييل (١) ويبدأ حديثه عنه ببيان دوره فى التعبير الفنى الجميل ، يقول :

وللتذليل فى الكلام موقع جليل ، لأن المعنى يزداد به انشراحا والمقصد اتضاحا .

ثم يعرفه بقوله : هو اعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه حتى يظهر لمن لم يفهمه ، وهو ضد الاشارة والتعريض .

ويرى أبو هلال : (أن التذييل ينبغى أن يستعمل فى المواطن الجامعة ، والمواقف الحافلة ، لأن تلك المواطن تجمع البطىء الفهم ، والبعيد الذهن ، والثاقب القريحة ، والجيد الخاطر ، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد توكد عند الذهن اللقن ، وصح للكليل البليد .

ثم يسوق الأمثلة من القرآن والنثر والشعر ، ومثل له من القرآن بقوله تعالى :

---

(٢) الصناعتين ص ٣٨٧ — ٣٨٩ .

(ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى إلا الكفور)(١) وقال :
ومعناه وهل يجازى بمثل هذا الجزاء إلا الكفور .

وقد جعل المتأخرون التذييل نوعا من أنواع الاطناب .

ويأتى الترصيع(٢) فيعرفه بقوله : وهو أن يكون حشو البيت مسجوعا وأصله من قولهم : رصعت العقد إذا فصلته . وهو عنده على ضروب .

الأول كقول امرىء القيس :

سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا　　له حجبات مشرفات على الفال

والضرب الثانى كقوله :

مخش مجش مقبل مدبر معا　　كتيس ظباء الحلب العدوان

والثالث كقوله فى صفة الكلب :

ألص الضروس حنى الضلوع　　تبوع طلوب نشيط أشر

فقوله : « الضروس مع الضلوع » سجع ، وإن لم تكن المقاطع على حرف واحد ثم يذكر المعيب منه .

ويتحدث عن الايغال(٣) ويحده بقوله: وهو أن يستوفى معنى الكلام قبل البلوغ إلى مقطعه ، ثم يأتى بالمقطع فيزيد معنى آخر يزيد به وضوحا، وشرحاً وتوكيدا وحسنا ، ثم وضح مأخذه من اللغة قال :

---

(١) سورة سبأ آيه ١٧ .
(٢) الصناعتين ص ٣٩٠—٣٩٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٩٥—٣٩٦ .

وأصل الكلمة من قولهم : أوغل فى الأمر إذا أبعد الذهاب فيه ،

ثم ساق له الأمثلة من الشعر والنثر منها قول الأعشى :

كناطح صخرة يوما ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

فزاد معنى .

ثم ذكر الفرق بينه وبين التتميم قال: ويدخل أكثر هذا الباب فى التتميم ، وإنما يسمى إيغالا إذا وقع فى الفواصل والمقاطع .

ويذكر « التوشيح »(١) ويرى أن هذه التسمية غير لازمة بهذا المعنى ولو تسمى تبيينا لكان أقرب .

ثم عرفه بقوله : « وهو أن يكون مبتدأ الكلام ينبىء عن مقطعه ، وأوله يخبر بآخره ، وصدره يشهد بعجزه حتى لو سمعت شعرا أو عرفت رواية ، ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه ، مثل قوله تعالى : (قل الله أسرع مكرا إن رسلنا يكتبون ماتمكرون) (٢)» . قال : فإذا وقف على « يكتبون » ، عرف أن بعده « ماتمكرون » لما تقدم من ذكر المكر .

وضرب منه آخر ، وهو أن يعرف السامع مقطع الكلام ، وإن لم يجد ذكره فيما تقدم ، مثل قوله تعالى :

«ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون»(٣) فإذا وقف على قوله : « لننظر » ، مع ماتقدم من قوله تعالى : « جعلناكم خلائف فى الأرض » ، علم أن بعده : «تعملون» لأن المعنى يقتضيه . ثم ذكر أمثلة للضربين من القرآن والشعر ونبه على المعيب منه .

---

(١) الصناعتين ص ٢٩٧ — ٢٩٩ .

(٢) سورة يونس آية ٢١ (٣) سورة يونس آية ١٤

ويصل إلى « رد الإعجاز على(١) الصدور » فيوضح منزلته فى التعبير ثم يقسمه أقساما :

١ - منها ما يوافق آخر كلمة فى البيت آخر كلمة فى النصف الأول مثل قول عنترة :

فأجبتها أن المنية منهل لابد أن أسقى بذاك المنهل

٢ - ما يوافق أول كلمة منها آخر كلمة فى النصف الأخير كقول أبى الأسلت :

أسعى على حبل بنى مالك كل امرىء فى شأنه ساع

٣ - ومنه ما يكون فى حشو الكلام فى فاصلته ، كقول الله تعالى : « أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا »(٢) .

٤ - ومنها ما يقع فى حشو النصفين ، كقول النمر :

يود الفتى طول السلامة والغنى
فكيف ترى طول السلامة تفعل

ثم ساق بقية الأمثلة وأشار إلى المعيب منه .

ويذكر «التتميم(٣) والتكميل» ويعرفه بقوله : وهو أن توفى المعنى حظه من الجودة ، وتعطيه نصيبه من الصحة ثم لا تغادر معنى يكون فيه

---

(١) الصناعتين ص ٤٠٠ - ٣٠٤ .
(٢) سورة الإسراء آية ٢١ .
(٣) الصناعتين ص ٤٠٤ - ٤٠٦ .

تمامه إلا تورده ، أو لفظا يكون فيه توكيده إلا تذكره ، مثل قوله سبحانه :

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » . قال : فبقوله تعالى :

« استقاموا » تم المعنى أيضا ، وقد دخل تحته جميع الطاعات فهو من جوامع الكلم .

ثم ساق له الأمثلة ، موضحا مواقع التتميم .

ويتحدث عن « الالتفات »(١) وهو عنده على ضربين : فواحد أن يفرغ المتكلم من المعنى ، فإذا ظننت أنه يريد أن يجاوزه ، يلتفت إليه فيذكره بغير ما تقدم ذكره به . ثم مثل لهذا النوع فقال : أخبرنا أبو أحمد فقال : أخبرني محمد بن يحيى الصولي قال : قال الأصمعي : أتعرف التفاتات جرير ؟ قلت : لا ، فما هي ؟ . قال :

أتنسى إذ تودعنـــا سليمى   بعود بشامة سقى البشام

ألا تراه مقبلا على شعره ، ثم التفت إلى البشام فدعا له .

والضرب الآخر : أن يكون الشاعر آخذا في معنى وكأنه يعترضه شك أو ظن : أن رادا يرد قوله ، أو سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعا إلى ما قدمه ، فإما أن يؤكده ، أو يذكر سببه أو يزيل الشك عنه ، كقول الرماح بن ميادة :

فلا صرمه يبدو ، وفي اليأس راحة
ولا وده ، يصفو لنا فنكارمه

---

(١) الصناعتين ص ٤٠٧ — ٤٠٩ .

كأنه يقول : « وفى اليأس راحة ، والتفت إلى المعنى لتقديره أن معارضا يقول له : وما تصنع بصرمه ؟

فيقول : لأنه يؤدى إلى اليأس ، وفى اليأس راحة . وساق الأمثلة موضحا موطن الالتفات .

ويذكر « الاعتراض »(١) ، ويعرفه بقوله : وهو اعتراض كلام فى كلام لم يتم ، ثم يرجع إليه فيتمه ، كقول النابغة الجعدى :

ألا زعمت بنو أسد بأنى ألا كذبوا — كبير السن فانى

وساق الأمثلة .

ويذكر « الرجوع »(٢) ، ويحده بقوله : وهو أن يذكر شيئاً ثم يرجع عنه ، كقول الشاعر :

أليس قليلا نظرة إن نظرتها
إليك كلا ليس منك قليل

وساق بقية الأمثلة ونبه على المعيب منه

ويصل إلى « تجاهل(٣) العارف ، ومزج الشك باليقين » ، ويقول فى تعريفه :

هو إخراج ما يعرف صحته مخرج مايشك فيه ، ليزيد بذلك تأكيدا وساق الأمثلة من النثر والشعر ، فمنها قول ذى الرمة :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا أأنت أم أم سالم

---

(١) الصناعتين ص ٤١٠
(٢) المرجع السابق ص ٤١١
(٣) المرجع السابق ص ٤١٢

ويصل « للاستطراد(١) » ، ويعرفه بقوله : وهو أن يأخذ المتكلم فى معنى،فبينا يمر فيه يأخذ فى معنى آخر وقد جعل الأول سببا إليه . وساق له الأمثلة من القرآن والشعر فمنها قول السموءل :

وإنا أناس لانرى القتل سبة إذا مارأته عامر وسلول

فقوله : إذا ما رأته عامر وسلول « استطراد » .

وقال : ومن الاستطراد ضرب آخر ، وهو أن يجىء بكلام يظن أنه يبدأ فيه بزهد، وهو يريد غير ذلك .

كقول الشاعر :

يا من تشاغل بالطلل أقصر فقد قرب الأجل

وأصل غبوقك بالصبو ح وعد عن وصف الملل

وأما « جمع المؤتلف(٢) والمختلف » فيحده بقوله : وهو أن يجمع فى كلام قصير أشياء كثيرة مختلفة أو متفقة .ثم ساق له الأمثلة من القرآن والنثر والشعر، فمن القرآن قوله تعالى : « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد ، والضفادع والدم آيات مفصلات »(٣) .

ويذكر « السلب(٤) والإيجاب » ، ويقول فى تعريفه : وهو أن تبنى الكلام على نفس الشىء من جهة وإثباته من جهة أخرى ، أو الأمر به فى جهة ، والنهى عنه فى جهة ، وما يجرى مجرى ذلك ، كقول الله عز وجل

---

(١) الصناعتين ص ٤١٤—٤١٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٤١٧ — ٤٢٠ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٣٢ .

(٤) الصناعتين ص ٤٢١—٤٢٣ .

« ولا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ». وساق الأمثلة له من النثر ومن الشعر .

و« الاستثناء »(١) عنده على ضربين : الضرب الأول هو أن تأتى بمعنى تريد توكيده ، والزيادة فيه فتستثنى بغيره ، فتكون الزيادة التى قصدتها ، والتوكيد الذى توخيته فى استثنائك ، كقول النابغة .

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم   بهن فلول من قراع الكتائب

والضرب الثانى هو استقصاء المعنى والتحرز من دخول النقصان فيه مثل قول طرفة :

فسقى ديارك غير مفسدها   صوب الربيع وديمة تهمى

وساق الأمثلة للضربين .

أما « المذهب(٢) الكلامى » فقد نهج فيه منهج ابن المعتز ولم يمثل له من القرآن الكريم كما فعل ابن المعتز .

ويصل إلى « التشطير »(٣) ، وهو عنده : أن يتوازن المصراعان والجزآن وتتعادل أقسامهما مع قيام كل واحد منهما بنفسه ، واستغنائه عن صاحبه .

ومثاله من النثر قول الآخر : الجود خير من البخل ، والمنع خير من المطل .

ومن الشعر قول الآخر :

---

(١) الصناعتين ص ٤٢٤—٤٢٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٢٦ — ٤٢٧ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٢٨ — ٤٣٠ .

فأما الذى يحصيهم فمكثر   وأما الذى يطريهم فمقلل

وهذا اللون أول الألوان التى ادعاها أبو هلال لنفسه وأنها من زيادته والذى يقرأ « قواعد الشعر » لأبى العباس ثعلب يجده قد سبق أبا هلال ، ووقف أمام هذا اللون وسماه « المعدل » وجعله قسما من أقسام الشعر ، وعرف الأبيات المعدلة : بأنها التى يستغنى كل شطر فيها بنفسه وساق لذلك الأمثلة منها قول امرى القيس بن عابس الكندى :

الله أنجح ما طلبت به   والبر خير حقيبة الرجل

وليس لأبى هلال إلا تسمية « المعدل » بالتشطير .

ويتحدث عن «المجاورة(١)» فيقول عنها: إنها : تردد لفظتين فى البيت ، ووقوع كل واحدة منها بجنب الأخرى أو قريبا منها ، من غير أن تكون أحداهما لغوا لا يحتاج إليها ، وذلك كقول علقمة :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه   أنى توجه والمحروم محروم

فقوله : الغنم يوم الغنم « مجاورة » و « المحروم محروم » مثله .
وساق بقية الأمثلة :

ويذكر «الاستشهاد(٢) والاحتجاج » ، ويوضح دوره فى التعبير الفنى ، قال :

« وهذا الجنس كثير فى كلام القدماء والمحدثين ، وهو أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر ، وجرى مجرى التذييل ، لتوليد المعنى » .

---

(١) الصناعتين ص ٤٣١ — ٤٣٣ .
(٢) المرجع السابق ص ٤٣٤ — ٤٣٧ .

وعرفه بقوله : «وهو أن تأتى بمعنى ثم تؤكده ، بمعنى آخر يجرى مجرى الاستشهاد على الأول ، والحجة على صحته » .

وساق له الأمثلة من النثر والشعر ونبه بأن أكثرها يدخل فى التشبيه أيضا فمن ذلك :

إنما يعشق المنايا من الأقـ ـوام من كان عاشقا للمعالى
وكذاك الرماح أول ما يكـ ـسر منهن فى الحروب العوالى

ويصل إلى ما سماه « التعطف(١)» ، وعرفه بقوله : هو أن تذكر اللفظ ثم تكرره ، والمعنى مختلف . وساق له الأمثلة من القرآن والشعر ، فمن القرآن قوله تعالى « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة »(٢) . ومن الشعر كقول أبى تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

وقد ذكر أبو هلال فى بحثه للمطابقة أن أهل الصنعة يسمون النوع الذى سماه قدامة المطابقة ، « التعطف » ، فأتبعهم أبو هلال على هذه التسمية ناسيا أن هذا النوع قد أدرجه تحت الجناس متابعا ابن المعتز فى هذا .

ويرى أستاذنا الدكتور أحمد موسى أن ذلك موطن إلتبس على أبى هلال فظنه نوعا على انفراد وهو من الجناس(٣) .

ويتحدث عن «المضاعفة(٤)» . وهى عنده على أربعة أنواع :

---

(١) الصناعتين ص ٤٣٨ — ٤٤٠ .
(٢) سوره الروم آية ٥٥ .
(٣) الصبغ البديعى فى اللغة العربية ص ١٧٢ —١٧٣ .
(٤) الصناعتين ص ٤٤١ —٤٤٢ .

الأول : وهو أن يتضمن الكلام معنيين ، معنى مصرح به ، ومعنى كالمشار إليه ، وساق له الأمثلة منها ما هو من القرآن ، ومنها ما هو من النثر والشعر ، فمن القرآن قوله تعالى : « ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون»(١) .

قال : فالمعنى المصرح به فى هذا الكلام أنه لا يقدر أن يهدى من عمى عن الآيات ، وصم عن الكلم البينات بمعنى أنه صرف قلبه عنها ، فلم ينتفع بسماعها ورؤيتها ، والمعنى المشار إليه أنه فضل السمع على البصر ، لأنه جعل من الصم فقدان العقل ، ومع العمى ، فقدان النظر فقط .

ومن المنظوم قول الأخطل :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولى على النار

والنوع الثانى : أن تورد الاسم الواحد على وجهتين ، وتضمنه معنيين كل واحد منهما معنى ، كقول بعضهم :

أفدى الذى زارنى والسيف يخفره
ولحظ عينيه أمضى من مضاربه

فما خلعت نجادى فى العناق له حتى لبست نجادا من ذوائبه

فجعل فى السيف معنيين : أحدهما أن يخافره ، والآخر أن لحظه أمضى من مضاربه .

والنوع الثالث كقول ابن الرومى :

بجهل كجهل السيف والسيف منتض
وحلم كحكم السيف والسيف مغمد

والنوع الرابع كقول مسلم :

وخال كخال البدر فى وجه مثله لقينا المنى فيه فحاجزنا البذل

---

(١) سورة يونس آية ٤٢ ، ٤٣ .

ويذكر «التطريز(١)»، ويحده بقوله وهو أن يقع فى أبيات متوالية من القصيدة كلمات متساوية فى الوزن، فيكون فيها كالطراز فى الثوب.

ويرى أن هذا النوع قليل فى الشعر، وأحسن ما جاء منه قول أحمد ابن أبى طاهر:

إذا أبو القاسم جادت لنا يده لم يحمد الأجودان: البحر والمطر
وإن أضــاءت لنا أنوار غرته
تضاءل الأنوران: الشمس والقمر
وإن مضى رأيه أوحـــد عزمته
لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر

فالتطريز قوله: «الأجودان» و «الأنوران» و «الماضيان» و «المزعجان» وساق بقية الشواهد.

أما «التلطف(٢)»، فعرفه بقوله: وهو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تهجنه والمعنى الهجين حتى تحسنه، فمن ذلك أن يحيى بن خالد البرمكى قال لعبد الملك ابن صالح: أنت حقود. فقال:

إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندى لباقيان، فقال يحيى ما رأيت أحدا أصبح للحقد حتى حسنه غيرك.

ورأى الحسن على رجل طيلسان صوف، فقال له: أيعجبك طيلسانك هذا، قال: نعم. قال: إنه كان على شاة قبلك، فهجنه من وجه قريب.

وساق بقية الشواهد.

---

(١) الصناعتين ص ٤٤٣ - ٤٤٤
(٢) المرجع السابق ص ٤٤٥ - ٤٤٨

ويأتى من أنواع البديع بذكر «المشتق»(١)، وهو عنده على وجهين :

الوجه الأول ، أن يشتق اللفظ من اللفظ مثل قول الشاعر فى رجل يقال له بنخاب :

وكيف ينجح من نصف اسمه خابا

والثانى ، اشتقاق المعنى من اللفظ ، مثل قول أبى العتاهية :

حلقت لحية موسى باسمه   وبها رون إذا ماقلبا

هذه هى المقاييس البلاغية التى ذكرها أبو هلال تحت اسم البديع ثم تحدث أيضاً عن حسن الإبتداءات وقبحها ، فذكر أن «الابتداء» أول مايقع فى السمع من كلامك ، والمقطع آخر مايبقى فى النفس من قولك فينبغى أن يكونا جميعاً موفقين(٢) .

ويحكى عن بعض الكتاب قوله : أحسنوا معاشر الكتاب الإبتداءات ، فانهن دلائل البيان(٣) .

وساق أمثلة للابتداءات الجيدة والحسنة ، والحكمة ، والبديعية من شعر الجاهلية وغيرها ، ثم ذكر أمثلة لما عابوه منها والتى لاخلاق لها .

ثم وضح دور الابتداء الحسن فى التعبير الفنى ، قال : إذا كان الابتداء حسناً بديعاً ، وملحاً رشيقاً ، كان داعية إلى الإستماع لما يجىء بعده من الكلام ، ولهذا المعنى يقول الله عز وجل : ألم ، وحم ، وطس ، وطسم ، وكهيعص ، فيقرع أسماعهم بشىء ، بديع ليس لهم بمثله عهد ، ليكون ذلك داعية لهم إلى الإستماع لما بعده ، والله أعلم بكتابه .

ولهذا جعل أكثر الابتداءات بالحمد لله ، لأن النفوس تتشوف للثناء

---

(١) الصناعتين ص ٤٤٨ - ٤٥٠

(٢) المرجع السابق ص ٤٥٥   (٣) المرجع السابق ص ٤٥١

على الله فهو داعية إلى الاستماع ، وقال رسول الله ﷺ : «كل كلام لم يبدأ فيه بحمد الله تعالى فهو أبتر(١)» .

وتحدث عن «المقاطع والفصل والوصل» ، فوضح دورهم فى الكلام البليغ ، وضرورة مراعاة كل منهم ، وذكر كثيرا من أقوال البلغاء منها ، قول أبى العباس السفاح لكاتبه : قف عند مقاطع الكلام وحدوده وإياك أن تخلط المرعى بالهمل ، ومن حلية البلاغة المعرفة بمواضع الفصل والوصل(٢)، وقول يزيد بن معاوية : إياكم أن تجعلوا الفصل وصلا، فإنه أشد وأعيب من اللحن ، وكلها إرشادات بوجوب مراعاة مواطن الفصل والوصل .

ثم ذكر «الخروج من غرض إلى غرض» ، ولتوضيح ذلك شرح طابع القصيدة العربية ، وابتداءها بذكر الديار والبكاء عليها ، والوجد بفراق ساكنيها ، وطريقة خروج الشعراء ، وانتقالهم من غرض إلى غرض ، وضرب لذلك الأمثلة(٣) .

هذه هى جهود أبى هلال البلاغية والنقدية ندعه يتحدث عنها فيقول : وجعلتها واضحة نيرة ، وخالصة بينة من غير إخلال يقصر بها أو إكثار يزرى عليها ، وقد نقحتها وأوضحتها ، وهذبتها ، وشذبتها حسب الطاقة وكل شىء استعرته من كتاب وضمنته إياه ، فإنى لم أخله من زيادة تبيين واختصار ألفاظ ، وغير ذلك مما يزيد فى قيمته ، ويرفع من قدره(٤) .

---

(١) الصناعتين صـ ٤٥٧
(٢) المرجع السابق صـ ٤٥٨ - ٤٧٣
(٣) المرجع السابق صـ ٤٧٤ - ٤٨٥
(٤) المرجع السابق صـ ٤٨٥

وإذا أردت أن تعرف فضلها على ما عرف فى معناها قبلها ، فمثل بينها وبينه ، فإنك تقتضى لها عليه ولا تنصرف بالاستحسان عنها إليه(١).

هذا العمل البلاغى الذى يعتز به أبو هلال قصد منه أن يكون أداة لإبراز عناصر الإعجاز فى القرآن الكريم وتمييز الجيد من الردىء فى الكلام العربى، والقدرة على إنشاء الكلام الفنى، ويوماً كان يكفى فى تفضيل شاعر على شاعر أو كلام على كلام أن نقف عند طباق ورد على لسان كل منهما أو استعارة إلى آخره ، ولكن النقد الأدبى يتعمق ويصبح موضوعيا إلى مالا نهاية ، وكذلك النظرة الإعجازية فى القرآن الكريم تلح على المسلمين إلحاحا ، وأن عناصر الاعجاز موجودة فى سورة صغيرة أو ثلاث آيات من القرآن - إذن لابد أن يعمل الفكر البلاغى ويجد ويجتهد حتى يصيغ نظرية لغوية أدبية نستطيع بحق أن تبرز عناصر الجمال فى كل تركيب عربى ، وكانت نظرية النظم التى سنحدثك عنها نشأة وازدهارا بعد حين .

---

(١) الصناعتين ص ٤٤٨

الفصل الرابع

نشأة نظرية النظم

وازدهار البلاغة العربية

إن استنباط الألوان البلاغية والإرشادات النقدية من محاسن الأدب العربي بعامة ومحاولة استخدامها في الحكم لقول على قول، أولشاعر على شاعر لم تشبع الفكر الأدبي بل أحس الذوق الأدبي والفكر البلاغي بأن محاسن الكلام كثيرة ينبغي الوقوف عليها حتى تكون الأحكام النقدية عامة وشاملة ووافية بالغرض المقصود .

وهناك شيء آخر في حياة المسلمين هو « الإعجاز البياني » إنهم يعتقدون خلفاً عن سلف أن عناصر الإعجاز البلاغي كامنة في القدر المعجز، ومقداره ثلاث آيات أو سورة قصيرة فإذا كان الحال كذلك فكيف الوصول إلى إبراز عناصر الإعجاز في هذا القدر، والمحسنات البديعية أو الألوان البلاغية الموجودة بين أيديهم ربما لاتوجد في بعض السور القصيرة أو في ثلاث آيات متتاليات ؟ كان هذا الخاطر يلح على علماء المسلمين ، ولذلك سوف نرى عند بعضهم محاولة إبراز عناصر الإعجاز في هذا القدر الصغير فمثلا الشيخ عبد القاهر الجرجاني يحاول إبراز عناصر الإعجاز في قوله تعالى (وقيل ياأرض ابلعي ماءك وياسماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين) والفخر الرازي ينقل عن الزمخشري بحثا في الاعجاز في سورة الكوثر .

من أجل هذا كله أخذ علماء المسلمين يعيدون النظر في طريقة دراستهم

البلاغة وتمخضت جهودهم عن « نظرية النظم » التي كان لها خطرها في ازدهار الدراسات البلاغية ، ولعل أول من نبه الأذهان بذلك الإمام الخطابي .

١ — الخطابي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ

والخطابي(١) هو : أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي المتوفى سنة ٣٨٨ هـ من أعلام المحدثين ، ومن كتاب الاعجاز الذين أسهموا في ازدهار البلاغة العربية ، ناقش وجوه الاعجاز غير البيانية مثل التقليد والصرفة ثم وقف امام فكرة تضمن القرآن الكريم للأخبار المستقبلة ليقول: إنها نوع من أنواع إعجاز القرآن الكريم ، ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لايقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها فقال : (فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) من غير تعيين ، فدل على أن المعنى فيه غير ماذهبوا إليه .

ثم ينتهي بوجه إعجازه البلاغي ، وبنسبه إلى الأكثرين من علماء أهل النظر ، ويرى أن البلاغة من الممكن أن يتحقق بها معرفة وجه إعجاز القرآن البلاغي ، إذا ماعرضت العرض الصحيح ، ويعيب معالجة السابقين لها يقول : وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال ويصعب عليهم منه الانفصال(٢).

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٤٥٣ - ٤٥٥ ، وبغية الوعاة جـ ١ ص ٥٤٦ — ٥٤٧

(٢) بيان اعجاز القرآن للخطابي ص ١٦ — ٢١ ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني تحقيق الدكتور خلف الله وسلام دار المعارف .

ونعى على معاصريه تسليمهم بصفة البلاغة على نوع من التقليد ، دون التحقيق له وإحاطة العلم به، وإذا سئلوا عن بلاغة القرآن، أجابوا بأنها شيء لايمكن تصوره ولاتحديده . وقد يخفى سببه عند البحث ، ولكن يظهر أثره فى النفس ولا يخفى على ذوى العلم والمعرفة به ، وقد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع وهشاشة فى النفس لا توجد مثلها لغيره منه ، والكلامان معا فصيحان ثم لايوقف لشيء من ذلك على علة ، وتمثلوا بأبيات جرير التى نحلها ذا الرمة .

ذكرت الرواة أن جريرا مر بذى الرمة، وقد عمل قصيدته التى أولها :

نبت عيناك عن طلل بحزوى   عفته الريح وامتنح القطارا

فقال : ألا أنجدك بأبيات تزيد فيها ، فقال : نعم ، فقال :

يعد الناسبون بنى تميم   بيوت المجد أربعة كبارا
يعدون الرباب وآل تيم   وسعدا ثم حنظلة الخيارا
ويذهب بينها المرئى لغوا   كما ألغيت فى الدية الحوارا

فوضعها ذو الرمة فى قصيدته،ثم مر به الفرزدق ، فسأله عما أحدث من الشعر ،فأنشده القصيدة فلما بلغ هذه الأبيات قال: ليس هذا من بحرك،مضغها أشد لحيين منك . قال : فاستدركها بطبعه، وفطن لها بلطف ذهنه .

لكن الخطابى يرى أن هذا لا يقنع فى معرفة وجه الاعجاز البلاغى ، لأن الباحث المدقق عن باطن العلة لابد أن يعتقد : أن الذى يوجد لهذا الكلام من العذوبة فى حس السامع والهشاشة فى نفسه ، وما يتحلى به من الرونق والبهجة التى يباين بها سائر الكلام حتى يكون له هذا الصنيع فى القلوب والتأثير فى النفوس ، فتصطلح من أجله الألسن على أنه كلام لايشبهه كلام وتحصر الأقوال عن معارضته ، وتنقطع به الأطماع عنها ، أمر لابد له من سبب، بوجوده يجب له هذا الحكم وبحصوله يستحق هذا الوصف .

وواضح أن الخطابى لا يرضى أن يكون الحكم على الجمال الفنى فى الكلام بوجه عام أو على عناصر الاعجاز، قائما على الإحساس الذاتى، وإنما يريد أن الكلام الذى يوصف بالبلاغة توضح فيه عناصر الحسن وأن توضع اليد على الخصائص التى كان بها الكلام بليغا، أو بعبارة أخرى يريد أسبابا موضوعية لعناصر الجمال فى الكلام بوجه عام.

ولا يقتنع الخطابى إلا بوجه الاعجاز البلاغى للقرآن الكريم ويقول: إن هذا هو الذى يثبت على النظر. ويشرح بلاغة القرآن على طريقته فيبدأ بتقسيم الكلام الفاضل المحمود دون الهجين المذموم، الذى لا يوجد فى القرآن شىء منه - إلى ثلاثة أقسام:

١ - الكلام البليغ الرصين الجزل. وهو أعلى طبقات الكلام وأرفعه.

٢ - الفصيح القريب السهل وهو أوسط طبقات الكلام وأقصده.

٣ - الجائز الطلق المرسل. وهو أدنى طبقات الكلام وأقربه.

فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة(١).

ثم يقوم ببحث طريف فى أجزاء الكلام يتوصل منه إلى بيان وجه إعجاز القرآن البلاغى وبيان عناصر الجمال فى الكلام العربى بوجه عام.

يقول: إن السر البلاغى الذى أعجز العرب عن الاتيان بمثل القرآن أو بسورة من مثله يظهر فى أمور منها:

---

(١) بيان إعجاز القرآن ص ٢١-٢٤

١ - أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وألفاظها - التى هى ظروف المعانى والحوامل .

٢ - أن أفهامهم لا تدرك جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ .

٣ - وأن معرفتهم لا تكمل لاستيفاء جميع وجوه النظم التى بها يكون ائتلاف الألفاظ وارتباط بعضها ببعض .

٤ - عدم قدرتهم على اختيار الأفضل عن الأحسن من وجوه النظم وبيانه للسر البلاغى الذى أعجز العرب .

ويصل إلى وضع نظريته فى الكلام يقول : وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة :

١ - لفظ حامل .

٢ - ومعنى به قائم .

٣ - ورباط لهما ناظم .

هذه الأشياء الثلاثة إذا جاءت مجموعة، وعلى أحسن ما يكون كان الكلام المشاد الذى يصل إلى حد الاعجاز .

وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ، ولا أجزل ، ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا، وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه .

وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها .

أما كلام الناس فيرى الخطابى أن هذه الفضائل الثلاث توجد على التفرق

لذلك لاتصل بلاغة البشر إلى حد الاعجاز(١) .

ويناقش الخطابي الأسس التي بنى عليها نظريته في الكلام فيقول : ثم إعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره ، جاء منه ، إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة .

فواضح أن الخطابي يرى بخصوص الألفاظ أن يكون اللفظ مستقرا في مكانه اللائق به الذي يتطلبه المعنى بحيث لا يريد به بدلا ولا يبغي عنه حولا، فإذا لم يصادف اللفظ موقعه فسد معنى الكلام وذهب رونق البلاغة، وهذا المعنى قد سبقه إليه الجاحظ، والرماني، فقد نقل عن الأخير صاحب زهر الآداب وصفه للبلاغة، ومما جاء فيه : ... وكانت كل كلمة قد وقعت في حقها وإلى جنب أختها، حتى لايقال: لو كان كذا في موضع كذا لكان أولى، وحتى لايكون فيه لفظ مختلف ولامعنى مستكره(٢) .

لكن الخطابي تحدث عن صعوبة اختيار هذه الألفاظ ، ووضعها في أماكنها، وذلك ناشيء من وجود ألفاظ كثيرة في اللغة العربية يحسبها أكثر الناس مترادفه، ولكنها في الواقع تعتبر مترادفة إذا ماأريد منها المعنى العام ، وهذا المعنى هو الذي يقنع به من يريد إفهام السامع خلاصة فكره فحسب ، أما من يريد أن يفهم السامع غرضه بدقة وعمق ، لابد أن يعرف الفروق والخصائص التي للألفاظ ، وهذه الفروق وتلك الخصائص تحتاج إلى مهارة وحذق بألفاظ اللغة ،وذلك يخرج عن طوق البشر، لأن البشر حينما يريدون

---

(١) بيان اعجاز القرآن للخطابي ص٢٤

(٢) زهر الآداب وثمر الألباب للحصري القيرواني ح١ ص١٠٠ بتحقيق البجاوي الطبعة الأولى سنة ١٣٧٢هـ/١٩٥٣ دار احياء الكتب العربية .

التعبير عن أى معنى لا يسعفهم إلا الألفاظ المعروفة لديهم، والتى قد ألفوها وتعودوها فيسهل عليهم التقاطها .

أما القرآن الكريم فهو وحده الذى استعمل الكلمة فى مكانها الأمين التى تعبر عن أعماق المعنى تعبيرا تاما دقيقا ، يقول الخطابى : ذلك أن فى الكلام ألفاظا متقاربة فى المعانى يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة بيان مراد الخطاب ، كالعلم والمعرفة والحمـــد والشكر ، والبخل والشح ، وكالنعت والصفة ، وكقولك : اقعد واجلس ، إلى آخر ما ذكره من الأسماء والأفعال والصفات والحروف ويقول : «والأمر فيها وفى ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك ، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها فى بعض معانيها وإن كان قد يشتركان فى بعضها» .

ثم مضى يشرح الفروق بين الألفاظ التى ذكرها وأنتهى بالنتائج الآتية :

١ — غلط بعض المفسرين فى القرآن الكريم بسبب عدم معرفتهم بالفروق الدقيقة بين الألفاظ .

٢ — تهيب كثير من السلف تفسير القرآن الكريم ، وتركهم القول فيه ، حذرا من أن يزلوا فيذهبوا عن المراد ، وإن كانوا علماء باللسان فقهاء فى الدين ، ويضرب مثلا بالأصمعى .

٣ — حث النبى ﷺ على تعـــلم إعراب القرآن وطلب معانى الغريب منه .

٤ — أن القوم جبنوا على معارضة القرآن لما كان يئودهم ويتصعدهم منه ، وقد كانوا بطباعهم يتبينون مواضع تلك الأمور ، ويعرفون ما يلزمهم من شروطها ، ومن العهدة فيها ، ويعلمون أنهم لا يبلغون شأوها ، فتركوا المعارضة

لعجزهم ، وأقبلوا على المحاربة لجهلهم(١) .

كما يشترط الخطابي في الألفاظ أن تكون مألوفة الاستعمال ليست غريبة ولا وحشية يقول : وإنما يكثر وحشى الغريب في كلام الأوحاش من الناس والأجلاف من جفاة العرب الذين يذهبون مذاهب العنجهية ، ولا يعرفون تقطيع الكلام وتنزيله والتخير له .

ويرى الخطابي أن الميزة البلاغية لاتتعلق بالألفاظ فقط التي يتركب منها الكلام بل لابد أن يضاف إليها المعاني ، ويضاف كذلك ملابسه التي هي نظوم تأليفه(٢) .

ثم يتحدث عن المعاني التي تحملها الألفاظ ، ويرى أن الأمر في معاناتها أشد لأنها نتائج العقول وولائد الأفهام وبنات الأفكار ، ولكنها ليست وحدها أساس المفاضلة بين كلام وكلام يقول : وقد يتنازع الشاعران معنى واحدا فيرتقي أحدهما إلى ذروته ، ويقصر شأو الآخر عن مساواته في درجته (٣) .

ويصل إلى رسوم النظم وهي الأساس الثالث من نظريته فيرى أن الحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر ، لأنها لجام الألفاظ ، وزمام المعاني ، وبه تنتظم أجزاء الكلام ، ويرتبط بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان .

فالخطابي وهو يبحث في الإعجاز تمكن من إبراز عناصر الجمال في العبارة وحصرها في ثلاث :

---

(١) بيان إعجاز القرآن ص ٢٤ - ٣١

(٢) المرجع السابق. ص ٣٢

(٣) المرجع السابق ص ٥٨

أولا : اللفظ ، وتحدث عنه بما لايدع مجالا لمستزيد .

ثانيا : المعنى الأصلى ، لم يزد فيه عن السابقين .

ثالثا : نظوم تأليف العبارة ، فقد ذكر أن رسوم النظم تحتاج إلى حذق ومهارة ، ووضح أمرين هامين :

الأمر الأول : أن رسوم النظم عبارة عن ارتباط الكلمات بعضها ببعض والتئامها .

الأمر الثانى : أن هذا الارتباط وذلك الالتئام يحدث صورة فى النفس يتشكل بها البيان. ولكنه لم يكشف لنا عن سبب هذا الارتباط ، وبم يكون؟ وعن أى شىء يحدث ؟ وما الأمور التى تقوى الارتباط ، والالتئام بين أجزاء العبارة ؟ . هذا ما تركه للإمام عبدالقاهر الجرجانى .

والخطابى بجهده هذا لفت أنظار العلماء إلى بحث النظم بحثا علميا دقيقا وأول من نادى بتغيير طريقة دراسة البلاغة. ثم أتى من بعده القاضى الباقلانى فتحدث عن النظم ولكن على طريقته التى سوف أقدمها لك بعد حين .

٢ ـ الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ

هو : القاضى أبو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ، المعروف بالباقلانى البصرى المتكلم المشهور ، والمتوفى سنة ٤٠٣ .

كان على مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، ومؤيدا اعتقاده ، وناصرا طريقته (١). له كتاب « إعجاز القرآن » الذى أجمع المتأخرون على أنه لم يصنف مثله(٢) .

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان حـ ١ ص ٤٠٠

(٢) البرهان فى علوم القرآن للزركشى حـ ٢ ص ٩٠

الفه ليكشف عن وجه الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم ، ويرى أن المؤلفين أكثروا من التأليف فى علم الكلام والنحو والصرف ومعانى القرآن، ولو أنهم ألفوا فى بيان الإعجاز القرآنى والدلالة على مكانها لكان أحق بكثير مما صنفوا فيه .

ويذكر كتاب « نظم القرآن » للجاحظ ، ويرى أنه لم يزد فيه على ماقاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى وهو الكشف عن اعجاز القرآن و بيان سر إعجازه .

ثم مضى فى الكتاب يتكلم عن الاعجاز ، فيثبت صحة مابين أيدينا من نص القرآن الكريم ويذكر أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوى الوحيد المعجز بنظمه وتأليفه ، لأنه نزل باللسان العربى الذى يتأتى فيه وجوه الفصاحة وكذلك التصرف فى الاستعارات والاشارات ووجوه البديع(١).

ويقول : أن أهل التوراة والانجيل لايدعون لكتابيهما الاعجاز،ويرد على مازعمه المجوس من أن كتابى ،مانى وزرادشت معجزان ، وينفى ماقيل من أن إبن المقفع عارض القرآن .

وبعد أن ينتهى من هذه المقدمات يفتح فصلا لبيان وجوه الاعجاز القرآنى فى رأيه ورأى الأشاعرة من أصحابه وردها إلى ثلاثة هى :

١ — مايتضمنه من الأخبار عن الغيوب ، وذلك مما لايقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه .

٢ — مايتضمنه من الأخبار عن الأمم الماضية مع أن الرسول ﷺ كان أميا ومعلوم بالضرورة أن هذا مما لاسبيل إليه إلا عن تعلم .

---

(١) اعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٩ - ٥٧ بتحقيق خفاجى الطبعة الأولى سنة ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م صبيح .

٣ — أنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه في البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه . ثم يتحدث عن خصائص النظم القرآنى ويطيل الحديث عنها وقد بناها على فكرة أن النظم القرآنى خارج على المعهود من نظوم كلام العرب من ناحية تصرف أسلوبه في تناوله للمعانى والتعبير عنها ، مع أن الحروف حروفهم ، والألفاظ ألفاظهم والتراكيب تراكيبهم ، ثم نفى فكرة أن القرآن معجز لأنه الكلام القديم أو حكاية عنه أو عبارة عنه .

وقبل أن يتحدث عن كيفية الوقوف على إعجاز القرآن ، يعقد فصلا(١) يتحدث فيه عن وجوه البديع ليرى هل يمكن تعليل الاعجاز القرآنى بها أولا يمكن ؟ . ويرى أنه لابد من ذكر وجوه البديع ليكون الكلام واردا على أمر مبين مقرر ، وباب مصور . ويبدأ بالاستعارة كما فعل ابن المعتز وأبو هلال العسكرى وفى أثناء حديثه عن الاستعارة عرض « الإرداف » ثم ذكر « التشبيه » ثم عاد للاستعارة مرة أخرى . ثم ذكر « الغلو » ، « فالمبالغة » ، وهو فى اللون الأخير يتفق مع أبى هلال فى لقبه ويخالف قدامة الذى يسميه « التمثيل » ، ويذكر « المطابقة » ويصرح هنا بنقله عن ابن المعتز ، ثم يشير إلى خلاف قدامة له فى هذا اللقب ، إذ أطلقه على صورة الجناس التام ، ويتحدث عن الجناس ويذكر فرق ما بين ابن المعتز وقدامة فى معناه ، فقد أطلقه ابن المعتز على كل كلمتين متجانستين فى تأليف حروفهما بينما خصه قدامة بجناس الاشتقاق . ثم يذكر « المقابلة » وضربا آخر يسميه « الموازنة » ، والموازنة عند المتأخرين : تساوى الفاصلتين فى الوزن دون التقفية . ويجعل من البديع « المساواة » مقتديا بقدامة ، ومخالفا لأبى هلال الذى أدخلها فى باب الايجاز كما بينا فيما مضى . ويتحدث عن « الاشارة » ثم يجمع « المبالغة » مع « الغلو » وكأنهما كلمتان مترادفتان ، بعد أن فصل بينهما كما وضحنا فيما سلف .

---

(١) اعجاز القرآن ص ٧٣ - ١٣٧

ثم ذكر « الأيغال » و « التوشيح » و « رد ... ز على الصدر » و « صحة التقسيم » و « صحة التفسير » و « التكميل والتتميم » و « الترصيع » وفي هذه الألوان يسير على نهج قدامة فيها وأبي هلال العسكري .

ويذكر « الترصيع مع التجنيس » ثم ضربا آخر يقارب الترصيع يسمى « المضارعة » أو « التكافؤ » ، ويقول عنه أنه قريب من « المطابقة » مع أنه نفس المطابقة ، وذكر باب « التعطف » و « السلب والايجاب » متأثرا فيهما بأبي هلال العسكري .

وذكر من البديع « الكناية والتعريض » و « العكس والتبديل » و« الالتفات » ، وذكر إلتفاتات جرير ، ويذكر في ثنايا حديثه عن الإلتفات أن من أصحاب البديع من لا يعد « الاعتراض » و « الرجوع » من هذا الباب ، ويعد « التذييل » من البديع كما فعل أبو هلال ، ومثله « الاستطراد » ويجعل « التكرار » من البديع .

ويتفق مع أبي هلال في تسمية « تأكيد المدح بما يشبه الذم » باسم « الاستثناء » وينتهي من ذكر وجوه البديع ويقول : إنها كثيرة جداً فاقتصرنا على ذكر بعضها ، فليس الغرض من ذكر جميع أبواب البديع (١) .

ويرى الباقلاني أن هذه الألوان لا تنفرد وحدها بابراز عناصر الاعجاز في القرآن الكريم ولا بابراز محاسن الكلام الفني الجميل ، ولكن هذا لا يمنع أنها من أبواب البراعة وأن القرآن الكريم لا يخلو منها .

ثم يرسم الباقلاني المنهج الذي نسير عليه حتى نقف على عناصر الاعجاز القرآني على الوجه التالي :

١ - أن ننظر بتأمل في نظم القرآن ثم في شيء من كلام النبي صلى الله

---

(١) اعجاز القرآن ص ١٣٧ .

عليه وسلم وصحابته، وسوف تعرف الفصل بين النظمين، والفرق بين الكلامين.

٢ — ننظر ونتأمل تحليله لبعض الشعر المجمع على حسنه، ثم مايذكره من تفصيل اعجاز القرآن وفصاحته وعجيب براعته، فيستدل استدلال العالم، ويستدرك استدراك الناقد — على إعجاز النظم القرآنى، وسموه عن كلام البشر (١).

وتطبيقاً لهذا المنهج الذى رسمه، يسوق طائفة من خطب الرسول ﷺ ورسائله ويقول: فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن وبين مانسخناه لك من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبه ورسائله، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بونا بعيدا.

وستعلم لامحالة — أن نظم القرآن من الأمر الإلهى، وأن كلام النبي ﷺ من الأمر النبوى.

ثم يسوق طائفة من خطب الصحابة والتابعين وغيرهما ويقول: ثم انظر بسكون طائر وخفض جناح وتفريغ لب وجمع عقل فى ذلك، فسيقع لك الفصل بين كلام الناس، وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين، وتعلم الحد الذى يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ، والخطيب والخطيب، والشاعر والشاعر، وبين نظم القرآن جملة.

ويأتى دور الشعر فهو أفصح من الخطب، وأبرع من الرسائل وأدق مسلكا من جميع أصناف المحاورات، ومعظم براعة العرب فيه.

---

(١) إعجاز القرآن ص ١٥٧، ١٥٨.

فيختار الباقلانى قصيدة أمرىء القيس إمام الشعراء المجمع على جودتها ويحللها موضحا مافيها من خلل فى اللفظ والمعنى، ومن تكلف وخروج عن اعتدال الكلام، ومن استعانة وحشو غير مليح ولا بديع، وتشبيه لم يأت على جهة التمام، ومافيها من تناقض وتعسف ولفظ غريب، وكيف تتفاوت أبياتها بين الجوده والرداءة، والسلاسة والغرابة، وغير ذلك مما سطره الأدباء من خطأ فى العروض والنحو والمعانى.

ويقول: فأمانهج القران ونظمه وتأليفه ورصفه، فإن العقول تتيه فى جهته، وتحار فى بحره وتضل دون وصفه. وإذا أردت أن تعرف الفرق بين الشعر، وبين القرآن، فانظر فى جمال النظام القرآنى، وكيف وزع على كل كلمة من كلماته، وكل قصة من قصصه وكل باب من أبوابه بدون تفاوت ثم اقض ما أنت قاض (١).

ثم يتناول(٢) قصيدة بديعية للبحترى الذى اشتهر بجمال ديباجته وحلاوة أنغامه، وعذوبة ألفاظه وهى لاميته:

أهلا بذلكم الخيال المقبـــل فعل الذى نهواه أولم يفعل

ويشرحها موضحاً مايجرى فيها من ثقل روح وتطويل وحشو، ومافى ألفاظها ومعانيها من الكزازة والملوحة والعى، والتكلف والتعسف والتوى والتعقد والمستنكر الوحشى، والنافر عن طبعه، والجافى فى وضعه، والمكرر المضطرب، بالتقديم والتأخير.

وهذا العمل من الباقلانى أفاد النقد الأدبى وأن كان فيه بعض التحامل على الشعر الجاهلى لكنه نبه الأذهان إلى محاسن الكلام وعيوبه.

---

(١) اعجاز القرآن ص ٢١٩.

(٢) المرجع السابق ص ٢٤٤-٢٦٧.

ثم عقد فصلا (١) بعنوان « وصف وجوه البلاغة » ذكر فيه الألوان البلاغية التى ذكرها الرمانى ، ورفض أن تقوم هذه الوجوه وحدها بإبراز عناصر الاعجاز فى القرآن الكريم أو فى الكلام الفنى بوجه عام ويرى أنه لابد أن يكون مضموماً إليها أموراً أخرى يشتمل عليها النظم أو العبارة ، ومن ثم تأتى أهمية جهد الباقلانى إذ لفت أنظار العلماء بقوة إلى بيان تلك الأمور التى يشتمل عليها النظم.

ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا : إنه لم يستطع الكشف عن تلك الأمور وعن سببها ، فلقد اعتمد عليها وعلى ألوان البديع وأيضاً وجوه البلاغة فى الكشف عن جمال النظم ، ولكن جاءت المقاييس البلاغية بارزة ، وسادت الأمور الأخرى ظاهرة التعميم ، ولنضرب لذلك مثلا يقول : تأمل قوله : (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ، ذلك تقدير العزيز العليم)(٢) يقول : أنظر إلى هذه الكلمات الأربع التى ألف بينها ، واحتج بها على ظهور قدرته ، ونفاذ أمره ، أليس كل كلمة منها فى نفسها غرة وبمفردها درة ؟ وهو مع ذلك يبين أنه يصدر عن علو الأمور ، ونفاذ القهر ويتجلى فى بهجة القدرة ، ويتجلى بخالصة العزة ، ويجمع السلاسة إلى الرصانة والسلامة إلى المتانة ، والرونق الصافى ، والبهاء الضافى ، ولست أقول : إنه شمل الاطباق المليح والايجاز اللطيف ، والتعديل والتمثيل ، والتقريب والتشكيل ، وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه إلا أن العجيب ما بينا من انفراد كل كلمة بنفسها ، حتى تصلح أن تكون عين رسالة أو خطبة أو وجه قصيدة أو فقرة ، فإذا ألفت أزدادت حسنا ، وزادتك إذا تأملت معرفة وإيماناً(٣).

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢٨٦ .

(٢) سورة الأنعام آية ٩٦ .

(٣) إعجاز القرآن ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

ويقول أيضاً : ثم تأمل قوله : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم)(١) .

يقول : هل تجد كل لفظة ، وهل تعلم كل كلمة تستقل بالاشتمال على نهاية البديع ، وتتضمن شرط القول البليغ .. فإذا كانت الآية تنتظم من البديع ، وتتألف من البلاغات ، فكيف لا تفوت حد المعهود ، ولا تحوز شأو المألوف؟ فكيف لا تحوز قصب السبق ، ولا تتعالى عن كلام الخلق. فالمقاييس البلاغية المعروفة لعهده بارزة ، وأما الأمور الأخرى فقد طويت تحت الرونق الصافى والبهاء الضافى ، وغرة ، ودرة ، والسلاسة ، والرصانة ، والسلامة والمتانة ، وحد المعهود وشأو المألوف ، وقصب السبق .

ولعل عذر الباقلانى أنه قد افترض أن قارئه بليغ متناه فى البلاغة عارف بوجوه اختلاف النقاد فى حكمهم على الكلام الجيد والردىء واختياراتهم فى أشعارهم ، فهو دائماً يقول لقارئه : إذا كنت من أهل هذه الصنعة ، وهم عنده لا تخفى عليهم صغيرة ولا كبيرة فى إنشاء الكلام الفنى ونقده ، فستحس هذه الروعة وذلك الجلال .

أما إذا كنت دون ذلك فإليك طريق التقليد(١) .

وذلك ما رفضه عبد القاهر الجرجانى كما سيأتى فيما يستقبل من البحث لكنه بحق لفت أنظار العلماء — كما فعل الخطابى — إلى البحث عن منشأ الجمال فى النظم القرآنى ، وجمال الكلام بوجه عام .

كما نقل بحوث النقد من النقد الذاتى والموضوعى الجزئى إلى دائرة النقد

---

(١) سورة يس آية ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩

(٢) إعجاز القرآن ١٥٥ — ١٥٧

الشامل العام ، فيعتبر السورة أو القصيدة أصغر وحدة فنية ، ويدعوك بعد ذلك أن تنظر فى القرآن كله(١) أو فى ديوان الشاعر كله لتستطيع أن تكشف عن جمال النظم القرآنى ، أو تحكم على الشاعر ، يقول فى ابن المعتز بعد أن ذكر له أبياتاً : فانظر فى القصيدة كلها ، ثم فى جميع شعره تعلم أنه ملك الشعر(٢) .

وستظهر أثر الجهود التى بذلها الخطابى والباقلانى ونجد القاضى عبدالجبار يبحث فى أساس نظرية النظم .

٣ — القاضى عبد الجبار المتوفى سنة ٤١٥ ﻫ

هو(٣) القاضى أبو الحسن عبد الجبار الأسد آبادى قاضى قضاة الدولة البويهية المتوفى سنة ٤١٥ ﻫ .

عقد القاضى عبد الجبار فصلا فى كتابه «المغنى فى أبواب التوحيد والعدل الجزء السادس عشر» بعنوان « فى بيان الفصاحة التى فيها يفضل بعض الكلام على بعض ، عرض فيه رأى شيخه أبى هاشم قال : قال شيخنا أبو هاشم : إنما يكون الكلام فصيحاً لجزالة لفظه ، وحسن معناه ، ولا بد من اعتبار الأمرين ، لأنه لو كان جزل اللفظ ركيك المعنى لم يعد فصيحاً ، فإذن يجب أن يكون جامعاً لهذين الأمرين ، وليس فصاحة الكلام بأن يكون له نظم مخصوص ، لأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر ، والنظم مختلف، إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة ، وقد يكون النظم واحداً ، وتقع المزية

---

(١) إعجاز القرآن ص ٢١٩

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٢

(٣) طبقات الشافعية جـ ٣ ص ١١٤ للسبكى، وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ ٢ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ مكتبة القدس .

فى الفصاحة فالمعتبر ماذكرناه، لأنه الذى يتبين فى كل نظم وكل طريقة(١).

فأبو هاشم إذ يرى أن الميزة البلاغية أو فصاحة الكلام على حد قوله، تكون بجزالة اللفظ وحسن معناه ، يرفض أن يكون النظم بمعنى اختلاف الطريقة مفسراً لفصاحة الكلام . ويحتج بأن الخطيب عندهم قد يكون أفصح من الشاعر ، ومعلوم أن نظم الخطيب يخالف نظم الشاعر ، وأيضاً قد يكون النظم واحداً ، ويفضل أديب على غيره فيه ، وحينئذ لابد من وجود مقياس يصح أن يشتمل عليه كلام الأديبين ، وهذا المقياس هو الفصاحة ، لأنه الذى يتبين فى كل نظم وكل طريقة .

ولعله يريد بذلك أن يرد على الأشعرية الذين يمثلهم الباقلانى الذى يرى أن القرآن الكريم معجز بنظمه الخارج عن المعهود من نظام جميع كلام العرب ، والتباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، والذى له أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد ، وذلك أن طرق التعبير على وجوه هى : الشعر ، والكلام الموزون غير المقفى ، والكلام المعدل المسجع ، والمعدل الموزون غير المسجع ، والكلام المرسل — والقرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق ومتى كان كذلك فهو خارج عن العادة ومتعذر عليهم الإتيان بمثله ، ومن ثم فهو معجز(٢) .

ثم شارع وعقد فصلا(٣) وضح فيه رأيه فى الوجه الذى له يقع التفاضل فى فصاحة الكلام ، تناول فيه أجزاء الكلام ، وأدلى فى كل واحد منها برأيه . فبخصوص الألفاظ ، يرى أن الميزة البلاغية أو الفصاحة

---

(١) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل املاء القاضى عبد الجبار جـ١٦ صـ١٩٧ تحقيق أمين الخولى نشر وزارة الثقافة دار الكتب .

(٢) اعجاز القرآن صـ ٦٣ ، صـ ٣٠٠ ، صـ ٣٠٤

(٣) المغنى جـ١٦ صـ ١٩٩ ، ٢٩٠ ، ٢٠١

لاتتعلق بالألفاظ من حيث ذواتها — أى أن الألفاظ لاتكون فصيحة فى نفسها ، وإنما تكون فصيحة بملاحظة صفات مختلفة لها ، كالابدال التى تختص به ، وحركاتها فى الاعراب ، وموقعها فى التقديم والتأخير أو بمعنى آخر تكون الكلمة فصيحة بملاءمتها لجاراتها ، وتعلقها بأخواتها ، وارتباطها بهم ، ووقوعها فى موقعها التى لاترضى به بدلا ، ولاتبغى عنه حولا ، ويحدث من إرتباطها ، وتعلقها بجاراتها صورة تؤدى معنى زائداً عن أصل المعنى ويقول : إن الدليل على أن الكلمة لاتتعلق بها الفصاحة من حيث ذاتها أننا نجدها فصيحة فى موطن وغير فصيحة فى موطن آخر .

وأما المعانى ، ويقصد بها المعانى الغفل الخام ، فيرى عبد الجبار أنها لاتصلح أن تكون مقياساً للفصاحة ، وإن كان لابد منها ، والدليل على ذلك أننا نجد الشاعرين يعبران عن المعنى الواحد ، ويكون أحدهما أفصح من الآخر .

وإنما تظهر ميزة الكلام فى جزئه الثالث الذى هو ضم الكلمات بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة وهذه الطريقة تكون بالإبدال الذى تختص به الكلمات ، أو التقدم والتأخر الذى يختص به الموقع أو الحركات التى تختص الإعراب .

فهل كان القاضى عبد الجبار يريد بضم الكلمات بعضها إلى بعض على طريقة مخصوصة توخى معانى النحو فيما بين الكلم ؟

ندع صاحب توخى معانى النحو الشيخ عبد القاهر الجرجانى يعترف لنا بذلك يقول موضحا عبارة القاضى عبد الجبار سالفة الذكر مانصه : فقولهم : (بالضم) لايصح أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما ، لأنه لو جاز أن يكون لمجرد ضم اللفظ إلى اللفظ

تأثير فى الفصاحة لكان ينبغى إذا قيل (ضحك خرج) أن يحدث من ضم (خرج) إلى (ضحك) فصاحة .

وإذا بطل ذلك لم يبق إلا أن يكون المعنى فى ضم الكلمة إلى الكلمة هو توخى معنى من معانى النحو فيما بينها .

وقولهم: «على طريقة مخصوصة ، يوجب ذلك أيضا ، وذلك أنه لا يكون للطريقة إذا أنت أردت مجرد اللفظ معنى .

وهذا سبيل كل ما قالوه إذا أنت تأملته تراهم فى الجميع قد دفعوا إلى جعل المزية فى معانى النحو وأحكامه من حيث لم يشعروا ذلك ، لأنه أمر ضرورى لا يمكن الخروج منه (١) .

ويستدل القاضى عبد الجبار على ماذهب إليه بقوله : على أنا نعلم ، أن المعانى لا يقع فيها تزايد ، فإذن يجب أن يكون الذى يعتبر التزايد عنده الألفاظ التى يعبر بها عنها ، على ماذكرناه .

فإذا صحت هذه الجملة فالذى به تظهر المزية ، ليس إلا الابدال الذى به تختص الكلمات ، أو التقدم والتأخر الذى يختص الموقع أو الحركات التى تختص الإعراب ، فبذلك تقع المباينة (٢) .

ويقول الشيخ عبد القاهر : ومما تجدهم يعتمدونه ، ويرجعون إليه قولهم إن المعانى لا تتزايد وإنما تتزايد الألفاظ .

وهذا كلام إذا تأملته لم تجد له معنى يصح عليه غير أن تجعل تزايد

---

(١) دلائل الاعجاز للشيخ عبد القاهر ص ٢٥١ .
(٢) المغنى ج ١٦ ص ٢٠١ .

الألفاظ عبارة عن المزايا التى تحدث من توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم ، لأن التزايد فى الألفاظ من حيث هى ألفاظ ونطق لسان محال(١) وعلى ذلك إذا قلنا : إن القاضى عبد الجبار حينما يشير إلى الحركات التى تختص الإعراب إنه يريد بذلك معانى النحو ، وتوخيها بين الكلم لم نبعد به

ومهما يكن من شيء فقد أبقى القاضى عبدالجبار للإمام عبدالقاهر الجرجانى شرح هذه النظرية ، وتقريرها ، وتصويرها ، والتدليل عليها ، والدفاع عنها ، وإطلاق اسم « النظم » عليها والبرهنة على ذلك كما سنرى .

وأما حسن النغم ، وعذوبة القول ، فيراه القاضى عبد الجبار مما يزيد الكلام حسنا على السمع ، لا أنه يوجد فضلا فى الفصاحة ، لأن الذى تتبين به المزية فى ذلك يحصل فيه ، وفى حكايته على سواء ، ويحصل فى المكتوب منه على حسب حصوله فى المسموع .

ولا فرق بين الحقيقة والمجاز ، والخصوص والعموم ، والإيجاز والاطناب فى الفصاحة ، وإنما يمتاز احدهما على الآخر إذا صادف موقعه وكان على الوجه الفصيح(٢) .

وجهد القاضى عبد الجبار أفاد البلاغة العربية إذ كشف عن الأسس التى قامت عليها نظرية النظم ، التى كان لها أثر خطير فى ازدهار البلاغة العربية.
وكان معاصرا له تلميذه(٣) الشريف الرضى الذى قام ببحث قيم حول مجازات القرآن الكريم أعاد به للصورة البيانية بهاءها ورونقها .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٢٥١ (٢) المغنى حـ١٦ ص ٢٠١

(٣) تلخيص البيان فى مجازات القرآن ص ٢١٢ ، ص ٢٤٢ للشريف الرضى تحقيق محمد عبد الغنى حسن .

٤ — الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ

هو : أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى الرضى الموسوى العلوى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ . ألف كتابه القيم « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » تناول فيه مجاز القرآن ، واستعاراته فوضحها وأبرز سر الجمال فيها ، وأعاد للصورة البيانية رونقها وبهاءها .

وهو يعنى المجازات التى تقابل الحقيقة ، وليس طريق التعبير أو مذاهب العرب فى كلامها كما فهمنا من إطلاقات المجاز عند أبى عبيدة معمر بن المثنى .

والشريف الرضى فى عرضه لمجازات القرآن واستعاراته ، لا يحرمنا من لفتات قيمة حول النظم القرآنى ، وبراعته فى اختيار الكلمات ووضعها فى مكانها اللائق بها .

يقول فى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين »(١) وهذه استعارة ، والمعنى أنهم استبدلوا الغى بالرشاد ، والكفر بالإيمان فخسرت صفقتهم ، ولم تربح تجارتهم . ولما أطلق سبحانه على أعمالهم اسم التجارة لما جاء فى أول الكلام بلفظ الشرى تأليفاً لجواهر النظام ، وملاحمة بين أعضاء الكلام(٢) .

ويتحدث عن أسلوب الحذف فى ثنايا عرضه للاستعارة ، يقول فى قوله تعالى : (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم)(٣) وهذه استعارة ، والمراد بها صفة قلوبهم بالمبالغة فى حب العجل ، فكأنها تشربت حبه ،

---

(١) سورة البقرة آية ١٦

(٢) تلخيص البيان فى مجازات القرآن صـ ١١٤

(٣) سورة البقرة آية ٩٣

لمـا زجها بمازجة المشروب ، وخالطها بخالطة الشيء الملذوذ وحذف حب العجل لدلالة الكلام عليه ، لأن القلوب لا يصح وصفها بتشرب العجل على الحقيقة(١) .

وهو لا ينظر إلى الاستعارة وحدها فى بيان جمال الآية بل ينظر إلى الكلمات الأخرى التى تشتمل عليها ، يقول فى قوله تعالى : (ما يأكلون فى بطونهم إلا النار(٢)) وهذه إستعارة ، كأنهم إذا أكلوا ما يوجب العقاب بالنار كان ذلك المأكول مشبها بالأكل من النار، وقوله سبحانه (فى بطونهم) زياده معنى ، وإن كان كل آكل إنما يأكل فى بطنه ، وذلك أنه أفظع سماعا وأشد إيجاعا وليس قول الرجل للآخر: إنك تأكل النار ، مثل قوله : إنك تدخل النار فى بطنك(٣) .

والشريف الرضى فى عرضه للاستعارات، لا ينسى أن يوازن بينها وبين الحقيقة كما صنع الرمانى وتابعه أبو هلال. يقول فى قوله تعالى : (ربنا أفرغ علينا صبرا)(٤) ، فهذه استعارة كأنهم قالوا أمطرنا صبراً ، واسقنا صبراً ، وفى قوله أفرغ ، زيادة فائدة على قوله أنزل ، لأن الافراغ يفيد سعة الشيء وكثرته ، وانصبابه وسعته(٥) .

ويعرض لأسلوب المشاكلة ، ويسميه المقابلة بين الألفاظ ، ويجعله من الاستعارة ، يقول فى قوله تعالى : (ومكروا ومكر الله ، والله خير

---

(١) تلخيص البيان فى مجازات القرآن ص ١١٧
(٢) سورة البقرة آية ١٧٤
(٣) تلخيص البيان ص ١١٩
(٤) سورة البقرة آية ٢٥٠
(٥) تلخيص البيان ص ١٢٠

الماكرين)(١) وهذه استعارة ، لأن حقيقة المكر لاتجوز عليه تعالى والمراد بذلك إنزال العقوبة بهم جزاء على مكرهم .

وإنما سمى الجزاء على المكر مكراً لمقابله بين الألفاظ ، على عادة العرب فى ذلك ، قد استعارها لسانهم ، واستعارها بيانهم(٢) .

كما يعرض أيضاً لأسلوب الكناية ، يقول فى قوله تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولاتبسطها كل البسط)(٣) وهذه استعارة ، وليس المراد بها اليد التى هى الجارحة على الحقيقة ، وإنما الكلام الأول كناية عن التقتير ، والكلام الآخر كناية عن التبذير(٤) .

ومازال المجاز المرسل مختلطاً عنده بالاستعارة ، يقول فى قوله تعالى: (ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا)(٥) .

وهذه استعارة ، والمراد بذكر اللسان ههنا — والله أعلم — الثناء الجميل الباقى فى أعقابهم والخالف فى آبائهم. والعرب تقول : جاءنى لسان فلان يريد مدحه أوذمه ، ولما كان مصدر المدح والذم عن اللسان عبروا عنهما باسم اللسان .

وإنما قال سبحانه : (لسان صدق) ، إضافة اللسان إلى أفضل حالاته وأشرف متصرفاته ، لأن أفضل أحوال اللسان أن يخبر صدقا ، أو يقول حقا(٦) .

---

(١) سورة آل عمران آية ٥٤
(٢) تلخيص البيان ص ١٢٣
(٣) سورة الاسراء آية ٢٩
(٤) تلخيص البيان ص ٢٠٠
(٥) سورة مريم آية ٥٠
(٦) تلخيص البيان ص ٢٠٠

وواضح أن استعمال لفظ « اللسان » مكان « الثناء الجميل » من المجاز المرسل الذى علاقته الآلية .

ويجعل الأسلوب الذى اجتمع فيه الطرفان من قبيل الاستعارة يقول فى قوله تعالى : (فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين)(١) ، وهذه استعارة والمراد بها — والله أعلم — أنه عاجلهم بالاستئصال والهلاك ، فطاحوا كما يطيح الغثاء إذا سال به السيل . . . والعرب يعبرون عن هلاك القوم بقولهم : سال بهم السيل ، فيجوز أن يكون قوله سبحانه : (فجعلناهم غثاء)، كناية عن الهلاك . كما كنوا بقولهم : سال بهم السيل عن الهلاك ، والمعنى فجعلناهم كالغثاء الطافح فى سرعة إنجفاله ، وهوان فقدانه(٢) .

ويطلق الاستعارة على ماهو مجاز عقلى ، فيقول فى قوله تعالى : « فهو فى عيشة راضية »(٣) وهذه استعارة ، وكان الوجه أن يقال : فى عيشة مرضية ، ولكن المعنى خرج على مخرج قولهم : شعر شاعر ، وليل ساهر ، إذا شعر فى ذلك الشعر ، وسهر فى ذلك الليل ، فكأنهما وصفا بما يكون فيهما ، لا بما يكون منهما ، فبان أن تلك العيشة لما كانت بحيث يرضى الإنسان فيها حاله ، جاز أن توصف هى بالرضا ، فيقال راضية على المعنى الذى أشرنا اليه(٤) .

ومن لفتاته القيمة نحو النظم القرآنى عرضه للاستعارة فى قوله تعالى :

---

(١) سورة المؤمنين آية ٤١
(٢) تلخيص البيان صـ ٢٤٢
(٣) سورة الحاقة آية ٢١
(٤) تلخيص البيان صـ ٢٤٤

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، فإذا هو زاهق . ولكم الويل مما تصفون »(١) ، يقول : وهذه استعارة لأن حقيقة القذف من صفات الأشياء الثقيلة ، التي يرجم بها ، كالحجارة وغيرها ، فجعل — سبحانه — إيراد الحق على الباطل بمنزلة الحجر الثقيل الذي يرض ما صكه ، ويدمغ ما مسه . ولما بدأ تعالى بذكر قذف الحق على الباطل وفى الاستعارة حقها ، وأعطاها واجبها ، فقال سبحانه : « فيدمغه » ولم يقل فيذهبه ، ويبطله » . لأن الدمغ إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال ، وعلى طريق الغلبة والإستعلاء ، فكأن الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه . والدماغ مقتل ، ولذلك قال سبحانه من بعد « فإذا هو زاهق » والزاهق ، الهالك(٢) .

فهو لم يقتصر على الاستعارة فقط فى بيان جمال الآية بل لاحظ بقية الكلمات فيها .

والشريف الرضى يعلن عن رأيه فى الميزة البلاغية ، وأين تكمن وذلك عند قوله تعالى : « والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم »(٣)، يقول : وهذه استعارة لأن تبوؤا الدار ، هو إستيطانها والتمكن فيها ، ولا يصح حمل ذلك على حقيقته فى الإيمان ، فلابدّ إذن من حمله على المجاز والاتساع .

فيكون المعنى أنهم استقروا فى الإيمان كاستقرارهم فى الأوطان وهذا من صميم البلاغة ، ولباب الفصاحة ، وقد زاد اللفظ المستعار ههنا معنى

---

(١) سورة الأنبياء آية ١٨ .
(٢) تلخيص البيان ص ٢٢٨ .
(٣) سورة الحشر آية ٩ .

الكلام رونقا ألا ترى كم بين قولنا : استقروا فى الإيمان ، وبين قولنا : تبوّؤا الإيمان .

وأنا أقول أبدا : أن الألفاظ خدم للمعانى ، لأنها تعمل فى تحسين معارضها وتنسيق مطالعها(١) .

وينتهى القرن الرابع الهجرى ، ويقبل القرن الخامس وتزدهر الدراسات البلاغيـــة ازدهارا عظيما فنتقابل مع ثلاثة مناهج مختلفة الأول يقوم به ابن سنان الخفاجى والثانى ابن رشيق والثالث الشيخ عبد القاهر الجرجانى ، والزمخشرى ، وتصل البلاغة بعمل هؤلاء العلماء الأربعة إلى قمة ازدهارها وبمشيئة الله سنعرض لك جهود هؤلاء الأفذاذ .

● — ابن سنان الخفاجى المتوفى سنة ٤٤٦ هـ

هو(٢) : الأمير أبو محمد عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الحلبى المتوفى سنة ٤٦٦ هـ .

ألف كتابه « سر الفصاحة » ليوضحها ويقطع دابر الخلاف حولها ، ويرى أن فائدة الوقوف على ماهية الفصاحة ومعرفة نظم الكلام على اختلاف ضروبه وفنونه — شىء مهم لمن يبحث عن وجه الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم .

---

(١) تلخيص البيان ص ٢٣٠ .
(٢) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى جـ٥ ص٩٦ دار الكتب سنة ١٩٤٩ م

ومهم أيضا لمن يعتقد أن وجه الإعجاز فى القرآن الكريم كان بالصرفة، حتى يستطيع أن يقطع أن فصاحة القرآن الكريم كانت فى مقدورهم ومن جنس فصاحتهم(١) .

على أن ابن سنان من الذين يقولون بأن وجه اعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته ، بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة فى وقت مرامهم ذلك(٢) ، ويرى أن مسيلمة أو غيره لم يأت بمعارضة على الحقيقة لأن الكلام الذى أورده خال من الفصاحة التى وقع التحدى بها فى الأسلوب المخصوص(٣) .

ثم يمضى فى المقدمة ويذكر أنه سيقدم للكلام عن الفصاحة بنبذ من أحكام الأصوات ، وأحوال الحروف فى مخارجها وتأليفها ، وحال اللغة العربيـــة ومافيها من المهمل والمستعمل ، وكيف نشأت اللغة أمواضعة أم توقيفاً ؟ ثم يشير إلى جهود المتكلمين فى دراسة الأصوات وأحكامها وحقيقة الكلام ماهو ، وأنه سيضيف إليه كلاما فى مخارج الحروف ، وانقسام أصنافها ، وأحكام مجهورها ومهموسها ، وشديدها ، ورخوها مـــا كتبه النحاة الذين لم يذكروا ماأوضحه المتكلمون الذى هو الأصل والأس ، ثم يحقق ماأشار إليه فيفتتح فصلا للأصوات ، وآخر للحروف ، ثم فصلا فى الكلمة ويتبعه بفصل فى اللغة حتى إذا انتهى من هذه المقدمات تحدث عن الفصاحة ، فوضح مأخذها من اللغة ، ويذكر الفرق بينها وبين البلاغة فيجعل الفصاحة مقصورة على الألفاظ والبلاغة وصفاً للألفاظ مع

---

(١) سر الفصـــاحة لابن سنان تحقيق الصعيدى طبع صبيح سنة ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م

(٢) سر الفصاحة ص ١١٠

(٣) المرجع السابق ص ٤

المعانى ، وينتهى إلى أن كل كلام بليغ فصيح ، وليس كل فصيح بليغاً[1] .

ثم ذكر حدوداً للبلاغة نقلها من البيان والتبيين ومن الصناعتين . وقال عنها : إنها كالرسوم والعلائم ، وليست بالحدود الصحيحة . ثم تكلم عن شرف الفصاحة وعظم قدر البيان والبلاغة كما صنع السابقون .

ثم عاد إلى الحديث عن الفصاحة . وقرر أنها نعت الألفاظ إذا وجدت على شروط عدة ، ومتى تكاملت الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف ، وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم ، وتلك الشروط تنقسم قسمين :

فالأول منها يوجد فى اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ وتؤلف منه . والقسم الثانى يوجد فى الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض .

فأما الذى يوجد فى اللفظة الواحدة فثمانية أشياء :

الأول : أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج لتكون حقيقة على اللسان .

والثانى : أن تجد لتأليف اللفظة فى السمع حسناً ، ومزية على غيرها وإن تساويا فى التأليف من الحروف المتباعدة .

والثالث : أن تكون الكلمة — كما قال أبو عثمان الجاحظ — غير متوعرة وحشية .

والرابع : أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية ، كما قاله أبو عثمان أيضاً .

---

(١) سر الفصاحة ٥٩ — ٦٥ وما بعدها

والخامس : أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة ، ويدخل في هذا القسم كل ماينكره أهل اللغة ، ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة ، وقد يكون ذلك لأجل أن اللفظة ، بعينها غير عربية .

والسادس : ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره ، فإذا أوردت وهي غير مقصود بهـــا ذلك المعنى قبحت ، وإن كملت فيها الصفات التي بيناها .

والسابع : أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة.

والثامن : أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجرى مجرى ذلك، فإني أراها تحسن به، ويجب ذكره في الأقسام المفصلة ، ولعل ذلك لموقع الاختصار بالتصغير(١) .

هذه هي الشروط الثمانية التي اشترطها ابن سنان في اللفظة المفردة ، وقد ذكر الأمثلة لكل شرط مشفوعة بنقده القيم .

ومن الواضح أن ابن سنان قد استمد هذه الشروط مما كتبه الجاحظ ، وقد نهل المتأخرون منه حينما كتبوا مقدمة البلاغة والفصاحة ، وإن كان بعض البلاغيين تناولوا كتابة ابن سنان بالنقد والتعديل كابن الأثير كما سنرى .

ثم انتقل ابن سنان إلى الحديث عن القسم الثاني(٢) وهو الألفاظ

(١) سر الفصاحة ، شروط الكلمة المفردة ص ٦٦ — ١٠١
(٢) المرجع السابق ص ١٠١

المنظومة بعضها مع بعض أو بعبارة أخرى فصاحة الكلام، ثم قدم له بمقدمة جاء فيها : « إن كل صناعة من الصناعات فكمالها بخمسة أشياء على ماذكره الحكماء :

الموضوع : وهو الخشب فى صناعه النجارة ، والصانع : وهو النجار ، والصورة : وهى كالتربيع المخصوص إن كان المصنوع كرسياً ، والآلة : مثل المنشار والقدوم ومايجرى مجراهما ، والغرض : وهو أن يقصد على هذا المثال الجلوس فوق مايصنعه .

وإذا كان الأمر على هذا ولاتمكن المنازعة فيه ، وكان تأليف الكلام المخصوص صناعة ، وجب أن نعتبر فيها هـذه الأقسام . وعلى ذلك فالموضوع فى صناعه الكلام عنده : هو الكلام المؤلف من الأصوات وأما الصانع : فهو المؤلف الذى ينظم الكلام بعضه مع بعض كالشاعر ، والكاتب وغيرهما ، وأما الصورة : فهى كالفصل للكاتب والبيت للشاعر وماجرى مجراهما .

وأما الآلة: فأقرب ماقيل فيها أنها طبع هذا الناظم ، والعلوم التى اكتسبها بعد ذلك .

وأما الغرض : فبحسب الكلام المؤلف ، فإن كان مدحا كان الغرض به قولا ينبىء عن عظم حال الممدوح ، وإن كان هجوا فالضد ، وعلى هذا القياس كل ما يؤلف(١) » .

وهذه النظرية التى تجعل من الفن صناعة كسائر الصناعات ، وإن وردت على لسان كثير من النقاد العرب (٢، ٣، ٤) إلا أن أول من أشار

---

(١) سر الفصاحة ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٢) ابن سلام الجمحى، طبقات الشعراء ، ص٦ .
(٣) إبن طباطبا ، عيار الشعر ، ص ٥
(٤) أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص ٦٩

إليها بوضوح ، قدامة بن جعفر فى كتابه « نقد الشعر » وتبعه ابن سنان الخفاجى .

ويناقش قدامة فى رأيه(١) الذى أورده فى كتابه نقد الشعر ، من أن موضوع الكلام هو المعانى ، فيرفض هذا الرأى ويتفق معه فى رأيه الآخر الذى يجعل موضوع الكلام هو الألفاظ .

ثم عاد إلى الكلام فى القسم الثانى وهو فصاحة الكلام ، ولاحظ أنه لابد فيها أولا من الأقسام الثمانية المذكورة فى اللفظة المفردة ثم أخذ يبحثها فقال :

الأول منها : أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج ، وهذا بعينه فى التأليف ، وبيانه أن يجتنب الناظم تكرر الحروف المتقاربة فى تأليف الكلام ، ثم أخذ يسرد الأمثلة للكلام المتنافر الذى يثقل النطق به لتقارب حروفه وتكررها على نحو ما تتنافر حروف الكلمة .

ثم أخذ يناقش الرمانى(٢) فيما ذهب إليه ، من أن التأليف على ثلاثة أضرب : متنافر ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا وهو القرآن كله ، والأول والثانى فى كلام الناس .

ويرى الخفاجى أن ماذهب إليه الرمانى غير صحيح والقسمة فاسدة ، وذلك أن التأليف على ضربين : متنافر ، ومتلائم ، وقد يقع فى المتلائم ما بعضه أشد تلاؤما من بعض على حسب ما يقع التأليف عليه ،

---

(١) سر الفصاحة ص١٠٣ ، ١٠٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٠٨ — ١١٩ .

ولا يحتاج أن يجعل ذلك قسما ثالثا ، كما يكون من المتنافر ما بعضه أشد فى التنافر وأكثر من بعض ، ولم يجعل الرمانى ذلك قسما رابعا .

وقـــد بنى ابن سنان رأيه على فرضين ، الفرض الأول : أنه لا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار من كلام البشر ، والثانى : أنه يعتقد اعتقادا أن الرمانى يرى أن وجه إعجاز القرآن البلاغى يظهر بالتلاؤم وحده .

والفرض الأول خطأ لإجماع العلماء والباحثين على أن وجه إعجاز القرآن يظهر فى نظمه البديع وتأليفه العجيب الذى لا يقدر على مثله العباد ، والفرض الثانى خطأ لأننا لدراستنا الرمانى رأيناه يجعل مع التلاؤم ، دلالة التأليف التى لا نهاية لها ، الإثنان مناط الإعجاز وليس التلاؤم وحده .

ويمضى فى مناقشة الرمانى على أساس أن الفصاحة وصف للكلمة من حيث ذاتها وهو أساس فاسد ، ترى الشيخ عبد القاهر يطيل الكلام حول بيان وجه فساده فى كتابه دلائل الإعجاز ويناقش الرمانى أيضا فيما نقله عن الخليل بن أحمد من أن التنافر يكون من تقارب ما بين مخارج الحروف أو تباعدها بعداً شديداً .

ورأى أن التنافر يكون فى قرب المخارج فقط كما رأى أنه إذا كان يقبح تكرار الحروف المتقاربة المخارج فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأشنع إلا إذا كان المعنى المقصود لا يتم إلا به ، ثم ساق الشواهد وينتقل إلى الشرط الثانى : وهو أن تجد اللفظة فى السمع حسناً ومزية عن غيرها لامن أجل تباعد الحروف فقط بل الأمر يقع فى التأليف ، ويعرض فى المزاج ، ويحسن فى التأليف إذا ترادفت الكلمات المختارة ، وهو يرجع إلى اللفظة بانفرادها ، وليس للتأليف إلا إذا ترادفت الكلمات المختارة .

وكذلك الثالث والرابع من الشروط ، وهما أن تكون الكلمة غير وحشية ولا عامية لأن هذين القسمين أيضاً لا علقة للتأليف فيهما ، وإنما يقبح إذا كثر فيه الكلام الوحشي أو العامي ، على حد ما يحسن إذا كثر فيه الكلام المختار(١) .

والخامس : وهو أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح - فللتأليف بهذا القسم علقة وكيدة أى فلابد أن يوافق الكلام العرف النحوى(٢) .

وأما السادس : وهو أن تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره - فللتأليف فيه تعلق بحسب إضافة الكلمة إلى غيرها ، فإن القبح يختلف بحسب ذلك .

وأما السابع: وهو اجتناب الكلمة الكثيرة الحروف فلا علقة للتأليف بهذا ، إلا أن ظهور قبحه أجلى إذا ترادفت فيه الكلمات الطوال .

وأما الثامن : وهو التصغير فلا علقة للتأليف به - إلا أن تكرار التصغير والنداء والترخيم والنعت والعطف والتوكيد ، وغير ذلك من الأقسام والإسهاب فى إيرادها معدودة فى جملة التكرار ، ويجب التوسط فيه ، فإن لكل شيء حداً ومقداراً لا يحسن تجاوزه ، ولا يحمد تعديه(٣).

وينتقل إلى ما يختص بالتأليف ، وينفرد له ، وأول أصل عنده فى حسن التأليف هو :

---

(١) سر الفصاحة ص ١١٩
(٢) المرجع السابق ص ١٢٠ — ١٢١
(٣) المرجع السابق ص ١٢٣ ، ١٢٤

١ — وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازاً(١) ، وهذا الأصل تحته مباحث :

منها ألا يكون فى الكلام تقديم وتأخير يفسدان معناه أو إعرابه .

ومنها ألا يكون الكلام مقلوباً فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه ، ويبدو من تمثيل الخفاجى للمقلوب أنه يقصد به ما قلب على سبيل الغلط - عند ابن قتيبة - أما المقلوب عند ابن قتيبة ويحتمل التأويل فيعتبره الخفاجى غير مقلوب .

ومن وضع الألفاظ فى موضعها عنده : حسن الاستعارة ، وقد نقل لها تعريف الرمانى وشرحه وطبقه على قوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبا) ونقل عنـــه أيضاً أن الاستعارة أبلغ من الحقيقة والفرق بين التشبيه والاستعارة وكذلك عن القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ، ويرى أيضا أنه لابد للاستعارة من حقيقة هى أصلها ، وأركانها هى : مستعار ، ومستعار منه ، ومستعار له .

وقسم الاستعارة إلى قسمين : قريب مختار ، وبعيد مطرح ، فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوى وشبه واضح ، والبعيد المطرح : إما أن يكون لبعده عما استعير له فى الأصل ، أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك .

ثم ذكر شواهد من القرآن الكريم استمدها من الرمانى ، كما ذكر أمثلة من الشعر ثم ناقش الآمدى والصولى فى بعض تحليلاته لاستعارات أبى تمام والبحترى وكذلك القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى فى بعض شرحه لاستعارات المتنبى .

---

(١) سر الفصاحة صـ ١٢٥ — ١٩٥

ثم عرض الحقيقة ، ورأى أنها لاتحتاج إلى مثال لأن أكثر الكلام على الحقيقة .

ومن وضع الألفاظ مواضعها عنده : ألا تقع الكلمة حشوا ، وهو أن يكون المقصد بالكلمة إصلاح الوزن ، أو تناسب القوافى ، وحرف الروى إن كان الكلام منظوما ، وقصد السجع وتأليف الفصول إن كان منثوراً ، من غير معنى تفيده أكثر من ذلك .

ثم عاد فجعل منه مفيداً وغير مفيد ، وجعل من المفيد ماأطلق عليه السابقون اسم الاعتراض أو التتميم أو الإيغال .

ومن وضع الألفاظ موضعها اللائق بها ألا يكون الكلام شديد المداخلة يركب بعضه بعضاً ، وهذا هو المعاظلة التى وصف عمر بن الخطاب رضى الله عنه - زهير بن أبى سلمى بتجنبها ، ويشير إلى غلط قدامة فى فهم معناها وتوضيح الآمدى لخطئه .

ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة فى الذم ، ولا فى الذم بالألفاظ المعروفة للمدح فيستعمل اللفظ فى مكانه اللائق به ، وجعل من هذا الجنس حسن الكناية عما يجب أن يكنى عنه فى الموضع الذى لايحسن فيه التصريح وذلك أصل من أصول الفصاحة وشرط من شروط البلاغة .

ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل فى الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب : ألفاظ المتكلمين والنحويين ، والمهندسين ومعانيهم ، والألفاظ التى تختص بها أهل المهن والعلوم ثم ساق الأمثلة .

ثم ينتقل إلى شرط ثان من شروط فصاحة التأليف(١) : وهو

---

(١) سر الفصاحة صـ ١٩٩

٢ — المناسبة بين اللفظين وهي عنده على ضربين : مناسبة بين اللفظين عن طريق الصيغة ، ومناسبة من طريق المعنى ، فأما المناسبة من طريق المعنى فسيذكرها في المعاني .

وأما المناسبة بينهما عن طريق الصيغة فيذكر أن لها تأثيراً في الفصاحة ويمثل لها بأمثلة تنطبق على مايسميه المتأخرون بمراعاة النظير(١) .

وجعل من المناسبة بين الألفاظ في الصيغ : السجع والازدواج(٢) ، وعرف السجع بأنه تماثل الحروف في مقاطع الفصول ثم عرض لاختلاف الناس واختار النوع المحمود ، وخطأ الرماني في قوله : إن السجع عيب على الاطلاق .

ويوصى الكتاب ألا تكون الرسائل كلها مسجوعة وكذلك الشعراء أن تكون القوافي متمكنة يدل الكلام عليها (٣) ، ويذكر التزام (٤) بعض الشعراء في القوافي بإعادة ما لا يلزمه طلبا للزيادة في التناسب ، والإغراق في التماثل ثم ذكر أمثلة لهذا النوع .

ويوصي الشعراء أن يتحروا في ابتداء قصائدهم فلا يبدءونها بلفظ محتمل أو كلام يتطير منه ، كما يوصيهم أن يتجنبوا عيوب القوافي كالاقواء والايطاء والسناد .

ومن عيوب القوافي أيضا أن يتم البيت ولا تتم الكلمة التي منها القافية حتى يكون تماما في البيت الثاني .

---

(١) سر الفصاحة صـ ١٩٩ — ٢٠١
(٢) المرجع السابق صـ ٢٠١ — ٢٠٢
(٣) المرجع السابق ص ٢١٠
(٤) المرجع السابق ص ٢١١ — ٢١٣

وما يجرى هذا المجرى التضمين .

ويرى أن التصريع إنما يحسن إذا كان فى أول القصيدة ليميز بين الابتداء وغيره (١) .

ومن التناسب عنده «الترصيع»(٢) وهو أن يعتمد تصيير مقاطع الأجزاء فى البيت المنظوم أو الفصل من الكلام المنثور مسجوعة .

ولا يحسن إذا تكرر وتوالى ، لأنه يدل على التكلف وشدة التصنع ، وإنما يحسن إذا وقع قليلا غير نافر وساق له الأمثلة من النثر والشعر .

ومن التناسب أيضا عنده : حمل اللفظ على اللفظ فى الترتيب ليكون ما يرجع إلى المقدم مقدما وإلى المؤخر مؤخرا(٣) ، وذكر له مثالين ينطبقان على ما يسميه المتأخرون اللف والنشر .

ومن المناسبة أيضا : التناسب فى المقدار (٤) ، وهذا فى الشعر محفوظ بالوزن فلا يمكن اختلاف الأبيات فى الطول والقصر ، فإن زاحف بعض الأبيات أو جعل الشعر كله مزاحفا حتى مال إلى الانكسار ، وخرج من باب الشعر فى الذوق كان قبيحا . وينقل عن الخليل بن أحمد أنه كان يستحسن بعض الزحاف فى الشعر إذا قل ، وإذا كثر قبح عنده . هذا فى الشعر أما فى الكلام المنثور ، فيرى الخفاجى أن الأحسن منه تساوى الفصول فى مقاديرها أو يكون الفصل الثانى أطول من الأول وعلى هذا أجمع الكتاب .

---

(١) سر الفصاحة ص ٢١٥ — ٢٢٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٣ — ٢٢٥

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٥

(٤) المرجع السابق ص ٢٢٥ - ٢٢٦

ومن التناسب عنده : المجانس (١) وهو : أن يكون بعض الألفاظ مشتقا من بعض أو كان معناهما واحداً أو بمنزلة المشتق إن كان معناهما مختلفا ، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعنى .

وبعض البغداديين يسمى تساوى اللفظتين فى الصفة مع اختلاف المعنى — المماثل — ويحسن الجناس إذا كان قليلا ولذلك لا ينبغى للشعراء أن يكثروا منه .

ويذكر أن قدامة سمى نوعا من المجانس باسم المطابق بالتكافؤ وأن الآمدى أنكر عليه ذلك .

ويذكر جناس التركيب عند أبى العلاء ويرفضه ثم يذكر مجانس التصحيف .

ويمثل له بقول أبى عبادة :

ولم يكن المغتر بالله إذ شرى ليعجز والمعتز بالله طالبه

وهذا أقل طبقات المجانس .

ثم ينتقل إلى تناسب الألفاظ من طريق المعنى (٢) ويرى أنها تتناسب على وجهين : أحدهما أن يكون معنى اللفظتين متقاربا ، والثانى أن يكون أحد المعنيين مضادا الآخر أو قريبا من المضاد ، وإذا خرجت الألفاظ عن هذين القسمين فليست بمتناسبة .

وما يسميه البلاغيون بالمتضاد ، وبالمكافىء وبالمخالف وبالمقابلة وبالسلب والإيجاب ، يختار الخفاجى تسميته بالمطابق .

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٢٦ - ٢٣٣

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٣ - ٢٧٥

ولا يستحسن منه إلا ما قل ووقع غير مقصود ولا متكلف ، وإما إذا كان معنيا الكلمتين غير متناسبتين لا على التقارب ، ولا على التضاد ، فإن ذلك يقبح ثم ساق الأمثلة للمعيب والجيد .

وعنده نوع يجرى مجرى « المطابق » وهو : أن يقـــدم فى الكلام جزء ، ألفاظه منظومة ويتلى بآخر ، يجعل فيه ما كان مقدما فى الأول مؤخرا فى الثانى ، وما كان مؤخرا مقدما . ويشير إلى أن قدامة سمى هذا النوع « التبديل » وذكر له أمثلة منها قول بعضهم : أشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم لمن شكرك .

ويذكر « المخالف » وهو الذى يقرب من التضاد كقول أبى تمام :

تردى ثياب المـــوت حمرا فما أتى
لها الليل إلا وهى من ســـندس خضر

فإن الحمر والخضر من « المخالف » وبعض الناس يجعل هذا من المطابق .

ويجعل من شروط الفصاحة والبلاغة ، الإيجاز والاختصار وحذف فضول الكلام ، حتى يعبر عن المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، ثم أشار إلى قيمة دور الإيجاز فى التعبير الفنى .

ولا يوافق على ما يقال : إن من الكلام ما يحسن فيه الإسهاب والإطالة كالخطب والكتب التى يحتاج أن يفهمها عوام الناس ، وأصحاب الأذهان البعيدة ، فإن الألفاظ إذا طالت فيها وترددت فى إيضـــاح المعنى أثر ذلك عندهم فيه ، ولو اقتصر بهم على وحى الألفاظ وموجز الكلام لم يقع لأكثرهم ، ويلزم من ذهب إلى هذا أن يختار الألفاظ العامية المبتذلة على الألفاظ الفصيحة التى لم تكثر استعمالها العامة ، ولا ابتذلوها ، لأن علته فى اختيار الطويل لأجل فهمهم له قائمة فى الألفاظ المبتذلة ، ولا خلاف أنهم

إلى فهمها أقرب من فهم ما يقل ابتذالهم له ، وهذا مما لايذهب إليه أحد ولا التزمه ملتزم .

ثم يذكر أنهم قسموا دلالة الألفاظ على المعانى، ثلاثة أقسام : أحدها المساواة وهو أن يكون المعنى مساوياً اللفظ ، والثانى التذييل وهو أن يكون اللفظ زائداً على المعنى وفاضلا عنه ، والثالث الإشارة وهو أن يكون المعنى زائداً على اللفظ . وبناء على تقسيمهم يكون التذييل من التطويل .

ويذكر أنهم حددوا لكل منهم مكانه ، والمختار عنده ، أن يكون اللفظ القليل يدل على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة لاغموض فيه .

ومثل للإيجاز بقوله تعالى : (ولكم فى القصاص حياة) . وقال : أنه بينه وبين قولهم : القتل أنفى للقتل ، تفاوت فى البلاغة ، وتابع الرمانى فى ذلك وتابعه أيضاً فى بيان سر الإيجاز وتقسيمه له إلى إيجاز حذف وقصر. وكذلك الإطناب وفى قوله : التطويل عيب ، والإطناب بلاغة .

ومن شروط الفصاحة والبلاغة عنده أيضاً : أن يكون معنى الكلام واضحاً ظاهرا جلياً لايحتاج إلى فكر فى إستخراجه ، وتأمل فى فهمه ، وسواء كان ذلك الكلام الذى يحتاج إلى فكر منظوما أو منثوراً .ويخطىء أبا إسحاق الصابى فى قوله : (أن الحسن من الشعر ما أعطاك معناه بعد مطاولة ومماطلة ، والحسن من النثر ماسبق معناه لفظه) ويرفض تفريقه بين النظم والنثر فى هذا الحكم ولا فرق بينهما ، ولقد أطال الخفاجى فى توضيح وجهة نظره ، ويبدو أنه متأثر بما ورد فى البيان والتبيين للجاحظ من ناحية ومن ناحية أخرى يبدو من كلامه أنه يقصد التعقيد المعنوى واللفظى ، وما يحتاج إلى فكر ونظر بدون فائدة .

وسنرى الشيخ عبد القاهر يفرق بين استهلاك الفكر فى الغوص على

المعانى الدقيقة والأسرار اللطيفة ، وبين استهلاك الفكر بسبب التعقيد بنوعيه .

ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تراد الدلالة على المعنى ، فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له فى اللغة ، بل يؤتى بلفظ يتبع ذلك المعنى ضرورة ، فيكون فى ذكر التابع دلالة على المتبوع . وهذا يسمى « الإرداف والتتبيع » ويعد منه الكناية ، ويمثل لهذا النوع بقول الشاعر :

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل أبوها وإما عبد شمس وهاشم

وقد سماها قدامة الارداف ، وسمى العسكرى الفصل باسم « الارداف والتوابع » وسر بلاغة هذا الباب مايقع فيه من المبالغة وذكر أمثلة تنطبق على ما عرف بأنه كناية عن صفة ، وموصوف ، ونسبة . ويجعل من نعوت الفصاحة والبلاغة « التمثيل » وهو أن يراد معنى فيوضح بألفاظ تدل على معنى آخر وذلك المعنى مثال للمعنى المقصود ، وسر بلاغته مافيه من الإيجاز وأن تمثيل المعنى يوضحه ويخرجه إلى الحس والمشاهدة . وهذه فائدة التمثيل فى جميع العلوم . وذكر الأمثلة .

وبهذا ينتهى الخفاجى من الحديث عن الألفاظ بإنفرادها واشتراكها مع المعانى ومن وقف عليه عرف حقيقة الفصاحة ومائيتها ، وعلم أسرارها وعللها .

ولما كانت البلاغة عنده عبارة عن حسن الألفاظ والمعانى ، وكان قد انتهى من عرض الألفاظ على الانفراد والاشتراك ، فسوف يعرض لنا المعانى مفردة من الألفاظ ليكون الكتاب كافيا فى العلم بحقيقة البلاغة والفصاحة ، فهو وأن كان قد ميز بينهما إلا أنهما عند أكثر الناس شيء واحد .

ويذكر أن حصر المعانى بقوانين تستوعب أقسامها وفنونها على حسب ما ذكر فى الألفاظ عسير متعب لا يليق بهذا الكتاب تكلفه(١) .

ويبدأ بصحة التقسيم وهى : أن تكون الأقسام المذكورة لم يخل بشىء منها ولا تكررت ولا دخل بعضها تحت بعض . ويذكر لها أمثلة من المعيب والجيد ، ويقول : إنه ينبغى أن يتجنب فيها الاستحالة والتناقض ، وألا يضع الأديب الجائز موضع الممتنع ويجوز أن يضع الممتنع موضع الجائز إذا كان فى ذلك ضرب من الغلو والمبالغة . ولا يحسن أن يوضع الجائز موضع الممتنع لأنه لا علة لجواز ذلك وهو ضد ما يحمد من الغلو والمبالغة فى الشعر مثل قول الشاعر :

وإن صورة راقتك فاخـــبر فربما
أمر مذاق العود والعـــود أخضر

فبنى الكلام على أن العود فى الأكثر يكون حلوا بقوله : (فربما) وليس الأمر كذلك ، بل العود الأخضر فى الأكثر مر ، وكأن هذا الشاعر وضع الأكثر موضع الأقل . وذلك غلط فى المعنى .

ويجعل من صحة المعانى صحة التشبيه ، وهو أن يقال : إن أحد الشيئين مثل الآخر فى بعض الصفات والمعانى ، ويرى أنه لا يلزم أن يكون المشبه يشبه المشبه به من جميع الوجوه ، لأنه لو جاز لكان المشبه به بعينه ، وهذا محال والأحسن أن يكون المشبه يشبه المشبه به فى أكثر صفاته ومعانيه .

وإذا قل شبه المشبه بالمشبه به كان التشبيه رديئا ، ويرى كما يرى الرمانى أن الأصل فى التشبيه أن يشبه الخفى بالظاهر المحسوس المعتاد ؛ لأجل

---

(١) سر الفصاحة ص ٢٧٦ — ٢٢٧

إيضاح المعنى وبيان المراد، أو يشبه الشيء بما هو أعظم وأحسن وأبلغ منه فيكون حسن ذلك لأجل الغلو والمبالغة ، وساق الشواهد من القرآن الكريم والشعر .

ومن صحة المعانى عنده صحة الأوصاف فى الأغراض ، ويشترط أن يطابق الكلام شعرا ونثرا من يوجه إليهم مع مراعاة الأحوال والمقامات .

ويذكر أن قدامة بن جعفر الكاتب ذهب إلى أن المدح بالحسن والجمال والذم بالقبح والدمامة ليس بمدح على الحقيقة ، ولا ذم على الصحة ، ويخطىء كل من يمدح بهذا ويذم بذاك ويستدل بانكار عبدالملك بن مروان على عبد الله بن قيس الرقيات قوله فيه :

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

وقوله : تقول فى هذا وتقول لمصعب :

إنما مصعب شهاب من الله
تجلت عن وجهه الظلماء

ويقول إن الآمدى أنكر هذا المذهب ، ويتابعه فى الرد على قدامة .

ويذكر أن من الصحة صحة المقابلة فى المعانى ، وهو أن يضع مؤلف الكلام معانى يريد التوفيق بين بعضها وبعض والمخالفة ، فيأتى فى الموافق بما يوافق وفى المخالف بما يخالف على الصحة ويسوق الأمثلة شعراً ونثرا ، ويمثل أيضاً للفاسد منها .

ومن صحة المعانى عنده صحة النسق والنظم وهو : أن يستمر في المعنى

الواحد وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقاً بالأول وغير منقطع عنه ، ويجعل من هذا الباب حسن التخلص من النسيب إلى المدح ، ويذكر أن المحدثين أجادوا هذا الفن ، أما القدامى فقد كان خروجهم من النسيب إما منقطعا ، وإما مبنيا على وصف الإبل التى ساروا إلى الممدوح عليها .

ويقول : إن مما يستحسن من خروج المحدثين قول البحترى :

شقائق يحملن الندى فكأنه
دموع التصابى فى خدود الخرائد

كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت تليها بتلك البارقات الرواعد

وينتقل إلى صحة التفسير وهى عنده : أن يذكر مؤلف الكلام معنى يحتاج إلى تفسيره فيأتى به على الصحة من غير زيادة ولا نقص ، ثم مثل للصحيح والفاسد منها .

ولأجل كمال المعنى يوصى أن تستوفى الأحوال التى تتم بها صحته وتكمل جودته وذلك مثل قول نافع بن خليفة الغنوى :

رجال إذا لم يقبل الحق منهم
ويعطوه عاذوا بالسيوف القواضب

فتمم المعنى بقوله : ويعطوه — لأنه لو اقتصر على قوله : إذا لم يقبل الحق منهم عاذوا بالسيوف كان المعنى ناقصا . ثم ذكر له مثالا من النثر .

ويصل إلى المبالغة فى المعنى والغلو فيه ، ويذكر أن الناس مختلفون فى حمد الغلو وذمه ، فمنهم من يختار الغلو وهذا هو مذهب اليونانيين فى شعرهم ومنهم من يكره الغلو والمبالغة التى تخرج إلى الاحالة ، ويختار ما قارب الحقيقة ودانى الصحة .